حياة مع الغوث

لافي بن سعيّد

ⓒ لافي بن سعيد المطيري ، ١٤٤٧هـ

سعيد ، لافي بن
حياة مع الغوث. / لافي بن سعيد ؛ لافي بن سعيد ؛ لافي بن سعيد - ط١. .- الرياض ، ١٤٤٧هـ
١٩١ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٧/٤٤٥٧
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٨٦٥٠-٩

حياة مع الغوث

توثيق مسيرتي الإغاثية في الهلال الأحمر السعودي

لافي بن سعيّد

توطئـــة

تحمـل المملكـة العربيـة السـعودية هماً إنسـانياً ودوراً قياديـاً تجـاه الشـعوب المنكوبـة التي تتعـرض لمـآسي المجاعـات والكـوارث والأزمـات الإنسـانية، ويشـاركها مواطنوهـا هـذا الهم مصحوباً بالفخـر والاعتزاز، مما أثمر تبنيها لمبـادرات إنسـانية بالغـة التـأثير والأثـر على صـور مسـاعدات إنسـانية قـصيرة وطويلـة الأجـل لتخفيـف أوجـاع الأزمـات والكـوارث على تلـك الشـعوب ودولها.

ولا يسـع مـن تعتمـده حكومـة المملكـة وتعتمـد عليـه مـن مواطنيهـا الموفديـن باسـمها والمكلـفين بتنفيـذ تلـك المبـادرات والبرامـج إلا أن ينالـه جـزءٌ وافـرٌ مـن الفخـر والاعتزاز، ويحمـل مـا تحمِلـه الدولـة و حمَّلتـه إيـاه مـن هـمٍّ ومسـؤوليات وشـعور وطني وإنسـاني يدفعـه نحـو الإنجـاز والعمـل المتفـاني لإنجـاز المهـام الإنسـانية، وتَلَمُّس نتائجهـا المثمـرة وآثارهـا تجـاه الشـعوب المنكوبـة.

إن هـذه البرامـج والمبـادرات الإنسـانية تنسـجم تمامـاً مـع مكانـة المملكـة العربيـة السـعودية العالميـة المرموقـة على المسـتويين العالمي والإقليمي وعلى مسـتوى العالـمين العـربي والإسلامـي، وتنسـجم تمامـاً مـع الـدور القيـادي الإيجـابي والمؤثـر الـذي تلعبـه سياسـياً واقتصاديـاً ودينيـاً.

ومـن مهامـي العمليـة المهنيـة والعمليـة كموفـدٍ لحكومـة المملكـة العربيـة السـعودية وقائـدٍ في تنفيـذ تلـك المبـادرات والبرامـج هـو توثيقهـا وإبرازهـا بمـا يليـق ويتناسـب مـع الجهـود الإنسـانية الجبـارة التي لـم تنفـك حكومـة المملكـة العربيـة السـعودية عـن القيـام بهـا تجـاه الشـعوب المنكوبـة دون النظـر إلى الخلفيـات العرقيـة أو الدينيـة لهـا.

مـا سـتقرؤه - أيهـا القـارئ الكريـم - في ثنايـا هـذا الكتـاب هـو سـجل ثـري وحافـل لمجهـودات كـبيرة قمـت بهـا مـع فـرق العمـل التي قدتهـا بدعـم مـن حكومـة المملكـة العربيـة السـعودية لتلمس مواطـن الحاجـة لتلـك الشـعوب والاسـتجابة الكريمـة الميدانيـة لهـا لسـنوات عديـدة .

مقـدمـة

حين فكّرتُ في توثيقِ مسيرتي في الأسفار والرحلات وسنوات العمل، كان ذلك بطلبٍ من الدكتور حمد الصقير عام ١٤١٠ هـ، إذ قال لي: يا لافي، لقد مررتَ بتجربة في العمل الإغاثي، وشهدتَ مواقفَ وأحداثًا لا يجب أن تُهمل، فاكتبْ تجربتك في العمل الإغاثي في السودان والصومال وغيرها..؛ لأنها جديرة أن تظهر وتُعرف.

استجبت لطلبه وكتبتُها على شكل تقارير عملٍ، وعرضتها عليه، فعدّل عليها، ولم أكن مقتنعًا بما كتبت، لذلك أبقيتها لديّ لفترة.

ثم بدأت أفكّر كيف أبدأ..؟

لم أكن أعرف من أين أبدأ, لذا قررت بعد تفكير أن أعيد صياغتها من الأسلوب الرسمي التقليدي للتقارير لتكون أشبه بقصة أو رحلة يصحبني القارئ فيها للدول التي زرتها ونعيش سوياً الأحداث التي مررت بها بحلوها ومرها.

فربما كان عملي في الهلالِ الأحمر هو محطّة الانطلاق لرحلتي العملية ..

لكن المؤكّد أن بداية رحلة العمر كانت أقدم من ذلك بكثير ..

لذلك قررت أن أكتب تجربتي عن الإغاثة والإسعاف والإدارة في جمعية الهلال الأحمر السعودي، وأن يصدر العمل على شكل رحلة عبر محطات تمثل الدول التي زرتها للعمل الإغاثي، ابتدأتها بقصة حياة والدي رحمه الله والأحداث التي نشأت فيها، ليكون الكتاب أشبه بقصة رحلة حياتي منذ الولادة إلى التقاعد، وختمت الكتاب بالحديث عن نشأة جمعية الهلال الأحمر وبعض ما يتعلق بها، ليكون مرجعاً وموثقاً لبعض جهود المملكة العربية السعودية في مجال الإغاثة والعمل الخيري في مختلف الدول والبلدان.

آمل بأن تكون رحلة ممتعة ..

مـا قبـل النشـأة

تزوّج جدّي عدّة زوجات، ورُزق بأبناء وبنات، وقد ماتوا جميعًا، إنها إرادة الله ومشيئته.

وُلِدَ أبي في عام ١٣٣٠هـ من امرأةٍ تزوّجها جدّي، وأنجبت والدي ثم توفّيت، وكان عمر والدي وقتها ٤ أو ٥ سنوات، وهو لا يزال يخطو خطواته الأولى.

يقول والدي: أتذكّر عندما انتهوا من دفن أمي، وأهالوا عليها التراب، لم أكن مدركًا أن أمي ماتت، وصرت ألعب في تراب القبر، قبل أن أدرك أنني ألعب فوق قبر أمي، وأنها ميتة ومدفونة تحت الثرى الذي ألعب به.

بعد وفاة جدّتي.. تزوّج جدّي من نساءٍ أُخريات، ولم ينجب من أيّة واحدةٍ منهن، واضطرّ والدي أن يحيا مع زوجات الأب، بما تشمله هذه الحياة من أفراح وأتراح، فاقدًا لحنان الأمومة في كنف والده الذي بَدَتْ عليه آثار السنين، كان جدّي يُقيم في نجد في الشّفَلّحية قبل أن ينتقل إلى الأرطاوي، وأبناء إخوانه كانوا يعيشون في الحجاز مع جماعتهم، وقد اعتاد جدّي أن يذهب كل سنة إلى أبناء إخوانه؛ ليتزوّد منهم بمعونة غنمٍ وغيرها، ويعيشوا بها.

تغيّرت حياة والدي كليًّا بعد أن طلب منه والده أن يذهب معه إلى الحجاز؛ لزيارة أبناء إخوانه، وكان عمر والدي آنذاك حوالي تسع سنوات، وأبقى جدّي _رحمه الله_ زوجته وابنتها في الأرطاوي، وصل جدّي إلى أبناء إخوانه، فاحتفوا به وبابنه الذي يشاهدونه للمرّة الأولى، وكان يشقّ عليهم أن يروا عمّهم في هذا السن وهو يشقى، وحاولوا معه أن يبقى معهم؛ ليخدموه ويرعوه، فهو عمّهم وبمقام والدهم، ولكن جدّي رفض.

احتال على أبي أحدُ أبناء عمّه، حيث أخذ والدي، وسأله عن أحوالهم وكيفية عيشهم في الأرطاوي، وتأكّد أنها غير مُريحة لرجل كبير في السن ولديه طفل صغير، ثم قال ابن عمّ والدي لوالدي: «أترى هذه الأغنام؟»

قال والدي: «نعم».

فقال ابن عمّه: «إن بعضًا من هذه الأغنام هي لوالدك».

ثم سأل الرجلُ والدي: «أترى هذه الإبل؟»

قال والدي: «نعم».

ردّ ابن عمّه: «إن بعضًا منها لوالدك أيضًا».

ثـم أكمـل قـائلًا لوالـدي: «فلمـاذا تتركـون أموالكـم وحلالكـم وتذهبـون إلى الأرطـاوي الـذي لا يوجـد بـه شيء؟!»

ثـم طلـب منـه وأكّـد عليـه أن يرفـض في حـال طلـب منـه والـده السـفر إلى الأرطـاوي، وأن يقـول لـه إنـه سيبقـى عنـد حلالهـم ومـع أبنـاء عمومتهـم.

طلب جدّي من والدي أن يتهيّأ للذهاب معه إلى الأرطاوي، فرفض والدي، وقال:

«لن أذهب إلى الأرطاوي، وماذا يوجد فيها؟! سأبقى مع أبناء عمّي».

اسـتجاب جـدّي لرغبـة ابنـه، وأبقـاه عنـد أبنـاء إخوانـه (أبنـاء عمومـة والـدي)، وسـافر جـدّي إلى الأرطـاوي، وأحضر زوجتـه وابنتهـا، واندمـج والـدي وجـدّي في الحيـاة الجديـدة مـع جماعتـه والعيـش في كنفهـم، وبـدأ والـدي يشـبّ ويشـتدّ عـوده وينظـر إلى مسـتقبله، وفكّـر في الـزواج مثـل أقرانـه مـن الشـباب، فاتّجـه إلى أهـل فتـاةٍ كان يرغـب في الـزواج بهـا، لكنـه لـم يوفَّـق في خطبتـه، عـاد إلى أبنـاء عمّـه، فوجـد أن أحـد أبنـاء عمّـه قـد وافـق على خطبـة ابنتـه الكبيرة لرجـل آخـر! وكانـت تقاليـد الـزواج في ذلـك الوقـت أن البنـت لابـن عمّهـا، ولابـن العـمّ الحـقّ في أن يحجـر ابنـة عمّـه، ويمنـع زواجهـا إلّا منـه، لذلـك ذهـب إلى ابـن عمّـه، فأعلـن أمامـه أن ابنـة عمّـه لـه، وأنـه لـن يسـمح لأحـدٍ ـكان مَـن كانـ أن يتزوّجهـا، فرحّـب جـدّي لأمـي بطلـب أبي، وتفهّـم مقصـده، فقـال لـه: «الحـقّ لـك، وابنـة عمّـك أنـت أوْلى بهـا، لكـن خُـذْ أختهـا، وسـأزوّجكما قبلهمـا».

وتـزوّج والـدي مـن والـدتي، وأنجبـت لـه أربـع بنـات، وعـاش بجـوار جـدّي زوجًـا لابنتـه، وابنًـا ومعينـاً لـه، يرعـاه ويهتـم بمصالحـه، وبـدأ يفكّـر في معيشـة أسرتـه، إذ لـم تعـد بيـده حيلـةٌ لمعيشـتهم سـوى رعـي الغنـم والإبـل، فقـد كان الجلـوسُ بجـوار والـد زوجتـه غيَر كافٍ لتـأمين نفقـات بيتـه.

فقـرّر أن يبحـث عـن عمـل، وكانـت أولى خطواتـه في البحـث عـن العمـل مـع مجموعـة أشـخاص يتاجـرون بـاستيراد بعـض الأغذيـة والملابـس مـن العـراق، فاتّفـق معهـم على أن يُصاحبهـم

ويخدمهم ويرعى إبلهم بأُجرةٍ محدودة، فسافر معهم وخدمهم، يقول والدي: «في الذهاب.. كنّا نركب الإبل ومعنا زاد وماء، والطريق كانت آمنةً بفضل من الله ثم بإرساء أركان الحكم وبسط السلطة، فلا قطّاع طرق، ولا نهب، ولا تعرُّض للركب، إذ كانت أصعب وأهم المصاعب هي موارد الماء للإبل، فقد كانت قليلة وتحتاج معرفة، وصلنا للعراق عند تاجر وكان لكل تاجر عملاء يستقبلهم ويُسكنهم ويستضيفهم، ويأخذ البضاعة التي معهم من الأغنام أو الإبل أو السمن وغيرها، فيبيعها لهم، ويبيع لهم أيضًا ما يحتاجون، فنزلوا عنده فأسكنهم، واشتروا من الثِّمَّن والقهوة والسكر والشاي والهيل وملابس وقماش النساء والرجال، ثم حمّلوا الإبل بها، وكانت التمور في العراق بالمجان، وهي مخصّصة للبادية، فاحمل ما تشاء بالمجان، فحمّلنا الإبل، وعُدْنا مشيًا على الأقدام حتى وصلنا، واستغرق هذا السفر شهورًا».

كانت فائدتُها لوالدي ضعيفةً؛ لأنه أَجير وليس بتاجر، عاد والدي لأهله في البادية، وبعد مدّة.. كرّر السفر إلى الرياض؛ بحثًا عن عمل، وكان المسافر في ذلك الزمن معرَّضًا لمخاطر الافتراس من السباع أو اللدغ من الأفاعي، وكذلك لحوادث الطريق، إذ يتعرّض المسافرون في ذلك الوقت للجوع والعطش والضياع في الطريق، طالت غيبة والدي عن زوجته وبناته وأبناء عمّه، وحزنوا عليه؛ لأنهم لا يعرفون مكانه، ولا يعرفون مصيره، وصل والدي إلى الرياض، وتنقّل في أعمال بسيطة كانت فائدتها قليلة، ثم عاد إلى أهله، وكرّر محاولة البحث عن عمل، فاتّفق مع أحد أخوالي أن يذهبوا معًا إلى مهد الذهب، إذ كان أحد أخوالي قد سبقهم للعمل هناك، فانضمّوا إليه، وأصبحوا عمّالًا في الشركة التي حصلت على امتياز استخراج الذهب، كانت رواتبهم اليومية آنذاك ثلاثة ريالات أو ثلاثة ريالات ونصف الريال على الأكثر حسب التقييم، وهو راتب زهيد مقارنةً بظروف العمل المحفوفة بالمخاطر، فهُم يعملون تحت الأرض في دهاليز، يكسرون الأحجار وينقلونها عبر عربات تجري على قضبان حديدية، واستمرّ على عمله هنالك قرابة الخمس سنوات، قبل أن يتمّ إغلاق الشركة ويُسرح العمال بعد عام من وفاة خالي.

توفّي خالي بالمنجم؛ بسبب مشقّة العمل فيه، كما توفّيت اثنتان من أخواتي الصغيرات أثناء فترة عمل والدي في المنجم؛ بسبب الأمراض والأوبئة، إذ لم تَجِدا الرعاية الصحية اللازمة التي كانتا في حاجةٍ لها، فكان قضاء الله، ولم يبق لوالدي سوى البنتيْن الأكبر سنًّا، قبل أن يرزقه الله بمولوده الثاني، حيث وُلِدْتُ أنا ثم أخي عبدالرحمن.

تزوّجتْ أختي الكبرى من ابن عمّها، وكان عمرها آنذاك ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة، وسافرتْ مع زوجها ووالده إلى الأرطاوي، ثم لحقنا بهم في عام ١٣٨٠هـ، وكانت والدتي حاملًا في ذلك الوقت، فنزلنا في ضيافتهم، ووضعت والدتي في بيتهم أخي سعيد، ولكن لم تُكتب له النجاة، فتوفّي أثناء الولادة؛ لعدم توفر الرعاية الطبية.

في هذه الأثناء.. افْتُتِحَتْ مدرسةٌ ابتدائية في الأرطاوي، فالتحقتُ بها، وذهب والدي إلى الرياض للبحث عن عمل والاستقرار هناك، وهجر حياة البادية والهجر، وبعد نجاحي في الصف الأول الابتدائي وبدء الإجازة الصيفية، جاء خالي – الذي زامل والدي في عمله بالمنجم – إلى الأرطاوي، وعرض على والدتي أن يصحبها مع أبنائها لزيارة والدها ووالدتها وإخواني المقيمين في ضواحي حائل، وكانت والدتي حاملًا مرّة أخرى، فوضعت هناك بنتًا اسمها : شيخة، وفرحت بها كثيرًا بعد زواج ابنتيْها الكبيرتيْن وبعد وفاة ابنتيْها الثالثة والرابعة في مهد الذهب، وبعد وفاة ابنها سعيد في الأرطاوي.

كانت والدتي تصف لنا حياة البادية وقسوتها وما تعانيه المرأة من العمل الشاقّ، فتقول إن المرأة كانت تسقي وتحلب، وتصنع اللبن والزبد والأقط، وترتّب بيتها، وتقول إن المرأة في البادية إذا أتتها الولادة أخذت حبلها ومستلزمات الوضع، من مقصّ وخيوط وبعض الاحتياجات، ثم تحتطب، وتضع الحطب ساترًا لها، وتولِّد نفسها، فإذا سلّمت، جاءت بمولودها وحطبها لبيتها، وقد حدث ذلك لأمي ولنساء كُثُر بالبادية، ومنهن مَن فقدتْ حياتَها وحياةَ مولودِها.

*** *** ***

كنتُ في الصف الثاني الابتدائي حين عُدْنا من زيارة جدّي وجدّتي وأخوالي، وكان خالي قد قصد الرياض – كما فعل والدي من قبل – للالتحاق بوظيفة عسكرية، وقد تحقّق له ذلك، في حين تمّ تعيينه في قسم الشرطة بعد أن أكمل تدريباته الأساسية، وقد كان مرتاحًا وراضيًا بهذه الوظيفة التي أعطته قيمةً ودخلًا، إلى أن تمّ تكليفه ذات يوم بدورية ليلية، فطاردوا مشتبهًا به في حي الغرابي، وكانت الدورية تتكوّن من مجنّديْن والثالث كان ضابطَ صفٍّ، وقد لحقوا بالمشتبه به بالقرب من المعارض والورش، وبينما هُم يلاحقون المشتبه، إذا به يقفز متخطّيًا حفرة ورشة لم يرها خالي، فسقط فيها، وسقط زميله فوقه، فكُسرت رجلُ خالي من أعلى الفخذ، ونُقل إلى مستشفى الرياض المركزي (الشميسي) من قِبل الشرطة.

كان لنـا ابـن عـمّ يقيـم في الريـاض مـع عائلتـه فلحـق بخـالي ووالـدي إلى مستشـفى الريـاض المركـزي (الشـميسي)، وكانـت الإمكانـات المتاحـة آنـذاك متواضعـة، لكنهـم قامـوا بمـا يلـزم لإنقـاذه، فقـد كان العظـم مكسـورًا ممـا اسـتلزم عمـل جـبيرةً مـن الجبـس حـول فخـذه بشـكلٍ كلّيّ، بقـي أيامًـا في المستشـفى، وخـرج بعدهـا متّجهًـا إلى بيـت ابـن عمّنـا، وكانـوا يمرّضونـه ويخدمونـه بتفـانٍ، ولكنـه كان بحاجـةٍ إلى رعايـة كاملـة، لـذا عـاد والـدي إلى الأرطـاوي بعـد أن اسـتأجر بيتًـا بجـوار بيـت ابـن عمّنـا الـذي يُقيـم فيـه خـالي؛ ليصطحبنـا وتتمكّـن والـدتي مـن رعايـة خـالي.

كانـت والـدتي تبقـى مـع خـالي تسـاعد زوجـة ابـن عمّنـا، انقضـت أشـهر وخـالي على الحال نفسـها، فعـاد مـرّة أخـرى للفحـص وكـرّر الأشـعة اللازمـة، وأخبره الأطبـاء بـأن العظـم لـم يلتحـم بعـد، ولـم يَبْـدُ أن لـدى الأطبـاء الكـثير ليقدّمـوه، لـذا قـرّر أفـراد العائلـة أن يتّجهـوا إلى الطـب الشـعبي، فأعـادوا خـالي إلى البيـت، وكان نقلـه مـن البيـت إلى المستشـفى وإعادتـه على أسـوأ نحـوٍ ممكـنٍ؛ يُنقـل بسـيارة نَقْـلٍ على لـوح نعـشٍ في طـرق غير ممهّدة.

أحضروا مداويًـا شـعبيًّا كان يسـكن قريبًـا منّـا في الحـي نفسـه، يُدعـى فهـد بـن عيـد العنزي، وعايـن خـالي وتتبّـع الـكسر وشـاهد الأشـعة، ثـم بلّغهـم بخطـة علاجيـة، لا بـدّ مـن كسـر الفخـذ مـن جديـد وإعـادة تجبيرهـا، فتشـاوروا في ذلـك، وقـرّروا الموافقـة على طريقـة الجبر.

لا أزال أتذكّـر ذلـك اليـوم جيّـدًا، فقـد حضرتُ مـع والـدي وابـن عمّنـا وابنـه الـذي يماثـلني في العمـر، لـم نكـن نتصـوّر أن تـرى أعيننـا مـا هـو أشـدّ قسـوةً مـن هـذا، ولا أزال حتى اليـوم أتذكّـر تلـك اللحظـات، كانـت مأسـاةً حقيقيـة؛ كان المـداوي يضرب الرجـل ويلويهـا إلى أن كسرهـا، وخـالي كان يصرخ مـن شـدّة الألـم، ونحـن في حـالٍ مـن الوهـن تجعلنـا بالـكاد متماسـكين، وبكينـا لبكائـه تأثُّـرًا وحزنًـا وشـفقة، وتـمّ الـكسر، ثـم أعـاد تجبيرهـا بألـواح خشـبيـة وخيـوط وبكـرة، ووازنهـا وثبّتهـا.

وآتى مـا فعلـه المـداوي الشـعبي ثمـاره، فالْتَـأَمَ العظـم خلال أشـهر فحسـب، وتحسّـنت حالـة خـالي كـثيًرا، فقـلّ الألـم واسـتطاع الجلـوس، ثـم بـدأ يتحـرّك ويقـف.

ظـلّ خـالي في بيـت ابـن عمّنـا حتى انتقـل إلى بيتنـا ليسـتكمل علاجـه، وكان في هـذه الأثنـاء يسـتطيع أن يقـف على قدميـه، لكنـه لا يسـتطيع الوقـوف ثابتًـا، فـكان يبـدو دائمًـا كمـا لـو كان مهتَّزا وعاجـزًا عـن حفـظ توازنـه، ورويـدًا رويـدًا تمكّـن مـن أن يخطـو خطواتـه الأولى مـن جديـد، مستنـدًا على عكّازيْـن خشـبييْن، إلى أن تمكّـن في النهايـة مـن المشي لخطـوات معـدودات، لكنـه أدرك بالفعـل أن رجلـه المكسـورة قـد أصابهـا الوهـن؛ جراء الـكسر والبقاء

بدون حركة والارتخاء، وكان مضطرًّا أن يمرّنها؛ كي تستعيد قوّتها، لذا اتّجه إلى الأماكن الخالية المنعزلة، وصار يمشي فيها يوميًّا، كان أخوالي يلازمونه، وكنتُ أكثر مَن يلازمه ويساعده، وكنّا متعجِّبين ومعجَبين بإصراره وقوّة عزيمته رغم ما كابده طيلة الأشهر الماضية (أكثر من سنة)، فهو لم ينقطع من عمله فحسب، بل خسر خطوة خطبته أيضًا، فقد سبق أن تقدّم لخطبة فتاةٍ من الجماعة، ورحّب به أهلُها على الفور، فوضعه وشخصيته ومكانة والده وإخوانه مدعاةٌ للفخر، فهُمْ معروفون بين الجميع أنهم أهلُ كرمٍ وجودٍ، لكن أهلها تراجعوا عن الخطبة؛ لمّا علموا بما أصابه بعد أن وافقوا عليه قبل ذلك، لكن ذلك لم يُضعفه، ولم يُنقص من عزيمته شيئًا.

تحوّل بيتُنا إلى مقصدٍ للزوّار، فصار البيتُ رغم صغره عامرًا بالضيوف والزوّار طوال الوقت، حتى لا تكاد تميّز أصحابه من الزوّار والزملاء والجيران، وكثيرًا ما كان يأتينا زملاءُ خالي في العمل، وكنتُ أستمتع بهذه الأجواء؛ حيث التزاحم والتواصل والترابط، والودّ الصادق، والدفء العائلي الذي بِتْنا نفتقده هذه الأيام.

جاء جدّي إلى الرياض، وكان قد تقدّم به العمر كثيرًا، وأذكر هيئته ومشيته متّكئًا على عصاه، كان قد تجاوز الثمانين من العمر، وكان مريضًا يبتغي العلاج ومشاهدة ابنه بعد تشافيه من الكسر، والإقامة بين أبنائه: والدي ووالدتي وأخوالي في بيتنا الذي استأجرناه حينها، وهو مكوّن من ثلاث غرف وساحة البيت، ومقسّم إلى: مجلس لاستقبال الضيوف به مشبّ للقهوة والشاي، وكنّا ننام فيه أيضًا، وغرفتيّ نوم كانتا من نصيب والدي الذي كان متزوّجًا من اثنتيْن، ومطبخ صغير، وحمّام على شكل برج، بالإضافة إلى ساحة البيت التي اعتاد جدّي الجلوس فيها خلال ساعات الصباح، قبل أن يسقط الجدار الطينيّ الذي يحيط بالبيت على مقربة منه، حيث كان جالسًا خارج البيت في الشارع، ولو كان أقرب بخطوات، لسقط عليه ولاقى ربه في الحال، وكان ذلك في يوم جمعة في رمضان عام ١٣٨٣هـ.

نهض كل مَن في البيت رجالًا ونساء، أخرجوا الأنقاض، وعملوا ساترًا، وقرّروا البحث عن بيت بديل، ثم وجدوا بيتًا، وانتقلنا إليه بالفعل، لكن جدّي وإن كان قد نجا من هذه الحادثة، فإن الله توفّاه بعدها بأشهر.

انتهت إجازة خالي المرضية، وعاد إلى عمله، لكنه لم يكن في حال تسمح له بمواصلة عمله السابق؛ فقد كان يعرج على رجله المكسورة بشكل واضح، ولا يستطيع ثني رجله بشكل كامل، ولأنه أُصيب أثناء تأدية عمله، فقد قرّرت الشرطة نقلَه إلى عملٍ مكتبيٍّ

لا يتطلّـب جهـدًا بدنيًّـا كـبيًرا، وسـاعده في ذلـك إتقانُـه القـراءة والكتابـة، كمـا أنـه قـرّر أن يقـدّم اختبـار الشـهادة الابتدائيـة التي أخّرهـا بسبب الحادث، وتمكّـن مـن الحصـول عليهـا في نهايـة المطـاف.

اشترى خـالي أرضًـا في شـارع الـدركتر بالريـاض، وبـدأ في بنائهـا، واكتمـل بناؤهـا في عـام ١٣٨٥هـ، كمـا تمكّـن مـن إقنـاع والـد زوجتـه بالموافقـة على تحديـد فترة الـزواج والسـفر معـه إلى الريـاض، بعـد أن تـردّد عليهـم عـدّة مـرّات.

قـرّرت والـدتي السـفر إلى أمهـا بعـد وفـاة والدهـا؛ لتخدمهـا فترة الحـداد، وبعـد أن مـنّ اللـه على أخيهـا بالشـفاء وعـاد لحياتـه مـن جديـد، رأتْ أن مـن الأفضـل ومـن البر أن تذهـب إلى أمهـا؛ لتُقيـم بجوارهـا، واصطحبـت معهـا أخي وأختي الصغيريْـن، كان أخي قـد بـدأ عامـه الأول في الدراسـة بالصـف الأول الابتـدائي فاضطررنـا لإخراجـه مـن المدرسـة.

ذهـب والـدي وخـالي ورافقتُهـم لإحضـار والـدتي، وفي الطريـق مررنـا بوالـد العـروس، وناقشـوه في تحديـد موعـد الـزواج، عـلى أن يحـدّد لهـم بعـد أيـام عنـد إحضـار الوالـدة.

وصلنـا إلى جـدّتي وأخـوالي في عواضـة في نجـد بالقـرب مـن عفيـف، وقضينـا عندهـم أيـام عيـد الأضحى المبـارك، وقـرّروا الشـدّ للانتقـال مـن مكانهـم بواسـطة الإبـل والحـمير، ورافقناهـم في المـسير ليـوميْن، كانـت تجربـة جديـدة بالنسـبة لي، ثـم رجعنـا إلى والـد العـروس الـذي وافـق على تحديـد موعـد الـزواج، ثـم عُدْنـا إلى الريـاض ووالـدي ووالـدتي وخـالي وأنـا وأخي وأختي.

اشـترى والـدي أرضًـا قريبـة مـن بيـت خـالي، وبـدأ في بنائهـا، وتـزوّج خـالي بعـد عـدّة أشـهر وسـكن بيتـه، وكنـت أنـا عـلى مشـارف الصـف الخامس ابتـدائي، وكان والـدي قـد انتقـل إلى بيتـه الجديـد.

وفي عـام ١٣٨٥هـ قـدم أخـوالي وجـدّتي إلى الريـاض؛ لينضمّـوا إلى إخوانهـم، وليلتئـم شـمل الأسرة في الريـاض في عـام ١٣٨٦هـ.

***

والحمد لله رب العالمين..

عن والدي - رحمه الله -

الحيـاة رحلـة عابـرة مليئـة بمعـاني الجهـد والاجتهـاد،إذ لايقتـصر طمـوح الأب المخلـص الـكادح لأبنائـه وأسرتـه أن يراهـم يعيشـون في خـير حـال، بـل يتعـدى ذلـك الطمـوح والهـم إلى تأسـيس ركائـز التربيـة لأبنائـه و ذرياتهـم.

عـاش والـدي طفـلاً يتيـم الأم مـع والـده المسـن في بدايـات توحيـد المملكـة، في عـوز وقـل، ثـم تـربى بقـرب أبنـاء عمـه ،فسـطّر معـاني الكـدح والكفـاح لتكويـن أسرة، ثـم توفـير احتياجاتهـم المعيشـية، فسـافر إلى العـراق جمّـالاً بالأجـر، ثـم عمـل في منجـم مهـد الذهـب خمـس سـنوات، وبعـد أن أوقفـت الحكومـة عمـل الشركـة سرحـوا العمـال.

ذهـب والـدي إلى الريـاض مشـياً بحثـاً عـن عمـل ولـم يجـد، فعـاد إلى أسرتـه وأمضى سـنتين، وأعـاد الكـرة إذ انتقـل إلى الريـاض مـع أسرتـه حيـث أبقاهـم في الأرطـاوي مـع ابـن عـم لـه وقصـد الريـاض حيـث وجـد لـه عـملاً، وبعـد سـنة ونصـف السـنة اسـتلحق عائلتـه وسـكنا الريـاض في عـام ١٣٨٢.

جـاء إلى الريـاض يحمـل أسرة وأبنـاء لهـم احتياجـات ومسـؤوليات، فمـا كان منـه إلا أن سـخر نفسـه وجهـده كل الوقـت لتـوفير احتياجـات الأسرة وتعليمهـم وإسـعادهم.

التحـق بسـلاح المهندسـين التابـع لـوزارة الدفـاع عامـل بنـاء، تأخذهـم سـيارة قـلاب بعـد صـلاة الفجـر إلى العمـل وتعيدهـم بعـد صـلاة الظهـر .

يعـود لأسرتـه للغـداء ثـم يأخـذ قيلولـة ثـم ينطلـق لسـوق البطحـاء يبيـع ويـشتري في الكوتـه (معاطـف قـصيرة وطويلـة) يعـود للبيـت ويجـد زواراً وضيوفـاً مـن الأقربـاء جـاؤوا للبحـث عـن فـرص عمـل، بعدهـا يخلـد للنـوم حتى السـاعة العـاشرة مسـاء فلا يسـعفه الوقـت للاسـتغراق في النـوم، بـل يهـب ليعمـل في العسـة الليليـة التي كانـت تتبـع شرطـة الريـاض في حي الحلـة، يذهـب إليهـا مشـياً على الأقـدام ويعـود مـع الفجـر ليذهـب إلى أعمـال البنـاء في سـلاح المهنـدسين.

هـذا برنامجـه اليومي مـن عـام ١٣٨١ هـ إلى ١٣٩٤ هـ حيـث اسـتقال مـن سـلاح المهندسين وبقي في العسـة.

رحـل عـن الدنيـا في عـام ١٣٩٧هـ بعـد معانـاة مـع مـرض السرطـان وتـرك أسرة مكونـة مـن ثلاثـة عشر شـخصاً؛ زوجـتين وخمسـة أبنـاء وسـت بنـات، أكبر الأبنـاء عمـره واحـد وعشرون عامًـا اسـتودعهم اللطيـف الرحيـم، أسسـوا إحـدى عشرة أسرة كان منهـم الدكاترة الأكاديميـون والأطبـاء والمهندسـون والمحامـي ورجـال ونسـاء حفظـوا للوالـد ماتـرك مـن مآثـر وخصـال يقتـدون بهـا ويورثونهـا أبنائهـم.

هـذا ماكـدح والـدي مـن أجلـه وتـمنى أن يـراه في أبنائـه وبناتـه وذريتـه منهـم، فرحمـه الله وبـارك الله فيـه حيًـا وميتًـا بمـا أخلـص وأثمـر فيـه إخلاصـه.

منجم مهد الذهب ١٩٤٩-١٩٥٣م

العامل: والدي.

الفترة: ١٩٤٩-١٩٥٣م.

الشركة الفرنسية منحت امتياز استخراج الذهب من منجم مهد الذهب.

المنجـم عبـارة عـن أنفـاق طويلـة في الجبـل عـلى شـكل حيٍّ، ولـه: شـوارع، وخـطّ حديـدي، وعربـات، وكسّـارة، وفـرق صهـر، وتحتـوي عـلى أنفـاق.

التهوية فيها: ضعيفة وبدائية.

المعادن: ذهب، وفضة، ونحاس، وزنك.

المخاطر: الضياع، الاختناق، التسمّم، الانهيارات، السقوط.

الراتب اليومي: ٣ - ٣,٥ ريالات سعودية.

النشـأة

لا أزال أسـتجمع الآن بعضًـا مـن حكايـاتِ المـاضي البعيـد، أسـترجعُ _عـلى وقـع الذكـرى_ حكايـاتٍ كثـيرةً سـمعتُها عـن عائلـتي ونشـأتها، ولا أجـد بُـدًّا مـن الخـوضِ في هـذا المـاضي وربطـه بالحـاضر.

لقد عـاصرتْ عائلتي عهد الملك عبـدالعزيز مؤسس المملكة العربية السعودية، عائلتي الممثّلـة في جـدّي سـعيد وجماعتـه، كانـت الحيـاة في ذلـك الوقـت بدائيـة، أشـبه مـا تكـون بأيـام الجاهليـة، ناهـب ومنهـوب، قاتـل ومقتـول، لا اسـتقرار ولا أمـان، ومـع ذلـك يفتخـرون ويمجّـدون هـذه الأعمـال على فظاعتهـا وحُرمتهـا! وكان جـدّي سـعيد مـن المعاصريـن لهـذه الأفعـال والأعمـال.

انخـرط جـدّي وجماعتـه _رحمهم اللـه_ مـع الملـك عبـدالعزيز، وكان معهـم ابـن أخيه هلال الـذي كان شـاعرًا ومتحدّثًـا وقريبًـا مـن الملـك عبـدالعزيز رحمـه الله.

تبـدّل وضـع جـدّي وجماعتـه إلى جنـودٍ في صفّ الموحّـد، يعملـون لإرسـاء ركائـز الوطـن، والحمـد للـه الـذي يـسّر لـه ذلـك، فتبـدّل الظـلام إلى النـور، واسـتقرّت الأوضـاع، وبـدأت تنمـو الحيـاة المدنيـة في أرجـاء المملكـة.

وبفضـل اللـه قـد انتهـت النزاعـات والممارسـات الجاهليـة، وبـدأت تنميـة المجتمـع وتوطينـه، حيـث كان المجتمـع حينهـا ينقسـم إلى أقسـام، وهـي:

* سكّان المدن، مثل: مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والرياض.. إلخ.

* سـكّان الباديـة: والذيـن لـم تكـن حياتهـم آمنـةً كالوقـت الحاضر، بدّلـوا الترحـال بالاسـتقرار، ثـم انتقلـوا إلى المـدن والقـرى والهجـر.

* سكّان القرى والهجر: ويعملون في الزراعة والصيد وبعض الحرف اليدوية البسيطة، لكن لـم يكـن قـد تكـوّن لـدى المجتمـع مفهومُ الوظيفـة النظاميـة، ولـم يكـن قـد اسـتوعب المجتمعُ التعليمَ بوصفه ركنًا أساسيًّا من أركان الحياة؛ فالحياة كانت قاسية، وموارد الدولة محدودة.

في ظروف كهذه.. عاش جدّي سعيد ما قبل عهد الملك عبدالعزيز، ثم في عهده، عهد البناء والإصلاح، فانضمّ له.

*** *** ***

أكملـتُ دراستي الابتدائيـة في عـام ١٣٨٨هـ، وانتقلـت بعدهـا إلى المرحلـة المتوسّـطة، وبـدأت أكـوّن صداقـات وأعيـش الحيـاة التي لـم تسـنح لي الفرصـة بعيشـها في ظـلّ ظـروف ترحالنـا الدائـم والمحـن التي ألمّـت بنـا، فصرت أمـارسُ الرياضـات كلهـا تقريبًـا: كـرة القـدم، والطائـرة، وألعـاب القـوى، واشترى والـدي لي دراجـة هوائيـة، فكنـت أقطـع الشـوارع بـدرّاجتي معجبًـا بـذاتي وأنـا أبـدّل بـكل قـوّتي، وأنتقـل إلى كل مـكان، وأذهـب مـع أصدقـائي للمسـابح، حيـث تعلّمـت السـباحة، وكنـت أسـتمتع بحيـاتي مـا وسـعني ذلـك، وكأنني أسـابق الأيـام فأسـبقها، فمَـن يـدري مـا يخبئـه لنـا الغـد؟!

كـبرتُ مـع انتظامـي في المرحلـة الثانويـة، فتبدّلـت اهتمامـاتي، وابتعـدت عـن التسـلية واللهـو البسـيط، وصرت أفكّـر أكـثر في بنـاء شـخصيّتي، ومصاحبـة المتميّزيـن مـن الزمـلاء، وأنمّـي ثقافـتي واطّلاعـي، إلى أن أكملـت الثانويـة العامـة.

في العطلة الدراسية عام ١٣٩٤هـ، تمّ تعييني في وزارة الصحة (الطب الوقائي)، وانتدبت إلى الطائف وأبها وجازان في إيصال مواد طبية لعلاج الملاريا والبلهارسيا إلى مكتب البلهارسيا والملاريا في المدن كلها.

سلّمتُ موادّ الطائف، واتّجهنا إلى أبها عن طريق الباحة، كان الجوّ جميلًا، تلطّفه السحب وقطرات المطر، وصلنا الباحة، وانتهى فيها الأسفلت، وبدأنا في طريق ترابيّة في الجبال، تنفّذها شركات ابن لادن، مابين صعود ونزول جبال في طريقٍ وعرة، وفي الليل كنّا نبحث عن مكانٍ نتعشّى فيه وننام، وجدنا مكانًا في الثامنة مساءً بعد بلجرشي بعشرين كيلو تقريبًا، لقد أنستْنا صعوبةُ الطريق جمالَ الطائف وطريق الباحة، انتظرنا فترةً حتى تجهّز الأكل، وتعشّينا ونِمنا في المكان نفسه بمبلغ بسيط.

استيقظنا لصلاة الفجر، واصلنا السير في الطريق الوعرة، كانت سيارتنا وانيت فارقو موديل ١٩٧٢، عانينا وزادت معاناتنا عندما صارت السيارة تقطّع بسبب شوائب وترسُّبات البنزين، وكانت المكابح لا تعمل إذا توقّفت السيارة، فأنزلُ وأضعُ أحجارًا لإيقافها، لم تكن هناك ورش، لكن فرقة من شركة ابن لادن ساعدتنا وفكّت مصفاة البنزين ونظّفوها، خفّ العطل ولم ينقطع، أمضينا يومنا التالي في الطريق، ووصلنا إلى الخضراء بني شهر بعد صلاة العشاء، ثم تعشّينا ونِمنا.

ومع الفجر.. صلّينا ومشينا حتى وصلنا اثنين بللسمر، حيث تبدأ الطريق الممهّدة، فرحنا بها، وصرنا نمشي بسرعةٍ كنّا قد افتقدناها في طريقنا بالأمس، كانت السرعة ٥، ١٠، ٢٠ فقط، وخلال نصف ساعة وصلنا أبها، كانت جميلة بل رائعة بجوّها وبأهلها، ذهبنا إلى مكتب الطب الوقائي، وسلّمناهم الموادّ، وأخبرونا بأنه قد جاءهم توجيه أن نسلّمهم السيارة بعد انتهاء مهمّتنا في جيزان، والعودة إلى أبها، وأن يوفّروا لنا _أنا والسائق_ الركوب بالطائرة إلى الرياض.

بقينا في أبها يومين نستمتع بالخضرة والجوّ البديع والمطر، وكان أكثر مكان أُعجبنا به المحالة، مياه جارية كأنها نهر، وخضرة ومناظر خلابة، لقد تمتّعنا في أبها كثيرًا.

وفي اليوم الثالث.. غادرنا إلى جيزان عن طريق العقبة ضلع، حيث كانت ترابية خطرة، وكلها نزول، والسرعة ٢٠ - ٢٥ وكانت تنزل إلى ١٠و٥، أمضينا وقتًا في النزول، قرابة الخمس ساعات، وعندما نزلنا إلى النهاية _وكان الفصل صيفًا ودرجة الحرارة مرتفعة والرطوبة في أعلى درجاتها_ تذكّرنا أبها وجمال جوّها، وفي النهاية وجدنا طريقًا ممهّدة تؤدّي إلى جيزان، سِرْنا فيها محاولين الوصول إلى جيزان قبل انتهاء الدوام، في جوٍّ حارّ ورطب، وبسيارة بلا مكيّف؛ إذ لم يوجد في السيارات في ذلك الوقت.

وصلنـا منطقـة جيزان، وكان أهاليهـا _في ذلـك الوقـت_ يعانـون مـن الملاريـا؛ بسبـب البعـوض والبلهارسـيا الناشـئة مـن الميـاه الراكـدة، سـلّمنا المـوادّ، وقـد تعاونـوا معنـا، ودعونـا للضيافـة، فاعتذرنـا، ورجعنـا إلى أبهـا، كان الصعـود بالسـيارة أسـهل مـن النزول، ووصلنـا بعـد صلاة العشـاء، فذهبنـا إلى المقهـى الـذي كنّـا ننـام فيـه ونتـعشّى، وهنـاك أكملنـا المهمّـة.

وقرّرنـا أن نكمـل اليـوم التـالي في تمشـية كاملـة، ونسـلّم السـيارة بعـد الغـد، حيـث موعـد سـفرنا، قضينـا يومنـا مسـتمتعين بأبهـا وطبيعتهـا وجمالهـا، وفي يـوم السـفر سـلّمنا السـيارة، وأخذونـا للمطـار وركبنـا الطائـرة، كانـت أولى الـرحلات لي بطائـرة بوينـج ٧٣٧، وعنـد إقلاع الطائـرة، عانينـا مـن المطبّـات؛ بسـبب السـحاب والجبـال، ووصلـتُ الريـاض الواحـدة ظهـرًا.

مع انتهـاء العطلـة الصيفيـة، اسـتقلْتُ، وكانـت تجربـة جميلـة في حيـاتي، تعرّفـت فيهـا على زملاء، واكتسـبت معرفـة بالعمـل، والأهـم رحلـة الطائـف والباحـة والخضراء وأبها وجيزان.

*** *** ***

أكملـتُ الثانويـة العامة/القسـم العلمـي في عـام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، وقـرّرت أن أبحـث عـن وظيفـة؛ لأسـاعد والـدي الـذي كان يعمـل في العسّـة مـن السـاعة التاسـعة مسـاءً إلى الرابعـة صباحًـا، فيذهـب مشـيًا على الأقـدام، ثـم يعـود مسـافة خمسـة كيلـو، ويفطـر في البيـت فجـرًا، ثـم يذهـب ليعمـل عامـل بنـاء في سـلاح المهندسين بالجيـش، ويعـود السـاعة الواحـدة ظهـرًا، وكان مجمـوع راتبَي الوظيفـتين أقـلّ مـن خمـس مائـة ريـالٍ شـهريًّا.

كان والـدي يملـك بيتًـا، وكانـت أحوالنـا مسـتورة، اسـتطاع أن يوفّـر لنـا الضروريـات، أمـا الكماليـات، فلا يسـتطيعها.

تقدّمـتُ لكليـة الملـك فيصـل الجويّـة، وقُبلـت، ولكـن الوالـدة _رحمهـا اللـه_ لـم تكـن راضيـة عـن اتّجاهـي إلى المسـار العسـكري؛ قـد يكـون بسـبب مـا تعـرّض لـه أخوهـا مـن كسرٍ في فخـذه، تـمّ قبـولي في كليـة الملـك فيصـل الجويّـة في شـهر رمضـان عـام ١٣٩٥هـ، حزنـتْ والـدتي كـثيًرا، ولـم تهنـأ في رمضـان وعيـد رمضـان؛ خوفًـا عليّ.

أمـا الوالـد _رحمـه اللـه_ فـكان مؤيّـدًا لالتحـاقي بالكليـة ومشـجّعًا لذلـك، مرضـتْ والـدتي حزنًـا بسـبب خوفهـا، وانعزلـت عـن النـاس في أيـام العيـد، وكان لا بـدّ مـن إخراجهـا مـن حزنهـا ومرضهـا، وبالفعـل انسـحبتُ مـن الكليـة قبـل بدايـة الدراسـة.

تقدّمـتُ للمؤسسـة العامـة للـبترول والمعـادن (بترومين)، وعُيِّنْـتُ في وظيفـة جيّـدة وبراتـب مُجْـزٍ، فتحسّـن وضعنـا المـادي، وامتلكنـا بيتًـا أكبر، واشتريـت سـيارة، ثـم سـيارة أخـرى، ثـم اسـتقال والـدي مـن العمـل في سلاح المهنـدسين؛ لمشـقّة البنـاء، فقـد وصـل مرحلـة عمريـة تجـاوز الـستين عامًـا، ثـم اسـتقال مـن العسّـة، وكـم كانـت سـعادتي كـبيرة حين توليـت مسـاعدة والـدي في مصاريـف المعيشـة، فقـد قـرّر أن يـترك أعمـال الكـدّ والتعـب، ويسـتمتع بمـا تبقّـى مـن عمـره.

بـدأتُ العمـل في بترومين، واجتهـدت، وقـد أُبـرزَ جهـدي واسـمي، حيـث حصلـت على ترقيـات استثنائيـة في فترة وجيزة، ثـم كانـت المفاجـأة حين رُشِّـحْتُ لدراسـة الهندسـة الكيميائيـة، ولـم أصـدّق أن حلمًـا بعيـد المنـال كهـذا صـار الآن بين يـدي، فأسرعـت أنهـي الإجـراءات اللازمـة، وأستخرج التـأشيرات المطلوبـة للسـفر، وسـافرت إلى جـدة؛ لإنهـاء بعـض الإجـراءات المطلوبـة، وأسـتخرج تـأشيرة السـفر، إلّا أن نبـأ مـرض والـدي قـد بلـغني وأنـا هنـاك، فعـدتُ على الفـور دون أن أفكّـر في قـراري ولـو للحظـة واحـدة، وقـد هـالني أن أرى والـدي على هـذه الحال مـن الوهـن والضعـف، كان يتألّـم دون أن يجـد طبيبًـا قـادرًا على تشـخيص مرضـه.

لـم تكـن لديهـم سـوى المسـكّنات فحسـب، كنـتُ أراه يتألّـم أمـام عـيني، فأركـض كالمذعـور في كل اتّجـاه، حتى حصلـت على أمـرٍ بعلاجـه مـن بترومين في *مستشـفى* الملـك فيصـل التخـصّصي، وهنـاك تمكّنـوا أخيرًا مـن تشـخيصه، وعلمنـا بأنـه مصـاب بسرطـان الكبـد، وذلـك عندمـا أخـذوا عيّنـةً مـن الكبـد، ولمعرفـة مـدى انتشـاره، كان ذلـك يتطلّـب أخـذ عيّنـةٍ مـن الكبـد مـرّة ثانيـة، فعرضـوا الأمـر عليـه _رحمـه اللـه_ فرفـض، وعندمـا علمـتُ برفضـه ناقشـته، وأخبرني بأنـه عـانى كـثيرًا مـن أخْـذ العيّنـة الأولى منـه، وأنـه كـاد يمـوت مـن شـدّة الألـم، وإن تكـرار مـا سـبق سيزيـد الألـم، هكـذا قـال رحمـه اللـه.

حاولـتُ مـع خـالي الـذي كان مرافقًـا معـه أكثر منّي، ووافـق وهـو متردّد، وتـمّ سـحب العيّنـة الثانيـة، ودخـل في غيبوبـةٍ لـم يفـق منهـا، وبقـي أسـبوعيْن، وتوفّـاه اللـه، وذلـك في عـام ١٩٧٧م، تـاركًا وراءه أسـرة كـبيرة، أنـا عائلهـا الوحيـد، باسـتثناء أخي عبـدالرحمن الـذي كان يـدرس في الصـف الثـاني الثانـوي، والبقيّـة كانـوا لا يزالـون صغـارًا، أصغرهـم لا يتجـاوز سـنة واحـدة.

كانـت فتـرة غيـابي عنهـم ثلاثـة أسـابيع أو أربعـة، وعندمـا عُـدْتُ، وَجـدتُ وضـع الأسـرة قـد تـردّى؛ بسـبب مـرض الوالـد وكثـرة مسـؤوليات عبـدالرحمن في مراجعـة *المستشـفيات* مـع الوالـد، وتلبيـة مسـؤوليات الأسـرة، وعندمـا انقطـع المـاء عـن البيـت، كان عبـدالرحمن يـحضر المـاء بـأوانٍ وعُلَـبٍ مـن المحطّـة القريبـة.

لـم يعـد بإمـكاني أن أتّخـذ قـرارًا يخـصّني بمعـزلٍ عنهم، فـكان عليّ الاختيـار بين مسـتقبلي ومسـتقبلهم، ولـم يكـن ذلـك خيـارًا أصلًا، فقـد ألغيـتُ فكـرة البعثـة، لكـنني لـم أتخـلّ عـن تكملـة دراستي الجامعيـة في الريـاض، والتحقـتُ بكليـة العلوم/جامعـة الرياض/قسـم الإحصـاء، والآن لا أجـد نـفسي نادمًـا على قـراري هـذا؛ فلـم يكـن مـن الـوارِد أن أديـر ظهـري لإخـواني وأخـواتي ووالـدتي.

بـدأتُ الدراسـة متفرّغًـا مـن بترومين، ويسّر اللـه لي واشتريـت أرضًـا، بنيـت عليهـا فـيلا فيمـا بعـد، ثـم تزوّجـت مـن ابنـة عمّـي، وحصلـت على وظيفـةٍ براتـبٍ مُغْـرٍ في شركـة، ثـم تركـت بترومين، لكـن مـا لبثـت الشركـة أن خفضـت الرواتـب، فالتحقـت بجمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي.

***

الالتحاق بجمعية الهلال الأحمر السعودي

مكة المكرمة ١٩٨٧م

التحقـتُ بجمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي في ١٤٠٤/٢/٨هـ، عندمـا كان الدكتـور غـازي القـصيبي وزيـرًا للصحـة آنـذاك ورئيسًـا لمجلـس إدارة جمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي الـذي تـعيّن في آخـر ١٩٨٢م، وقـد أحـدث نقلـةً في عمـل الـهلال الأحمـر، إذ بـدأ في القيـادة، ورشـح الدكتـور حمـد بـن عبـدالله الصـقير رئيسًـا، وحمـدي حمـزة أبـو زيـد نائبًـا لرئيـس الجمعيـة، وبـدأ في تغـيير المقـرّ، وأحضر مراكـز دراسـات وتطويـر؛ لتطويـر الخدمـات الطبيـة الطارئـة، وعمـل على اسـتقطاب كـوادرَ إداريـةٍ فنيّـةٍ.

تزامـن التحـاقي بالـهلال الأحمـر مـع حـراك التطويـر، وكُلِّفْـتُ ـإضافـةً إلى عـملي في الإحصـاء ـ بمتابعـة إجـراءات إيجـار المقـرّ الجديـد مـع وزارة الماليـة والشركـة العقاريـة، فقـد كان المـبنى مسـتأجَرًا مـن الشركـة السـعودية للصناعـات الأساسـية (سـابك) التي كان رئيـس مجلـس إدارتهـا الدكتـور غـازي القـصيبي، وانتقلـت إلى مـبنى ملْـك في المربّـع.

وافقـتْ وزارة الماليـة، وبـدأتُ في إكمـال الإجـراءات مـع العقاريـة وسـابك التي لا يـزال أثاثها وقِطَعُهـا في المـبنى، أَعَدْنـا تخطيـط المـبنى حسـب الهيـكل التنظيمـي للإدارة، واسـتكملت تجـهيزه بالأثـاث، وأشرفـت على الانتقـال كاملًا.

وجّـه الدكتـور غـازي بتكويـن فريـق لعمـل الخطّـة والميزانيـة، ولاسـتقطاب كفـاءات متخصّصـة برئاسـة نائـب رئيـس الجمعيـة حمـدي أبـو زيـد، وكُلِّفـت بالعمـل مـع الفريـق.

أُعفـي الدكتـور غـازي القـصيبي مـن وزارة الصحـة بأمـرٍ مـلكيٍّ، وعُيِّنَ فيصـل الحجـيلان وزيـرًا للصحـة ورئيسًـا لمجلـس إدارة الـهلال الأحمـر السـعودي.

صـدرت الميزانيـة دون التطلّعـات التطويريـة، وأصبـح نمـوّ الجمعيـة أبطـأ، وقـد كُلِّفْـتُ بسـكرتاريةِ إعـدادِ برنامـجِ حـجّ ١٤٠٤هـ، وبقـي البرنامـج معـي سـبع سـنوات عـدا ١٤٠٥هـ؛ حيث كنـتُ في النيجـر والصومـال مـع برنامـج إغاثـة متضرّري الجفـاف في أفريقيـا.

الطوارئ والإسناد - مكة المكرمة ١٩٨٧م

الطوارئ والإسناد - مكة المكرمة ١٩٨٧م

السـودان

ـ هبوطٌ متعثّرٌ ـ

السودان - دارفور - الجنينية
١٩٨٥م

رحلة طويلة تلك التي خُضْتُها على مدارِ سنوات..

حملتني من قارّة إلى قارّة، ومن بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة، أقطع الصحارى وأعبر البحار، في سبيل العمل في مشروع وطني إغاثي، وآلية وضعتها قِبل نفسي، من أجلِها بذلتُ العمرَ مسافرًا، متخلّيًا عن مسؤولياتي الحياتية، محاولًا إنقاذ حياة الآخرين.

ربما انقضتْ سنوات طويلة، لكنني مع ذلك لا أزال أذكر بداية الرحلة، التي تعود إلى عام ١٩٨٣م، حين انضممتُ إلى الهلال الأحمر السعودي، ولم أكن حينها على درايةٍ كافية بمجال العمل الإغاثي بشكلٍ عام، أو بأنشطة الهلال الأحمر بشكلٍ خاصّ، بل إنني لن أُبالغ إن قلتُ إن معلوماتي عن الهلال الأحمر حينها لم تكن تتعدّى الشعار الذي كنتُ أراه على سيارات الإسعاف في النشرات الإخبارية والصحفِ اليومية، لكنها _بالنسبةِ لي_ كانت وظيفةً اعتبرتُها جيّدةً؛ إذ عملتُ رئيسًا لقسم الإحصاء بجمعية الهلال الأحمر السعودي، وهو الأمر الذي لا أعزيه إلى براعتي في الإحصاء فحسب، كوني قد حصلتُ على دورةٍ في الإحصاء من جامعة الملك عبدالعزيز بجدة عقب دراستي في كلية العلوم بجامعة الرياض.

ولم يكن قسم الإحصاء سوى قسم صغير يتبع إدارة التخطيط والميزانية التي كان يرأسها آنذاك محمد عودة الحجيري، فيما يساعده زميلان من السودان، أحدهما بدرجة وكيل وزارة، والآخر أخصائي، بالإضافةِ إلى زميلَيْن آخريْن، أحدهما سعودي وهو موظف إداري، والثاني مصري يعمل ناسخًا.

وأذكر أنَّ أول عملٍ كُلِّفْتُ به هو إعداد تقرير إحصائي عن أنشطة جمعية الهلال الأحمر السعودي، والتي لم أكن أعلم عنها شيئًا بالفعل، لذا بدأتُ بجمع البيانات، واستغرق ذلك وقتًا طويلًا، حتى وُفِّقْتُ في نهاية المطاف إلى إعداد أول تقرير إحصائي عن أنشطة الجمعية بعد عامٍ ونصف العام من شغل

هـذه الوظيفـة، وربمـا اعـتُبر هـذا التقريـر حينهـا إنجـازًا هـو الأول في عـملي بالجمعيـة، والـذي أهّـلني _لحُسـن حظّـي_ لتـولّي مهـامّ أخـرى، فقـد كُلِّفْـتُ في العـام ذاتـه بـالإشراف على الانتقـال إلى مقـرّ الجمعيـةِ الجديـد في شـارع الأمير عبـدالعزيز بـن مسـاعد بـن جلـوي المعروف بشـارع الضبـاب، الـذي كانـت تشـغله شركـة سـابك، بـدلًا مـن موقعِنـا القديـم في مـبنى عليشـة.

كانـت المهمّـة التي كُلِّفْـتُ بهـا تقـتضي تخطيـط المـبنى وتقسـيمه وتأثيثـه، ثـم إحلال موظّفي الإدارة بمكاتبِهم الجديـدة، وهـو عملٌ استنزفني بشـكلٍ كامـل على مـدار أيـام مـن أجـل إنجـازه على النحـو الأمثـل وفي التوقيـت المحـدّد للانتقـال إلى الموقـع الجديـد، لكـن في الوقـت ذاتـه أتـاح لي هـذا العمـل المرهـق فرصـةَ التواصـلِ مـع القائمين على إدارة الجمعيـة، وبالتحديـد رئيـس الجمعيـة ونائبـه، وهـو مـا مكّـنني مـن إبـراز إمكانـاتي ومـواهبي، حتى صرتُ معروفًـا لديهمـا وموضعَ ثقتهمـا.

حتى هـذه المرحلـة لـم أكـن قـد اطّلعـتُ بعـد على العمـل الإغـاثي الـذي يضطلـع بـه أفـرادُ الهـلال الأحمـر، وعلى الرغـم ممّـا أنجزتـه، فقـد كان بعيـد الصلـة عـن أنشـطة الهـلال الأحمـر على أرض الواقـع، فقـرّرتُ أن أنغمـس بكامـل حـواسي في أنشـطة الجمعيـة؛ محـاولًا أن أجعـل مـن نفسي عضـوًا فـاعلًا بهـا، لكـن كانـت تنقصني المعرفـة بمـا يشـمله هـذا العمـل، فشـغلتُ نفسي في البدايـة بالتعـرُّف على العمـل الإغـاثي مـن خـلال الدوريـات والتقاريـر التي كانـت تصلنـا مـن مفوّضيـة شـؤون اللاجـئين واللجنـة الدوليـة للصليـب الأحمـر والاتحـاد الـدولي لجمعيـات الـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر، فقـد كنّـا على تواصـلٍ دوريّ مـع تلـك المنظّمـات العريقـة، وغالبًـا مـا ننسّـق معهـا كل أنشـطتنا بـالخارج، والتي بدأتُهـا بإيصـال رسـائل الفلسـطينيين المُقيمين بالمملكة إلى ذويهم في فلسـطين، بإرسـالِها أولًا إلى اللجنة الدوليـة للصليـب الأحمـر في جينيـف، والتي تتـولّى مهمّـة إرسـالها إلى حكومـة إسرائيـل، التي قـد توصلهـا بعـد ذلـك إلى أصحابهـا، إضافـةً إلى دورنـا في البحـث عـن المفقوديـن ولـمّ شـمل العائلـة بعـد أن تفرّقـت بهـم السـبل.

ولا أنكـر أنني كنـتُ سـعيدًا بهـذه التجربـة، التي كشـفت أمـام عـيني عـن عالـم جديـد لـم أكـن أعرفـه، وقرّبـتني مـن حكايـاتٍ وأشـخاصٍ لـم أكـن قـد عرفتهـم مـن قبـل، وارتبطـتُ بهـم وبحكاياتهـم، حتى صرتُ جـزءًا منهـا، وشـعرتُ كأنني خيـط رفيـع يوصِـلُ مـا انقطـع بين حبيـبيْن أُبعـدا عـن بعضهمـا بقـوّةٍ تفـوق قدرتهمـا على المقاومـة، وحين كنـا نوفـق في لـمّ الشـمل أخيرًا، كنـتُ أشـعر بـأنني قـد رمّمـتُ صدعًـا في جـدارِ قلـب مُحـبّ، فأشـعر وكأنني

قـد أنقـذتُ صرح المحبّـة في العالـم مـن الانهيـار، فالعالـم يرتكـز على مثـل هـذه الأفعـال البسـيطة، التي تذكّرنـا دومًـا بحقيقتنـا، بأننـا بشرٌ ننتمـي إلى هـذه العائلـة الكـبيرة التي نسـمّيها الإنسـانية.

كان العـام ١٩٨٥م حين انتشرت الأخبـارُ بشـأن الكارثـة التي حلّـت بالقـارة الأفريقيـة، فقـد كانـت الـدول الأفريقيـة تتسـاقط كأحجـار الدومينـو واحـدةً تلـو أخـرى، فرائـس سـهلة بين يـدي الجفـاف، بدايـةً مـن موريتانيـا غربًـا، وحتى إثيوبيـا في أقصى أعمـاق القـرن الأفريقـي جنوبًـا، وعلى امتـداد هـذا الطريـقِ، وطئـتْ عجلاتُ هـذه الكارثـة دولًا عديـدة، مثل: السـنغال والسـودان والصومـال وجيبـوتي، ولـم يكـن ممكنًـا أن تقـفَ المملكـة مُكبَّلـةَ الأيـدي أمـام كارثـة بهـذا الحجـم تضرب إخواننـا في العمـق الأفريقـي.

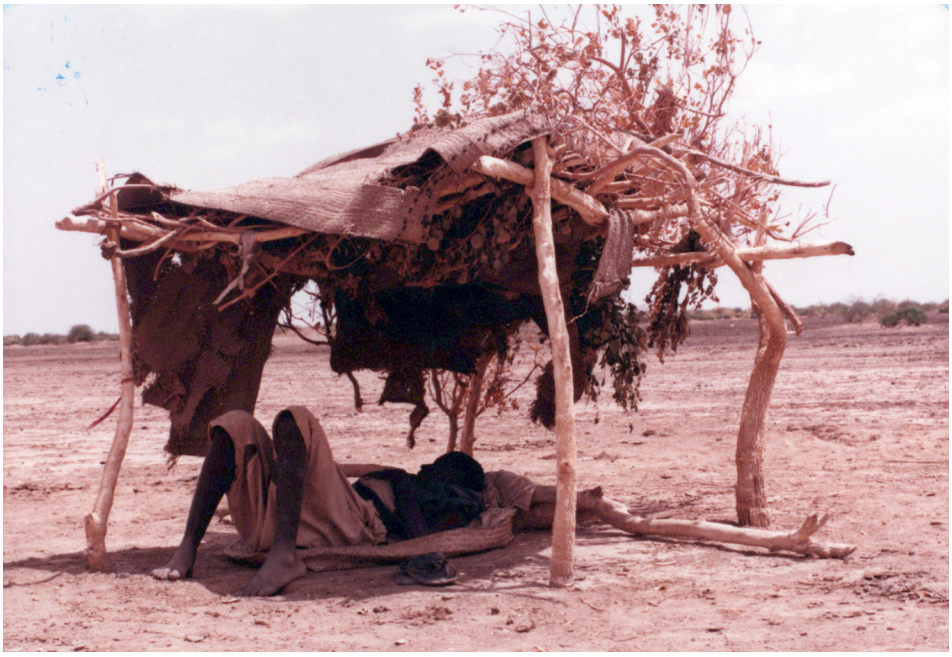

الجفاف في السودان - دارفور ١٩٨٥م

صـدرت التوجيهـات على الفـور بإرسـال فريـقٍ اسـتطلاعيّ؛ لدراسـة الوضـع وتقييـم الخسـائر، وحين عـاد هـذا الفريـق حـاملًا تقريـره، كان ردّ الفعـل السريـع مُعبّرًا عـن خطـورة الوضـع هنـاك، فسرعـان مـا تشـكّلت لجنـةُ إغاثـة مركزيـة مـن نخبـة رجـال المملكـة آنـذاك، فقـد تشـكّلت اللجنـة برئاسـة صاحـب السـمو الملـكي الأمير نايـف بـن عبـدالعزيز وزيـر الداخليـة، وعضويـة صاحـب السـمو الملـكي الأمير سـلمان بـن عبـدالعزيز أمير منطقـة الريـاض،

وصاحـب السـمو المـلكي الأمير سـعود الفيصـل وزيـر الخارجيـة، ووزراء الماليـة والاقتصـاد الـوطني والشـؤون البلديـة والتجـارة والإعلام والصحـة، وضمّـت اللجنـةُ أسـماءً لامعـة، تُغني أسـماؤها عـن مناصبِها، وكانـت هـذه الاختيـارات تعكـس موقـف المملكـة تجـاه هـذه الكارثـة، فقـد اختـارت نخبـةً مـن أفضـل رجالاتِهـا؛ للتصدّي لهـذه الكارثـة وإنقـاذ ضحاياهـا.

الجفاف في السودان ١٩٨٥م

كان العمـل الإغـاثي قـد بـدأ بالفعـل في نهايـة عـام ١٩٨٤م، لكـن بصـورةٍ فرديـة تمامًـا، قبـل أن يتسـلّمه الـهلال الأحمـر السـعودي في بدايـة عـام ١٩٨٥م، بعـد أن سـخّرت الدولـةُ كافّـةَ الإمكانـات المتاحـة مـن أجـل تسـهيل عملـه في السـودان، وإنجـاز المهمّـة على النحـوِ الأمثـل الـذي ترجـوه.

ولـم يكـن هـذا توجُّـه القيـادة السياسـية فحسـب، فقـد انطلقـت حـملاتُ التبّرعـات بالفعـل في كل مـكان، وتهافـت الشـعبُ السـعودي على تقديـم التبّرعـات النقديـة والعيْنيـة، والتي كانـت تُخـزَّن في مسـتودعاتٍ قبـل شـحنها إلى ميناء جـدة، ومـن هنـاك يتـمّ شـحنها بحـرًا إلى ميناء بورتسـودان.

كنـتُ أرجـو أن أكـونَ واحـدًا ممّـن سيُسـافرون للمشـاركة في عمليـات الإغاثـة، ونلـتُ مـا رجوتـه، وذلـك حين أُبلغـتُ أن أسـتعدّ للسـفر إلى السـودان، لتكـونَ هـذه رحـلتي الأولى خـارج الديـار،

ولـم تكـن مشـكلة السـودان تكمـن في الجفـاف الـذي أصابهـا فحسـب، بـل كانـت تُعـاني أعبـاءً إضافيـة: كالحـرب الأهليـة الدائـرة في جنـوب السـودان، والنزوح الـداخلي لسـكّانها، وهـو مـا يُصعّب المهمّة على فـرق الإغاثـة، لكـنني كنـتُ مـدركًا لهـذه الصعوبـات ومسـتعدًّا لخـوض هـذا التحـدّي.

جهّـزتُ حقـائبي، وحاولـتُ أن أنـام ليلـةَ سـفري، لكـنني كنـتُ مشـغولًا بالتفكير في هـذه الرحلـة؛ إذ كانـت التجربـة جديـدةً عليّ كليًّـا، وكنـتُ أحلـم بـأن أطبّـق خلالهـا كلّ مـا تعلمتُـه عـن العمـل الإغـاثي، وأن أتـرك بصـمتي على هـذا العمـل، خاصّـةً أن البعثـة المُتّجهـة إلى السـودان هـي ثالـث بعثـة إغاثيـة يرسـلها الهـلال الأحمـر السـعودي خـارج البـلاد، فـالأولى كانـت إلى الأردن إبـان حـرب يونيـو عـام ١٩٦٧م، والثانيـة كانـت إلى باكسـتان خلال حقبـة الحـرب الأفغانيـة التي أعقبـت الغـزو الـروسي في أفغانسـتان، وهـو مـا يـعني أن الـهلال الأحمـر السـعودي لـم يكـن قـد اكتسـب خبرات كـبيرة قبـل هـذه البعثـة، وليـس لدينـا مـا نرتكـز عليـه في مهمّتنـا، لـذا فقـد كان متوقّعًـا أن تضيـفَ هـذه البعثـةُ الثالثـة دروسًـا جديـدة للاسـتفادة منهـا مُسـتقبلًا، ومـن ثـم فـإن ثمّـة دورًا كبيـرًا يقـع على عاتـق كل فـردٍ فيهـا مـن أجـل إنجاحهـا، هـذا مـا ظللـتُ أفكّـر فيـه طـوال الليـل، حتى ذهـب النـوم عـن عـيني.

في الصبـاح.. توجّهـت إلى المطـار، حيـث اجتمـع فريـق البعثـة المكـوّن مـن ثلاثـة أطبـاء وثلاثـة صيادلـة وثلاثـة ممـرّضين، بالإضافـة إلى الإداريين الذيـن كنـتُ واحـدًا منهـم، ولـم يكـن مـن بيننـا مَـن كان مشـاركًا في البعثتيْن الماضيتيْن، سـواء في الأردن أو في باكسـتان، وهـو مـا يؤكّـد أن الأرق الـذي حـاصرني طـوال الليـل لـم يكـن مـن نـصيبي وحـدي، فبالتأكيـد كان البقيـة على الدرجـة ذاتهـا مـن القلـق، وهـو مـا تَشِي بـه وجوههـم الشـاحبة وعيونهـم، لكـن لـم يكـن هنـاك وقـتٌ لإهـداره في التفـكير فيمـا ينتظرنـا، كان علينـا أن نتحـرّكَ؛ كي نُبـاشر عملنـا في أسـرع وقـت، فلا شـكّ أن هـؤلاء المسـاكين ينتظـرون مَـن يمـد إليهـم يـدَ المسـاعدة، ولا يجـوز بحـالٍ مـن الأحـوال أن تكـون هـذه اليـد مرتعشـة أو متردّدة.

صعدنـا على متن الطائـرة المتّجهـة إلى الخرطـوم، وقـد تخلّينـا عـن تردّدنـا، وركّزنـا تفكيرنـا على مواجهـة مـا ينتظرنـا مـن تحدّيـات، وفي المطـار كان في اسـتقبالنا _لـدى وصولنـا_ مندوبٌ أوفدتـه السـفارة السـعودية بالخرطـوم، كان رجلًا ودودًا ومضيافًـا، اسـتقبلنا وكأننـا عائلتـه قبـل أن يصطحبَنـا إلى مقـرّ إقامتِنـا المؤقّـت، وفي الليلـة ذاتهـا التقينـا سـعادة السـفير السـعودي علي بـن عبـدالله الصقير، الـذي بـدا مهتمًّـا بالمهمّة التي جئنـا مـن أجلهـا؛ فقـد كان يـدرك الخطـر المحـدق بهـذا البلـد، وكان يأمـل بـأن تتمكّـن بعثتُنـا هـذه مـن الحـدّ

مـن أضراره، وكان مستعدًّا لأن يُسخّرَ في سبيلِ ذلـك الإمكانـاتِ اللازمـةَ كلهـا لمُسـاعدتِنا في إنجـاز عملنـا، خصوصـاً أنـه ليـس لدينـا خبرة سـابقة في هـذا المجـال، ولأن السـفارة هـي ممثل المملكـة العربيـة السـعودية في السـودان، وسـعادة السـفير يعمـل على تنسـيق الخدمـات ويرفـع مسـتوى علاقـات الدولـتين، كان عونًـا حقيقيًّـا لنـا، ووضعنـا على بدايـة الطريـق.

د. حمد الصقير أثناء زيارة تفقدية للسودان ١٩٨٥م

وعلى الرغـم مـن أهميـة المسـاعدات التي قدّمهـا لنـا السـفير السـعودي، إلّا أنـه لـم يكـن وحـده الـذي تقـدّم لمُسـاعدتِنا، فقـد سـبقه محمـد باعبـود، وهـو رجـلُ خيرٍ سـعودي كان ينقـل المسـاعدات مـن جـدة إلى بورتسـودان، حيـث يقـع أهـم ميناءٍ بالسـودان، على متنِ بواخـرِه الخاصّـة، دون أيّ مقابـلٍ مـاديّ.

كان لدينـا الدعـم المـادي مـن الريـاض، وكان لدينـا الدعـم اللوجسـتي مـن السـفير و محمـد باعبـود، ولكـن كانـت تنقصنـا الخبرة، لـذا اتّجهنـا مبـاشرةً _في اليـوم التـالي لوصولنـا_ للقـاء اثـنيْن مـن ذوي الخبرة، الأول هـو الشـيخ عبـدالرحمن بـن عبدالله بـن عقيـل، والـذي كان يعـرف السـودان حـقّ المعرفـة، وقـد كان عضـوًا بالفريـق الاسـتطلاعي الـذي سـبقنا إلى السـودان لتقييـم الموقـف، أمـا الثـاني فـكان الدكتـور عبـدالرحمن السـميط - رحمـه الله - طبيـب الفقـراء كمـا يطلـق عليـه، وهـو رئيـس لجنـة مسـلمي أفريقيـا، الـذي جـاب أفريقيـا طـولًا وعرضًـا بعـد أن وهـبَ حياتَـه لمسـاعدة فقرائهـا.

كان لقاؤنـا بهـاتيْن القامتيْن بمثابـةِ ورشـةِ عملٍ في أوّليـات العمـل الإغـاثي، وكان الاثنـان متحمّسـيْن ومتفائـليْن بوجودنـا هنـا، فكانـا يتحدّثـان عـن كـثيرٍ مـن التجـارب في العمـل

الإغـاثي، ويقدّمـان الكـثير مـن الخبرات التي اكتسباها مـن خلال عملهما في أفريقيـا بشـكلٍ عـام، وفي السـودان بشـكلٍ خـاصّ، وكانـا يريـان أننـا محظوظـون بالإمكانـات المتوفّـرة معنـا، وبترحيـب السـودان بنـا، فلا حجّـة لنـا للتقـصير.

لـم نكـن ننـوي أن نـقصّرَ في هـذا العمـل، أو أن نخـذل أيًّـا ممّـن راهنـوا علينـا مـن البلديْـن، كان لدينـا عـزمٌ لا يـلين على إنجـاز هـذا العمـل على أكمـل وجـه، وقـد خطونـا الخطـوة الأولى بتقسـيم الفريـق وفقًـا للمهـامّ التي ننـوي إنجازهـا، فـكان على المحاسـب أن يذهـب إلى المسـتودعات في بورتسـودان، وأن يبقـى الأسـتاذ عبـدالله محمـد الهـزاع – الـذي يشـغل حاليًـا منصـب الأمين العـام لجمعيـة الـهلال والصليـب الأحمـر العـربي – في الخرطـوم مديـرًا لمكتـب تنسـيق الاتحـاد في الخرطـوم ليتـولى مهام إدارة مكتب التنسـيق بالخرطـوم والإشراف على أعمـال الاتحـاد.

أمـا أنـا فقـد كان يتـعيّن عليّ الذهـاب إلى الجنينـة بولايـة دارفـور الواقعـة في أقصى غـرب السـودان.

لـم أكـن أعـرف أي شيء آنـذاك عـن دارفـور، ذلـك الإقليـم الـذي شـهد القـرن السـابع عشر الميـلادي قيـام سـلطنة إسلاميـة على أراضيـه، والتي حـازت مكانتهـا البـارزة بين مجموعـة الممالـك السـودانية الإسلاميـة الأخـرى: سـنار وكردفـان وواداي وبجرمي وكانـم والهوسـا ومـالي، التي امتـدت على طـول نطـاق السـافانا، في المسـاحة الفاصلـة بين الصحـراء الـكبرى في الشـمال والغابـات الاسـتوائية في الجنـوب. تعاقـب على حكـم مملكـة دارفـور الإسلاميـة عـدد مـن الـسلاطين بدايـة مـن السـلطان سـليمان سـولونق، ووصـولًا إلى السـلطان علي دينـار، الـذي شـيد مصنعًـا لكسـوة الكعبـة، وعلى مـدى عشريـن عامًـا تقريبًـا كان يرسـل هـذا المصنع كسـوة الكعبـة إلى مكـة المكرمـة.

بـدأ تاريـخ دارفـور المـدون في القـرن الرابـع عشر الميـلادي، بالتزامـن مـع انتقـال السـلطة مـن سلالـة الداجـو إلى سلالـة التنجـر، التي عاصرت دخـول الإسلام في منطقة غرب السـودان دارفـور، وكان أحمـد المعقـور هـو أول سـلطان مـن سلالـة التنجـر يحكـم دارفـور, وتحـت حكمـه توحـدت السـلطنة وشـملت أجـزاء واسـعة مـن الإقليـم, ثـم سـار ابنـه السـلطان دالي على نهجـه، والـذي يعـد واحـدًا مـن مـؤسسي سـلطنة دارفـور, فقـد قسَّـم السـلطنة إلى مناطـق أو محافظـات، ووضـع أسـس نظـام السـلطنة, وسـنَّ قـوانين ولوائـح مسـتمدة مـن الشريعـة الإسلاميـة، واجتهـد في تدويـن كل ذلـك في كتـابٍ مشـهور عُـرف باسـم: كتـاب دالي، والـذي صـار واحـدًا مـن أهـم المراجـع التي توثـق تاريـخ دارفـور.

وحين أسـس السـلطان سـليمان سـلونق سـلطنة الفـور الإسلاميـة عـام ٨٤٨هـ- ١٤٤٥م اهتـم ببنـاء المسـاجد وفتـح المـدارس وتعمير الخلاوى بالمدن والقرى، ثـم واصـل حفيـده السـلطان أحمـد بكـر ١٧٢٦م-١٧٤٦م نهـج أسلافـه في هـذا المضمـار، فقـد شـجَّع هجـرة العلمـاء للعمـل بدارفـور لـنشر ديـن الإسلام بطريقـة علميـة مؤسسـة، فأرسـل رسـله برسـالة الدعـوة إلى الـدول المجـاورة.

تميـزت مملكـة دارفـور بعملتهـا الرسـمية وعلمهـا الخـاص، فيمـا عاشـت القبائـل في إطـار حكـم فيـدرالي مسـتقل يترأسـه زعيـم القبيلـة، لكـن هـذه الأيـام ولـت مـع قـدوم الحقبـة العثمانيـة الـتي دامـت لقرابـة العـشر سـنوات، فشـكَّل الأمـراء والأعيـان حكومـات ظـل تولـت قيـادة جيـش دارفـور الموحـد الـذي دأب عـلى مقاومـة الجيـش العثمـاني.

قـاوم أهـل دارفـور الحكـم العثمـاني، فقامـت خلال هـذه الـفترة عـدة ثـورات كان مـن أشـهرها ثـورة هـارون التي قضى عليهـا غـردون باشـا عـام ١٨٧٧م. ومـع قيـام الثـورة المهديـة سـارع الأمـراء لمبايعـة المهـدي ومناصرتـه حتى نالـت دارفـور اسـتقلالها بعـد نجـاح الثـورة المهديـة. لكـن لـم يـدم اسـتقلال الإقليـم طـويلًا، إذ سـقط مجـددًا تحـت حكـم المهديـة عـام ١٨٨٤م الـذي وجـد مقاومـة عنيفـة حتى سـقطت المهديـة عـام ١٨٩٨، فعـاد السـلطان علي دينـار ليحكـم دارفـور.

وعنـد انـدلاع الحـرب العالميـة الأولى سـارع السـلطان:علي دينـار بالتحالـف مـع الدولـة العثمانيـة التي كانـت تمثـل مركـز الخلافـة الإسلاميـة؛ ممـا أغضـب الحاكـم العـام للسـودان، وأشـعل العـداء بين السـلطنة والسـلطة المركزيـة، الـذي كانـت نتيجتـه الإطاحـة بسـلطنة دارفـور على يـد التجريـدة العسـكرية الإنجليزيـة المصريـة، والتي تمكنـت من فرض سـيطرتها على الإقليـم بعـد قتـل السـلطان: علي دينـار، ثـم ضمـه إلى السـودان عـام ١٩١٧م.

وقـد تأثـر إقليـم دارفـور بالثقافـة الإسلاميـة، فأقيمـت المـدارس الدينيـة بغـرض تعليـم القـرآن والشريعـة الإسلاميـة، كمـا تـم إرسـال العديـد مـن أبنـاء دارفـور للدراسـة في الأزهـر الشريـف، والـذي شـهد تخصيـص رواق باسـم: رواق دارفـور.

وبعـد عقـود مـن هـذا الزمـن أسـافر إلى دارفـور برفقـة فريـقٍ إغـاثيّ مكـوّن مـن فريـق إداري وطبي ومـالي وفني أرسـلتْهم وزارةُ الصحـة السـعودية، بالإضافـة إلى مُسـعفٍ مـن الـهلال الأحمـر السـعودي، إذ كان لـدى الـهلال الأحمـر السـعودي مقـرّ رئيـس في الخرطـوم، يتفـرّع منـه عـدّة مقـرّات في مـدن أخـرى:

السودان - الجنينة ١٩٨٥م

- بورتسـودان: حيـث يتـمّ اسـتقبال المسـاعدات الـواردة مـن الريـاض، وتخزينهـا في مستودعاتٍ خاصّة بالهلال الأحمر، كما يشرف فريق بورتسودان على معسكر (أستربا) لإيواء اللاجئين، في جنوب غرب بورتسودان، والذي كان يضمّ مئتي متضرّر من الجفاف، تُقدَّم لهم المساعدات الغذائية والعلاجية، ويشرف على هذا العمل فريقٌ سعودي مكوّن من إداري وطبيب وصيدلي وممرّض.

د. حمد الصقير أثناء زيارة تفقدية للسودان ١٩٨٥م

كذلك فإن ثمّة معسكرًا آخر يبعد مئتي كيلومتر من بورتسودان، وهو معسكر تهاميم الذي يضمّ ألفي لاجئ، وأيضًا معسكر دروديب الذي يقع بين بورتسودان وكسلا، ويضمّ ألفي لاجئ أيضًا، ويتولّى الإشراف عليه فريقٌ سعودي مكوّن من إداري وطبيب وصيدلي وممرّض.

- كـسلا: حيـث أنشـأ الـهلال الأحمـر السـعودي معسـكريْن، الأول في وادي شريـفين، والـذي يضـمّ ألفـي لاجئ، والثـاني في الجمـام، والـذي يضـمّ عـددًا ممـاثلًا، وتشـكّلت فـرقُ توزيـعٍ تجـوب القـرى المحيطـة بكـسلا، ويشرف على هذيْـن المعسـكريْن كمـا يشرف على غيرهمـا فريـقٌ سـعودي مكـوّن مـن إداري وطبيـب وصيـدلي وممـرّض.

تأهّبنـا للسـفر إلى الجنينـة بعـد مضي أسـبوع على وصولنـا إلى السـودان، حيـث سيرافقنـا إليها الشـيخ عبـدالرحمن بـن عبدالله بـن عقيـل الـذي كنّـا قـد التقينـاه قبلها بأيـام، والعميـد إبراهيـم سـليمان، ضابـط الاتصـال السـوداني الـذي تـولّى وزارة الدفـاع لاحقًـا، وقـد تقـرّر أن نسـافرَ جميعًـا على متن طائـرة الإغاثـة (C130) المحمّلـة بثلاثـة عشر طنًّـا مـن المـوادّ الإغاثيـة، إلى جانـب سـيارة داتسـون غمـارتين؛ لتسـاعدنا على التحـرّك هنـاك.

كانـت (C130) طائـرةً حربيـة أو تـكاد، فهـي طائـرةُ شـحنٍ غير مهيّـأة لنقـل الأفـراد، لـذا لـم يكـن متوقّعًـا أن تكـون هـذه الرحلـة مريحـة بالنسـبة لنـا، فباستثنـاء قمـرة القيـادة التي شـغلها قائـد الطائـرة ومسـاعده، بالإضافـة إلى ضابـط الاتصـال والشـيخ عبـدالرحمن، لـم يكـن بداخلها أيّ مقاعـد للجلـوس، فقضينـا بعـض الوقـت في ترتيـب مكانٍ لجلوسـنا بعيـدًا عـن صـوت محرّكاتهـا المزعـج، وفي النهايـة جلسـنا إلى جانـب البضائـع التي حملناهـا معنـا كيفمـا اتفـق، نفكّـر فيمـا ينتظرنـا في مدينـةٍ تعـاني مـن نقـص الأساسـيات، وبالمـكان الـذي سـنقيم فيـه، وبالمعانـاة التي تنتظرنـا، فهـذه أولى رحلاتنـا، ولـم نكـن قـد اعتدنـا هـذا النمـط مـن الحيـاة، الـذي يرتكـز بشـكلٍ أسـاسي على الزهـد والـرضى بالقليـل، كنّـا لا نـزال نقـارن مـا نحـن فيـه بحياتِنـا بالمملكـة، ولا يمكـن أن تنصـف هـذه المقارنـةُ الأوضـاعَ التي نعيشـها في السـودان.

السودان - الخرطوم ١٩٨٦م

انقضت أكثر من ثلاث ساعات قبل أن نصل إلى موقع الجنينة، غير أن النقيب خالد الحمدان قائد الطائرة لم يتمكّن من رؤية مدرج الهبوط بسبب الغبار، كان يعرف أنه قريب منه، لكنه لا يراه، ولم يكن بالمطار المتواضع أيّ أبراج مراقبة للتواصل معها لإرشاده بكيفية الهبوط.

لم تكن الجنينة بشكلٍ عام مدينةً حضريّة كما يتوقّع أن تكون مدينة بهذا الحجم، بل كان سكّانها يعيشون حياة بدائية تمامًا في أحيائها العشرين، فالطرق غير مرصوفة، بما فيها مدرج الهبوط في المطار، وهو ما جعل قائد الطائرة يفتّش عن مدرج الهبوط، كمَن يبحث عن إبرةٍ في كومةِ قشّ! ولم يهتدِ إليه في نهاية المطاف، فأصبح يطارد سرابًا حين رأى ما ظنّه مدرج الهبوط، ولم يكن يرى منه سوى بضعة أمتارٍ فحسب، قبل أن يتّخذ قراره بالهبوط، لكن سرعان ما انجرفت الطائرة في منطقة رملية، انتهت عندها الطريق الممهّدة، وصارت الطائرة تنزلق بأقصى سرعتها مخترقةً كُثبان الرمال، فتجمّد عقل قائد الطائرة ومساعديه، وبما أنهم لم يتدرّبوا على هذه المواقف من قبل، كانوا بحاجة إلى سرعة البديهة والذهن الحاضر ليعملَ وفق تسلسلٍ منهجيّ، فاستسلموا للأمرِ الواقع، وكأنهم تحوّلوا من طيّارين إلى مجرّد ركّاب لا علم لهم بأمورٍ كهذه! إلى أن تدخّل المهندس الجويّ، فأطفأ المحرّكات الأربعة، فانهارت الطائرة، وبدت وكأنها تعثّرت، فسقطت على وجهها، إلى أن توقّفت بعد بضعة أمتار، وفُتحت أبوابها اضطراريًّا، فركضنا خارجين منها وسط سحابةٍ من الغبار الذي خلّفه هبوطُها، فحين رأينا قائد الطائرة ومساعديه يركضون، ركضنا كالممسوسين مثلهم لا نكاد نفكّر فيما نفعله، فقد كنّا نخشى انفجار الطائرة، وحين ابتعدنا مسافةً كافية دون أن تنفجر، عُدْنا أدراجنا من جديد نحو الطائرة بعد أن التقطنا أنفاسنا بصعوبة، كنّا لا نزال تحت أثرِ الصدمة، لكن كان يجب علينا أن نتماسك؛ لنُنجزَ ما أتينا من أجله.

كان قائد الطائرة يتجادل مع المهندس الجويّ رافضاً تصرّفه من تلقاء نفسه دون الرجوع إليه، كان يصيح به غاضبًا ومرتعبًا، لكن ربما كان تصرف المهندس الارتجالي هو الذي أنقذنا في هذا الموقف، فقد كان قائد الطائرة ومساعداه عاجزين تمامًا، ولم يكن بإمكانهم الإتيان بأيّة فكرةٍ من شأنِها إنقاذنا، ولم يكن قائد الطائرة ليستوعب هذا الأمر الآن، لكن ربما يُدرك حقيقة ما حدث حين يهدأ.

كان المطار قريبًا من منزل المحافظ، وسرعان ما حضر إلى موقعنا، وتوافد إلينا المسؤولون من الجيش والشرطة تباعًا، والذين لم يكونوا متفاعلين على النحو الذي توقّعناه، فقد طلبنا منهم مساعدتنا في إخراج الطائرة التي غرزت في الرمال، ولم تكن

لدينـا الإمكانيـاتُ اللازمـة، فقـد كنّـا نعـوّل على قـدرة الدبّابـات على إخراجهـا، لكنهـم تصدّوا لهـذا الاقتراح بالرفـض، فلـم يكـن ذلـك ممكنًـا بـدون اسـتخراج تصاريـح تسـتغرق بعـض الوقـت، بجانـب عـدم توفـر وقـود كافٍ لإنجـاز هـذا العمـل، لكـن لـم يكـن تـوفير الوقـود يمثّـل عائقًـا أمامنـا؛ فقـد عرضنـا سـداد ثمنـه، والـذي كان يُعـادل حـوالي ثلاثـة آلاف وسـت مئـة ريـالٍ سـعودي في ذلـك الوقـت، وتكفّلـوا هـم باسـتصدار التصاريـح اللازمـة، ولـم يكـن أمامنـا سـوى انتظـار ظهـور الدبّابـات لإخـراج الطائـرة مـن الرمـال، وليـس لدينـا وقـتٌ لنُضيّعـه في الانتظـار، فطلبنـا شـاحنتين لنقـل الأثـاث والمسـاعدات إلى مقرّنـا الـذي لـم نكـن قـد اخترنـاه بعـد، وبالفعـل حضرت الشـاحنات، ونقلـت مـا طلبنـا نقلَـه كلـه دون أن نعـرف إلى أيّـة وِجهـةٍ، وكأن الأمـر كلّـه تـمّ ونحـن منوَّمـون مغناطيسـيًّا، فلا نـكاد نعـي مـا يحـدث مـن حولِنـا، والفضـل في ذلـك يرجـع للأهـالي مـن أبنـاء السـودان الطيّبين، الذيـن مـا إنْ رَأوا الطائـرة تهبـط على هـذا النحـو، حتى ركضـوا مهرولين نحوهـا، قبـل حتى أن يـميّزوا مـا إن كانـت هـذه الطائـرة سـعودية أم سـودانية، فلـم يكـن ذلـك يـعني بالنسـبة لهـم أيّ شيء، كل مـا كان يشـغلهم في هـذه اللحظـة هـو تقديـم المسـاعدة لمَـن هـم بحاجـةٍ لهـا، حتى وهـم أحـوج النـاس إليهـا.

سـألنا عـن الموقـع الـذي اتّجهـت إليـه الشـاحنات، ولحقنـا بهـا، كانـت قـد توقّفـت أمـام المسـتودع الـذي اتّخذنـاه بمسـاعدة الأهـالي في المدينـة، وبـدؤوا على الفـور في إنـزال حمولتِهـا وتخزينهـا بداخلـه، ووقفـتُ لبعـض الوقـت كي أشرفَ على العمـل، ثـم اخترتُ زميـلًا لِيَنـوبَ عنّي، وعُدْتُ إلى موقـع الطائـرة؛ لأرى مـا توصّـل إليـه رجـالُ الجيـش، وانتهزتُ الفرصـة لإخـراج السـيارة التي حملتهـا الطائـرة، فقـد كنّـا بحاجـةٍ إليهـا في هـذه الأثنـاء؛ لتسـهيل الحركـة ذهابًـا وإيابًـا إلى الجنينـة.

السودان - الجنينة ١٩٨٥م

لاحظـتُ أن أحـد المتجمهريـن حـول الطائـرة كان يحمـل آلـةَ تصويـرٍ ويصـوّر موقـع الحادث، وكان يـدور حـول الطائـرة؛ ليلتقـط لهـا صـورًا مـن كل الزوايـا، حتى حين حضرت الدبّابات كان حـاضرًا أيضًـا لتصويرهـا، وعلمتُ من الشيخ عبـدالرحمن ـ الـذي بدا منزعجًـا ممّـا يـراه_ أنـه منـدوبٌ من مفوّضيـة اللاجـئين، ولـم أكـن على درايـةٍ بكيفيـة التعامـل مـع هـذه المواقـف، لـذا تكفّـل الشيخ عبـدالرحمن بالحديـث مع المحافـظ، فقد كان أكثر خبرة وحنكـة، لكنـه لتواضعـه كان ينسـب أفعالـه إليّ؛ باعتبـاري قائـد الفريـق.

لـم تكـن مهمّة الدبّابات سهلة على خلافِ مـا توقّعنـا، فقد حاولـوا أن يسـحبوا الطائـرة بسلاسـلَ حديديـةٍ تـمّ ربطهـا بالدّبابـات، لكـن مـا إن تتحـرّك الدبّابتـان لمترٍ أو مترَيْـن، حتى تنكسر السلاسـل بسبب وزن الطائـرة، ولـم تتحـرّك الطائـرة لأكثر مـن خمسين متراً على مـدار اليـوم الأول كاملًا .

كنّـا بحاجـةٍ إلى الراحـة بعد يـومٍ طويـل وشـاقّ، ولـم نكـن قـد اتّخذنـا منزلًا لنـا بعـد، فنزلنـا في ضيافـة المحافـظ هـذه الليلـة، واجتمعنـا أخيـرًا في المسـاء، حين جلسـنا متحلّقين وأردنـا أن نرتـاح مـن تعـبِ هـذا اليـوم، وكنـتُ أتوقّـع أن يسـودَ صمـت كئيـب على هـذه الجلسـة، إلّا أن البسـمة لـم تُفـارق وجـوه الحاضريـن وهـم يسترجعـون تفاصيـل هـذا اليـوم، وإلى جوارنـا كان يجلـس الطيّـارون وهـم يتضاحكـون دون أن تخفـي عيونُهـم تأثّرهـم بمـا حـدث، كان بالإمـكان أن تكـون هـذه نهايتنـا ولا نـدرك هـذا المسـاء، وكانـوا هـم مَـن سيتحمّلـون مسؤولية مـا حـدث، صحيـح أن العنايـة الإلهيـة قـد تدخّلت لإنقاذنـا، إلّا أنهم لم يسـتطيعوا تخطّـي هـذا الفشـل على مـا يبـدو، لكنهـم فعلـوا كل مـا بإمكانِهـم، وفي النهايـة أرسـلوا تقريرَهـم إلى المملكـة، ولـم يكـن أمامهـم سـوى الانتظـار.

لـم يكـن ليُنكـر أحدُنـا أن اللـه وحـده هـو مَـن أنقذنـا في هـذا الصبـاح، فـكان بديهيًّـا أن نتّجـه إلى التفـكير في التصـدق بالذبائـح وتوزيـع لحومهـا على الفقـراء؛ شـكرًا للـه وكرمـه الـذي أنقذنـا مـن مـوتٍ محقّـق.

لكـن لـم تكـن لدينـا فكـرة عـن العـدد الـذي سـنذبحه أو كيفيـة توزيعـه، فسـألنا عـن الجنينـة وأهلهـا وأحيائهـا، فعلمنـا أنهـا تنقسـم إلى ثمانيـةٍ وعشريـن حيًّـا، فقرّرنـا أن نذبـح ذبائـح مسـاوية لهـذا العـدد، فقد تسبّـب الجفـافُ في انخفـاض أسـعار الماشـية، فـكان سـعر الثـور في السـودان يعـادل ثمـانين ريـالًا سـعوديًّا، بينمـا سـعره في المملكـة كان يصـل إلى ألـفٍ وخمسـمائة ريـالٍ سـعودي، فاتّفقنـا على أن نذبـح ثمانيـة وعشريـن ثـورًا؛ لينـال كل حيّ نصيبـه مـن لحومهـا.

في اليـوم التـالي هبطـت طائرتـان سـعوديتان، إحداهمـا تحمـل مسـاعدات جديـدة، والثانيـة قـد جـاءت لإغاثـة الطائـرة العالقـة وسـط الرمـال، وكانـت مجهّـزة بالمعـدّات والأدوات اللازمـة لإنجـاز المهمّـة، وقـد حملـت معهـا سـيارةً صـغيرة قالـوا إنهـا تُسـتخدم في دفْـع الطائـرات، ولـم نكـن نتصـوّر حجـمَ الـدور الـذي لعبتـه هـذه السـيارة الصـغيرة في إنجـاح المهمّـة وتحريـر الطائـرة.

السودان - الخرطوم ١٩٨٦م

لـم تقـتصر مهمّـة هـذه الطائـرات على ذلـك فحسـب، بـل حملـت مَـن يحقّقـون فيمـا حـدث، وحين انتهـوا إلى نتيجـةٍ، كتبـوا تقريرَهـم وغـادروا، وحانـت لحظـة رحيـل الطيّاريـن، وكنّـا نعلـم أنهـم سيرحلـون عـاجلًا أو آجلًا، لكـن ذلـك لـم يمنـع حزننـا لفراقِهـم، فقـد عشـنا سـويًّا المحنـةَ ذاتهـا، وكانـت لحظـات هـي الأصـدق على حافّـة الدنيـا، حيـث كنّـا عالـقين بين الحيـاة والمـوت، وارتبطـت مصائرنـا، فلـم يكـن فراقهـم ليكـونَ سـهلًا بحـالٍ مـن الأحـوال، لكـن لـم يكـن مـن ذلـك بـدّ، فودّعناهـم بعـد أن احتضنتُهـم واحـدًا بعـد الآخـر، وكنـتُ أشـعر بـالأسى وأنـا أشـاهدهم يحلّقـون بالطائـرة التي حملتْنـا إلى هنـا.

تخطّينـا هـذه الحالـة، فقـد كانـت تقـع علينـا مسـؤوليات جسـام، وكان أول مـا بدأنـا بـه تهيئـة أمـر إقامتنـا في الجنينـة؛ لنتمكّـن مـن الاسـتقرار بهـا، فلا يمكننـا الإقامـة بشـكل دائـم في ضيافـة المحافـظ، فنكـونَ ضيوفًـا على الجنينـة، بـل نريـد أن نكـون جـزءًا مـن أهلهـا، لـذا انتقلنـا للسـكنِ في بيـتٍ شـعبيّ جديـد في أقصى غـرب المدينـة يتربّـع على ناصيـة شـارعين متظاهريـن مـن شـوارع المدينـة، وهـو مبنيّ على نمـطِ بيـوتِ الأهـالي هنـاك، حيـث ينقسـم إلى أربـع غـرف، وفنـاء واسـع مـن جهتيْـن، وفي زاويـةٍ منـه يوجـد حمـام بـدون مـاء، ولـم تكـن بالبيـت كهربـاء على غـرار بيـوت المدينـة، بـل المحافظـة كلهـا، لكننـا عالجنـا هـذه المشـكلة الأخيرة، فقـد كان لدينـا مولّـد كهربـاء ديـزل، وكان كافيًـا لحـلّ المشـكلة.

وبدأنـا نقسّـم البيـت ونؤثّثـه، فاتّخذنـا مـن أكبر الغـرف مكتبًـا لنـا، وخصّصنـا الغرفـة الثانيـة لتكـونَ مجلسًـا لنـا وغرفـةً للمعيشـة، ووضعنـا بـكلٍّ مـن الغرفتيْن الأخـريين ثلاثـة أسرّة للنـوم، وسرعـان مـا اتّخـذ البيـتُ شـكلَه النهائي، وبـات أكثر دفئًـا وأُلفـة، على الرغـم مـن منـاخ المدينـة الصحـراوي الـذي يكـون شـديد البرودة في المسـاء.

وامـتلأ البيـتُ بالـزوّار الذيـن بـدؤوا يتوافـدون علينـا في بيتِنـا الجديـد صباحًـا ومسـاءً، فدبّـت الحيـاةُ مـن حولِنـا، وصرنـا نشعـر بالانتـماء لهـذا المكـان، والاسـتعداد لتقديـم كل مـا يحتاجـه.

اسـتأجرنا حارسًـا ليُسـاعدنا في تـدبير مـا يحتاجـه البيـت، خاصّـةً أن الطهي كان يعتمـد على الحطـب، ثـم اسـتأجرنا سـائقًا لتسـهيلِ حركتنـا، لكننـا كنّـا في حاجـةٍ إلى مَـن يطهـو طعامنـا، فلـم يكـن لدينـا مـا يكفـي مـن الوقـت للانشـغال بإعـداد الطعـام، ولـم يكـن الحارس الـذي يسـاعدنا قـادرًا على تـولّي هـذه المهمّة، وكنّـا نخشى أن ننشـغل بالتفكير في هـذا الأمـر، فينغّـص علينـا بقاءنـا في الجنينـة.

لـم يكـن جيراننـا كُثُر، فباستثنـاء البيـت المخصّـص للمصـابين بمـرضِ الجـذام الـذي يقـع غـرب بيتِنـا بحـوالي ٥٠٠ متر، كان لدينـا جـارٌ آخـر في الجهـة الشـمالية، يسـكن وحيـدًا مـع أمـه في بيـتٍ اعتدنـا أن نجلـس أمامـه، ولـم نكـن قـد تبادلنـا معـه كلمـة واحـدة، إلى أن رأينـا الكـراسي اصطفَّـت أمـام داره، فألغـت مجلسَـنا المعتـاد، ولـم نكـن نعـرف لهـا سببًـا، حتى علمنـا أن أمـه قـد توفّيـت في آخـر أيـام العـزاء، فتوجّهنـا إلى دارِه مباشرةً، وقدّمنـا لـه تعازينا،

ولـم نكـن نعلـم أن زيارتنـا هـذه سـيكون لهـا في نفسـه مـا رأينـاه مـن أثـر، فقـد كاد يـبكي بينمـا يرحّـب بنـا ويقـصّ علينـا مـا يسـمعه مـن جيرانـه ومعارفـه، الذيـن يندهشـون مـن عـدم رؤيتِنـا لـه، وهـو الـذي يسـكن بجـوار السـعوديين الذيـن يفيـض خيُرهـم على الجميـع، إلّا على جارهـم، ولـم نكـن قـد انتبهنـا إلى هـذه الحقيقـة مـن قبـل، فقـد كنّـا مدفوعين بتلبيـة احتياجـات المدينـة دون أن نلحـظ الجـار الـذي يجلـس على مسـافةِ أمتـارٍ منّـا! والـذي كان بلا عمـل.

وزارنـا في بيتِنـا بعـد يـوميْن، وتحدّثنـا عـن عملِـه قبـل الركـود الـذي أحدثـه الجفـاف، فأخبرنا بأنـه طـاهٍ، بـل وأفضـل طـاهٍ في المدينـةِ على حـدّ قولـه، ولـم يكـن الـكلام مفهومًـا لكلِيْنـا، فاسـتعنّا بأحـدِ العمّـال الذيـن تعاملـوا معنـا خـلال الأيـام الماضيـة؛ ليوضـحَ لـه ولنـا كذلـك مـا غمـض مـن أحاديثِنـا، ففهمنـا منـه أنـه كان طاهيًـا محترفًـا لا ينقطـع النـاسُ عـن طلبِـه، وكان أجـره يتراوح بين ٤٠ إلى ٦٠ جنيهًـا في الشـهر الواحـد، لـولا الأزمـة التي ضربـت الـبلاد، فأقعدتـه بـدارِه حتى اليـوم، ولـم نكـن نصـدّق مـا نسـمعه، فقـد كنّـا في أمـسّ الحاجـة إلى طـاهٍ مثلـه، فعرضنـا عليـه العملَ معنـا، وقرّرنـا أن نمنحـه ٧٠ جنيهًـا راتبًـا شـهريًا، وجهّزنـا لـه مطبخًـا ملائمًـا، بـه التنّـور والقـدور التي يحتاجهـا طـاهٍ مثلـه، وعلّمـه زميلُنـا عبدالله أكلاتنـا المفضّلـة، وظـلّ لأيـامٍ يتـدرّب عليهـا قبـل أن يُجيدهـا بشـكلٍ كامـل، حتى صرنـا غير قادريـن على التمييـز بين طعامـه وطعـام السـعوديين أنفسـهم.

بدأنـا عملنـا _بعـد أن اسـتقرّ مقامنـا في الجنينـة_ بالاجتمـاع بالمسـؤولين السـودانيين؛ لبحـثِ سـبل التعـاون في تقديـم المسـاعدة لأهـالي الجنينـة، وبالطبـع فقـد كانـت الكلمـة الأكثر تـردّدًا على الألسـنة هـي الجفـاف الـذي ضرب السـودان وهجّـر أهاليـه، فنزح عـددٌ كـبير مـن المواطنين؛ إمّـا يأسًـا أو هربًـا مـن الجـوع إلى الجنينـة، فصـار بالمدينـةِ معسـكران لإيـواءِ اللاجـئين، أحدهمـا في عصرني والثـاني في ديسـا، وقـد رأى المسـؤولون ضرورة إنشـاء معسـكرٍ ثالـث خـارج المدينـة؛ فقـد كانـوا يعانـون بالفعـل مـن آثـار هذيْـن المعسـكريْن القريـبيْن مـن المدينـة، واللذيْـن سبّبـا العديـد مـن المشـكلاتِ لأهاليهـا، ومـن جانبنـا فإننـا لـم نُمانـع هـذا الاقتراح، وقـد صارحناهـم بـكل مـا لدينـا مـن إمكانيـات، وطلبنـا مشـورتَهم في اقتراح أوجـه الاسـتفادة منهـا، وقـد راسـلوني لاحقًـا ببعـض المقترحـات، كتوسـعة وترميـم مـدرستيْن قريـبتيْن مـن المعسـكر، إحداهمـا وكان اسـمها مدرسـة (ج) للـبنين، والثانيـة واسـمها مدرسـة (د) للبنـات، وأيضًـا لتعليـم الأطفـال المقيمين بالمعسـكر _الـذي أنشـأناه_ ممّـن هـم في طـورِ الدراسـة.

السودان - الجنينة ١٩٨٦م

كنّا لا نـزال بصـددِ إنشـاء معسـكرٍ لإيـواءِ اللاجـئين، كمـا اتّفقنـا مـع المسـؤولين السـودانيين، ولـم تكـن لدينـا خبرة كـبيرة في هـذا الصـدد، فكنّـا بحاجـةٍ إلى زيـارة أحـد المعسـكرين القائـمين بالفعـل، والاسـتفادة مـن هـذه التجربـة في فهـم أساسـيات إدارة معسـكرٍ بهـذا الحجـم، فقـد كنّـا _بالتأكيـد_ نـدرك حجـمَ المسـؤولية المُلقـاة على عاتقِنـا، حيـث سـنكون مسـؤولين مسـؤولية كاملـة عـن إيـواء ورعايـة آلاف الأسر، الذيـن سـيكون طعامهـم وشرابهـم رهنًـا بنـا، فلا بـدّ مـن أن نكـون مسـتعدّين لهـذه المسـؤولية.

كان بالمدينـة مكتـبٌ لمفوّضيـة اللاجـئين (UNHCR)، وكان يديـره موظّـف تنزاني اسـمه رشـيد، يعمـل تحـت إدارتـه طاقـمٌ ثابـت في مختلـف التخصّصـات، بالإضافـة إلى العديـد مـن الـزوّار والمتطـوّعين مـن الجنسـين، وسرعـان مـا نشـأت علاقـة وطيـدة بيننـا، فكنّـا نـزوره يوميًّـا ويُبادلنـا الزيـارة، بـل كنّـا نتعـاون معـه في عـددٍ مـن الأمـور، كشـحن المسـاعدات إلى الجنينـة، وقـد سـاعدنا رشـيد حين أتـاح لنـا فرصـة زيـارة معسـكر عصرني الـذي كانـت تديـره المفوّضيـة، والـذي كان يضـمّ ٢٦٠٠٠ لاجئ، فتمكنّـا مـن الاطّلاع على تفاصيـل المعسـكر وآلية إدارتـه، كطريقـة التسـجيل والتوزيـع والإيـواء والرعايـة الصحيـة، وظللنـا نتردّد عليـه على مـدى الأيـام التاليـة، بـل إننـا كنّـا نبيـتُ بـه في بعـض الأحيـان، فأكسـبْنا هـذه الأيـامُ خبرة كـبيرة في غضـونِ فترة وجيزة.

بدأنـا بالفعـل في تخطيـط معسـكرنا الـذي قرّرنـا في البدايـة أن يتكـوّن مـن ألفـي كُرنُـك – وهـو بنـاء أقـرب إلى خيمـةٍ ترتكـز على أعمـدةِ القصـب أو الخَيْزران، ويُغطى هيكلهـا بسـتار

يُصنع من ربط عيدان البوص أو القشّ ببعضِها بخيط سميك – لكن الحكومة قابلت طلبَنا بالرفض؛ فقد كانت أعداد اللاجئين في ازدياد، وقد أُشيع أن هذه التجمّعات تضمّنت ممارساتٍ غير أخلاقية ومشاحنات متكرّرة بين القبائل، ومن ثم فقد دعتنا الحكومةُ إلى اجتماعٍ عاجل في الثامن من يونيه عام ١٩٨٥م برئاسةِ نائب المحافظ، وطلب المسؤولون خلال هذا الاجتماع إيقافَ توزيع وجبات المديدة، وطلبوا كذلك ألّا يزيد عدد اللاجئين داخل معسكرنا عن خمسة آلاف لاجئ؛ فقد كانوا مُتخوّفين من ميْلِهم إلى استيطان هذه الأرض وهجر أراضيهم الزراعية التي تركوها هربًا إلى هنا حتى بعد نزولِ المطر وعودةِ الحياة إلى أراضيهم، فما داموا يجدون غذاءهم هنا، فلن يكون لديهم دافعٌ للعودةِ إلى أشغالهم من جديد، وبناءً على ذلك قرّرنا تخفيض العدد الذي اقترحناه إلى ألفِ كُرنُك فحسب، وقد تفاوضنا على هذا الأساس.

(كرنك) معسكر ديسا - السودان - الجنينة ١٩٨٥م

قُسّم المعسكر إلى وِحدات (بلوكات)، تضمّ كل وِحدة عشرة كرانك، وتُقدّر أبعاد الوِحدة بثلاثةٍ وثلاثين مترًا طولًا وعشرين مترًا عرضًا، وتضمّ كل وِحدة دورةَ مياه صحية، ويحيط بالوِحدة أربعة شوارع من كل جانب.

وجعلنا أيضًا داخل المعسكر مستوصفًا طبيًّا؛ لعلاجِ المرضى، لا سيّما وأن الجفاف قد حمل معه عددًا من الأمراض المرتبطة بسوء التغذية ونقص المناعة.

هكـذا قسّـمنا المعسـكر، ومـن ثـم فقـد أوكلنـا مهمّةَ إنشـائه إلى مقـاولٍ محلي، وانشـغلنا نحـن بتقديـم المسـاعدة إلى أهـالي الجنينـة، فقـد كانـت تصلنـا طائرتـان أسـبوعيًّا، طائـرة السـلاح يـوم الأحـد، وهـي قادمـة مـن جـدة إلى الخرطـوم ثـم الجنينـة، وطائـرة أخـرى يـوم الثلاثـاء، وهـي قادمـة مـن الريـاض إلى الخرطـوم ثـم الجنينـة، وتكـون كل طائـرة محمّلـة بثلاثـة عشر طنًّـا مـن المسـاعدات، إضافـةً إلى خمسـة آلاف طـن مـن التبرعـات التي تصلنـا بحـرًا مـن بورتسـودان، وعلى الرغـم مـن ذلـك، إلّا أن هـذه المسـاعدات كلهـا لـم تكـن كافيـةً، ونحـن نشـاهد اللاجـئين يتوافـدون يومًـا بعـد يـوم على الجنينـة، ومُحيـطين بهـا مـن كل جانـب؛ يطلبـون المسـاعدة، ولـم يكـن بإمـكان الحكومـة تلبيـة احتياجاتهـم المتزايـدة وتقديـم المسـاعدة التي ينتظرونهـا، وكنّـا نـرى ألّا نقـفَ مكتـوفي الأيـدي إزاء هـذا الوضـع المتفاقـم، لـذا فقـد اقترحنـا على فريـق التنسـيق بالهلال الأحمـر السـعودي أن تُشـحن الموادّ الإغاثيـة بقطـارٍ مـن بورتسـودان إلى نيـالا، ومـن نيـالا إلى الجنينـة؛ لزيـادة الكميـة التي تصلنـا مـن المسـاعدات، آمـلين بـأن تكفـي احتياجـات أهـالي الجنينـة واللاجـئين على حـدٍّ سـواء.

السودان - شرق السودان ١٩٨٥م

لكـن لـم تكـن المسـاعدات في حـدّ ذاتهـا هـي أقصى مـا نسـتطيع أن نقدّمـه أو غايـة أهـالي الجنينـة مـن المتضرّريـن الذيـن عذّبهـم الجـوع، فقـد كنّـا نـرى حاجـة هـؤلاءِ إلى الطعـام، لـذا فكّرنـا في طهـي وتوزيـع الوجبـات، واستشرنـا في ذلـك طبيبًـا مـن بعثتِنـا معروفًـا بسـعةِ اطّلاعـه وأفـكاره المبتكـرة، ولـم يخـذل ثقتنـا فيـه، فـاقترح علينـا أن نطبـخ المديـدة، وهـي وجبـة صحيـة شـائعة في الجنينـة تتكـوّن مـن دقيـق وملـح وزيـت ومـاء وحليـب وسـكر، وكلهـا عنـاصر أساسـية يحتاجهـا الجسـم، فهـي بمثابـة وجبـة متكاملـة يمكـن أن يعتمـد عليهـا الإنسـان، وقرّرنـا أيضًـا أن نخصّـص وجبـة للأمهـات والأطفـال تكـون مكوّناتُهـا مقـتصرةً على الحليـب والمـاء والسـكر والزيـت والدقيـق.

كنّـا متحمّـسين للغايـة، وسرعـان مـا بدأنـا بتجـهيز المكوّنـات، ثـم طهونـا الوجبـات في براميـل، وعنـد انتهائنـا بدأنـا في الغـرف التـدريجي فتزاحـم النـاس حولنـا حتى أحكمـوا الالتفـاف على البراميـل واصطدمـوا بهـا وتناثـرت على الأرض، فلـم نتمكّـن مـن إدارة الأمـر على النحـوِ الـذي توقّعناه،وخرجـت الأمـور عـن السـيطرة، وانتهـى اليـوم الأول بفشـلٍ تـامّ في تنفيـذ خطّتنـا هـذه.

كنّـا مشـغولين بالتفـكير فيمـا حـدث، نحـاول استيعابـه أو تجنّبـه، حين جاءنـا نائـبُ المحافـظ ليخبَرنـا بجوهـرِ المشـكلة، قـائلًا: أنتـم الآن تعملـون في منطقـةٍ مكشـوفة تمامًـا، وهـو مـا سيتسبّـب لكـم في العديـد مـن المشـكلات.

اقتنعنـا بصـواب رأيـه، فأوقفنـا الطهـي، وقرّرنـا أن نُعيـد ترتيـب أمورنـا مـن جديـد، وتواصلنـا كذلـك مـع القبائـل لدعمهـم، على أن يتولّـوا الطهي وتوزيـع الوجبـات بأنفسـهم على أبنـاء القبيلـة، وعُدْنـا كذلـك إلى الطهي بأنفسـنا، وكنّـا نعمـل على زيـادة الكميّـة في كل مـرّة، فبعـد أن بدأنـا بخمسـة براميـل فحسـب، تمكنَّـا مـن مضاعفتهـا حتى وصلـت إلى أربعـةٍ وستين برميـلًا، فلـم يعـد يأتينـا مَـن يطلـب وجبـةً فلا يجدهـا.

لكـن لـم يكـن الطعـامُ هـو كل شيء، بالطبـع كان الطعـام هـو أهـمّ مـا ينقـص الأهـالي، لكـن بعـد أن تمكنّـا مـن تلبيـة احتياجاتهـم مـن الطعـام، كنّـا نظـنّ أن الوقـت قـد حـان لتلبيـة احتياجاتهـم الأخـرى، فالأطفـال عـراة، والرجـال بالـكاد يجـدون مـا يسـترون بـه أجسـادهم، فاتّجهنـا إلى تـوفير الملابـس وتوزيعهـا على المحتـاجين، ولـم نكـن نتصـوّر حجـم السـعادة التي غمرتنـا لمّـا بدأنـا نشـاهد الأهـالي وقـد وجـدوا طعامًـا يكفيهـم وملبسًـا يسـتر عوراتهـم، فقـد شـعرنا لوهلـةٍ بأننـا قـد أنجزنـا شيئًـا مـا بحـقّ، ذاك الشيء الـذي كان بالإمـكان ألّا يتـمّ لـولا وجودنـا هنـا، وتيقّنـا أن اللـه هـو مَـن اسـتخدمنا لقضـاء حاجـة هـؤلاء النـاس، لا لأنهـم يحتاجوننـا فحسـب، بـل لأننـا نحتاجهـم أيضًـا.

السودان - بور سودان ١٩٨٥م

ثمّة شعور داخلي يتنامى مع كل يوم جديد، فلم أعد موظّفًا يتقاضى راتبه فحسب، بل أنا هنا لهدفٍ نبيل، وسأبقى إلى جوار هؤلاء الأهالي لأساعدهم بما أستطيع، فهذا الشعور عرّفني على جانبٍ فيّ لم أكن أعرفه، إذ شعرت بلذّة العيش وأنا أساعد الآخرين، لا من أجل نفسي فحسب،بل صرتُ مستعدًّا لأقضي وقتاً أكثر بطيبِ خاطرٍ في سبيل إنقاذهم.

كنّا نسعى في كل السبل، ونحقّق نجاحًا واضحًا، سواء في تقديم المساعدات العينيّة، أو في إنشاء معسكر اللاجئين خارج المدينة، لذا لمّا زارنا وفدٌ من المملكة برئاسة معالي الدكتور حمد الصقير رئيس الهلال الأحمر السعودي، وبرفقتِه العميد إبراهيم سليمان، عرضنا على الوفد ما أنجزناه منذ وصولنا وما نخطّط لإنجازه مستقبلًا، وقد أعجبهم ما سمعوه منّا وما وجدوه على أرض الواقع من خطواتٍ ملموسة، وتيقّنوا أننا مجتهدون وخطواتنا جيدة في هذه المهمّة، حتى أن معالي الدكتور حمد الصقير نفسه قال لي: جهد تشكر عليه، ثم كرّرها ثانيةً، فأجبتُه: هذا واجبي، وأنا هنا موظّف أؤدي مسؤولياتي، ولا أنفّذ سوى تعليماتكم.

عاد الوفدُ إلى المملكة راضين عن هذه الزيارة، وأتصوّر أن أحاديثَ كثيرةً قد تمّت هناك بشأن نجاحنا في السودان الشقيق.

في تلك الأثناء وصل فاعلُ خيرٍ سعودي اسمه: تركي التركي يحمل معه زكاةَ مالٍ، قد سلّمها له الشيخ صالح الراجحي، وهو أحد التجّار البارزين في المملكة، وقد أوكل إلى الشيخ تركي التصرّف فيها وفقًا لخطابٍ رسميّ سلّمه إلى السفير السعودي في السودان.

وكان الشيخ تـركي ينـوي توزيـع هـذه الـزكاة يـدًا بيـدٍ، ولـم تكـن لدينـا فكـرة عـن حجـم المـال الـذي معـه، ولـم يكـن ذلـك ضمـن مهامّنـا، لكننـا قرّرنـا مسـاعدته، فاجتمعنـا مـع المسـؤولين؛ لتـوفير مشرفٍ يتـولّى توزيـع المـال، واقترحنـا على الشـيخ تـركي أن يُسـلّمَ الـزكاة للنسـاء؛ لأن ذلـك يضمـن وصـول المـال إلى الأسرة مبـاشرةً.

ممّا علمناه من دراستِنا لأحوال الجنينة هو دخل الفرد، فقد كان متواضعًا، ولا يزيد عـن خمسـةٍ وعشريـن جنيهًـا في الشـهر الواحـد، في حين كان يمنـح الشـيخ تـركي الفـردَ عشرة جنيهـات وربمـا خمسـة عشر جنيهًـا، وقـد تصـل إلى ثلاثين أو أربـعين أيضًـا، ولـم يكـن أهـل الجنينـة على درايـةٍ بما يحـدث، فلـم يـأتِ في اليـوم الأول سـوى عـددٍ محـدود مـن الأهـالي، وكان يـوزّع المـال عليهـم حسـب حالتهـم، لكـن مـع انتشـار الخبر في البلـدة، احتشـد النـاس في اليـوم التـالي رغبـةً منهـم في الحصـول على المـال الـوفير الـذي يُغدقـه الشـيخ بلا حسـاب، بـل صـاروا يخيّمـون مـن حولنـا، ولـم تكـن لديهـم نيّـةٌ للرحيـل قبـل أن يأخـذوا نصيبهـم مـن هـذا المـال.

كنّـا قـد أُبلغنـا مسـبقًا بحظـر توزيـع الأمـوال، لـذا حين جاءنـا الشـيخ، اتّجهنـا مبـاشرةً للتنسـيق مـع الحكومـة السـودانية، مـع المديـر الإداري ونائـب المحافـظ واثنيْـن مـن الأعيـان ومديـر الشرطـة، واسـتقبلوا عرضَـه بترحيـبٍ كـبير، لكـن حين خرجـت الأمـور عـن السـيطرة، وتسبّـب مـا فعلـه في إربـاك الأمـن، كنّـا نتوقّـع أن نتلقّـى اللـوْمَ؛ لأننـا سـمحنا بذلـك منـذ البدايـة، وكان يجـب أن نردعَـه، خاصّـةً أنـه اسـتنزف أمـوال مصرف الوحـدة بالكامـل.

ولـم يكتـفِ بمـا فعلـه في الجنينـة، فاتّجـه كذلـك إلى نيـالا؛ حيـث مكـث بهـا يـوميْن تقريبًـا، وواجـه صعوبـةً في توزيـع المـال قبـل أن يعـودَ مجـدّدًا إلى الجنينـة، ولـم يكـن مـن الممكـن أن نسـمحَ لـه بتكـرار مـا حـدث في المـرّة الأولى، فتصدّينـا هـذه المـرة لمحاولتِـه، ونصحنـاه بالسـفر إلى الخرطـوم، ولـم يكـن لدينـا موقـفٌ ضـدّه، فقـد كان رجلًا طيّبًـا يحـاول فعـلَ الخـير على طريقتـه، لكـن كانـت لدينـا مشـكلة مـع هـذه الطريقـة، فحتى بعـد رحيلـه، لـم نتمكّـن مـن إقنـاع المتجمهريـن بالعـودة إلى بيوتهـم، فقـد مكثـوا أمـام بيتنـا يطالبـون بالمـال، حتى تعـذّر علينـا الدخـول إلى بيتِنـا أو ممارسـة أعمالنـا، فاضطررنـا عندئـذٍ إلى تغـيير سـكننا والانتقـال إلى بيـت جديـد، صحيـح أنـه أفضـل، لكنـه كان أبعـد.

واضطـررتُ بعـد هـذه الحادثـة إلى العـودة على متن الطائـرة التي وصلتنـا حاملـةً المسـاعدات إلى الريـاض؛ لأنقـل إليهـم الصـورة كاملـة، وهنـاك التقيـتُ بمسـؤولي الهـلال الأحمـر السـعودي، والذيـن مـا إنْ عرضـتُ عليهـم الأمـر، حتى طلبـوا منّي حضـور اجتمـاع

اللجنـة التنفيذيـة الـذي تصـادف انعقـاده في موعـد وصـولي، وهنـاك عرضتُ أمـام الجميـع مـا عانينـاه جـراء هـذه التجربـة، ولـم يكـن القـرارُ صعبًـا أمامهـم، فقـد اتّفقـوا جميعًـا على حظـر توزيـع المـال تحـت أيّ مسـمّى وبأيّـة وسـيلة كانـت، وأصـدروا توجيهاتهـم بذلـك للسـفارات ومكاتـب الإغاثـة.

كان عـادةً مـا يصلنـا متطوّعـون راغبـون في المشـاركة في العمـل الإغـاثي، خاصّـةً أن محنـة السـودان قـد تركـت أثـرًا في نفـوس الكثيريـن، ووّدوا لـو اسـتطاعوا أن يُشـاركوا في رفـع هـذا البـلاء عـن هـذا البلـد الطيّـب، فقـد جاءنـا مهندسـون وخريجـو جامعـات وشـاركونا في تأسيـس عملنـا في الجنينـة، لكـن في تلـك الأثنـاء انضـمّ إلينـا متطـوّع سـعودي كان شـابًّا متحمّسًـا لا تـزال حيويـة الشـباب تجـري في دمـه، وكنّـا نظـنّ أن هـذا مـا نحتاجـه هنـا في عملنـا، وكان بالإمـكان أن يكـون نافعًـا لنـا، لـولا أن اندفاعـه هـذا قـاده إلى تصرُّفٍ متهـوّر كتـب النهايـةَ لرحلتـه معنـا سريعًـا.

حين يصلنـا متطـوّع جديـد، كنّـا نبـادر بإعطائـه التعليمـات التي يجـب أن يـلتزم بهـا طـوال عملـه معنـا، فقـد كان محظـورًا عليـه التدخُّـل في الأمـور السياسـية أو الدينيـة أو العرقيـة، ولا شيء يخصّـه هنـا سـوى أداء عملـه الـذي جـاء خصّيصًـا مـن أجلـه.

لكـن هـذا المتطـوّع أتى بمـا لـم نتوقّعـه، فقـد ذهـب لـصلاة الجمعـة في مسـجدٍ تابـع للجيـش السـوداني على مقربـةٍ مـن مطـار الجنينـة، ولـم يكـن هـذا الشـاب على درايـةٍ بعـادات وتقاليـد هـذا المجتمع الـذي انخـرط فيـه، وكان لا يـزال يحمـل صـورة مجتمعـه في ذهنـه، وكان يظـنّ أن النـاس كلهـم على شـاكلةٍ واحـدة، فلمّـا دخـل المسـجد ورأى التمائـم والأحجبـة تتـدلّى مـن رقـاب المصلّين، هالَـهُ المنظـر! وشـعر بوجـود خلـلٍ رهيـب، وتوهّـم أن مـن واجبـه إصلاحـه في الحال، لـذا انبرى واقفًـا أمـام جمع المصلّين ليخطـبَ فيهـم بعـد أداء الـصلاة، وبلهجـةٍ رقيقـة عاتبهـم: يـا أهـل السـودان، بلدكـم بلـد الخير، لكـن هـذه التمائـم التي تلبسـونها لا تجـوز شرعًـا، وهـي لا تضرّ ولا تنفـع، فمـا الداعـي لهـا؟

وبالطبعِ لـم يتقبّـل الأهـالي هـذا التمـرُّد على التمائـم التي يؤمنـون بها كل الإيمـان، وسَـرَتْ في المسـجدِ بلبلـةٌ كـبيرة، وصـار الجـدالُ متوتّـرًا ويـوحي بـاقتراب كارثـة، حتى اندفـع جنـديٌّ تتـدلّى مـن عنقـه تميمـة فـوق لباسـه العسـكري، وهتـف بـه: خُـذْ هـذا المسـدّس، وأطلـق عليّ الرصـاص، فـإن قتلتني، فـإني أُشـهد النـاس أني قـد عفـوتُ عنـك، ولا إثـم عليـك، وسينزع هـؤلاء كلهـم تمائمهـم في الحال، لكـن مـاذا إذا لـم تقتلني؟

وأحمـد اللـه على أنني وصلـتُ في التوقيـت المناسـب، فمَـن يـدري؟! مـا الـذي كان سـيحدث لـو تأخّـرت دقائـق فحسـب؟! فسـحبتُ الشـاب على الفـورِ، وخلّصتـه مـن بينِ أيديهـم، وهـم

لا يزالـون منزعـجين ممّـا قالـه، وخرجنـا مـن المسـجد إلى المطـار مبـاشرةً؛ وأجبرتـه على العـودة فـورًا إلى المملكـة، فلـم يكـن بقـاؤه أمـرًا واردًا أو محتـملًا في السـودان بعـد الـذي حـدث اليـوم، والله وحـده يعلـم إلى أيّ مـدى قـد تتعقّـد الأمـور إن تركتُـه هنـا.

رحـل الشـاب يومهـا، لكـن لـم يُمْحَ هـذا الموقـف مـن ذاكـرة مَـن حضروه، فقـد ظـلّ النـاس يتناقلونـه على مـدى اليـومَيْن التاليَيْن، ولـم نكـن ببعيديـن عـن إثـارة هـذا الموضوع في جلسـاتِنا المسـائية؛ فليـس لدينـا آنـذاك أيّـة وسـيلة ترفيـه، فلا شيء يـملأ فـراغ الليـل سـوى حديثنـا المسـائي هـذا، ولـم تكـن في الجنينـة مواضيـعُ أهـمّ مـن هـذا باسـتثناء الجفـاف، لـذا تناقشـنا في هـذه الليلـة عمـا حـدث، وكنّـا مختلفين حـول تصرّفـه، فبعضنـا يـرى أنـه قـد واجـه وحـاول إصلاح الخطأ، وبعضنـا الآخـر رأى أن مـا فعلـه لـم يكـن جـزءًا مـن مهمّتـنا، فنحـن لا نسـتطيع أن نـغيّر معتقداتهم، ولا يجـوز أن نشتبـك معهم إلى هـذا الحـدّ؛ حتى لا نحيـد عـن دربِنـا.

ولـم يقـف الأمـر عنـد هـذا الحـدّ، بـل إن الخبر بلـغ المحافـظ، فقـرّر أن يتدخّـل في هـذا الأمـر، فأرسـل نائبـه؛ ليطلـبني أنـا والطبيـب واثـنيْن آخريْـن مـن فريقِنـا، فقادنـا إلى مـكانٍ على مقربـةٍ مـن المخيّـم، وحين وصلنـاه، كان المحافـظ هنـاك بانتظارنـا، وكان برفقتـه رجـلٌ بـدا أنـه خـبيٌر بالتمائـم كمـا فهمـت، وكان معهـم سلاحٌ نـاريّ وسـكين، وأحضروا خروفًـا وديـكًا، فوضـع الخـبيُر الحجـابَ على الخـروف، ثـم أطلقـوا النـار عليـه طلقـةً تلـو أخـرى دون أن يمسّـه سـوء، بـل إنـه عـرض علينـا أن نجـرّب بأنفسـنا، ثـم عمـدوا إلى السـكّين؛ ليذبحـوه بهـا، لكـن لـم تتمكّـن السـكين مـن حـزّ عنقـه، بـل لـم تجرحـه حتى! ثـم نزعـوا الحجـاب عـن الخـروف، وأطلقـوا عليـه النـار مـرّة أخـرى، فخـرّ صريعًـا مـن الطلقـة الأولى، ثـم كـرّروا الأمـر مـع الديـك، فحاولـوا ذبحَـه، فلـم يتمكّنـوا مـن ذلـك إلّا بعـد نـزع الحجـاب مـن رقبتِـه، ووقفنـا نتأمّلـه كأن على رؤوسـنا الطيَر، لـم يكـن الواحـدُ منّـا قـادرًا على تصديـقِ مـا يـرى، لكنـه حقيقـة أمامنـا، فلـم نكـن نعـرف مـا يتـعيّن علينـا قولـه حينهـا.

وانتـشرت هـذه القصّـة وغيرهـا، وكأن هـذا الحـادث قـد بـثّ رغبـة الحـكي واسـتعادة الحكايـات في نفـوس الجميـع، وكأنـه شرارة أوقـدت كومـةَ قـشٍّ، فصـار كل مَـن في المدينـة يحـكي قصّـة، إمـا حضرهـا بنفسِـه، أو سـمعها مـن آخريـن، فأتـت خطـوة الشـاب المتحمّـس عـلى خـلافِ مـا يتمنّى، فبـدلًا مـن وَأْدِ هـذه الفكـرة، فقـد أحياهـا وجـدّد إيمانهـم بهـا.

لكـن لـم نكـن هنـا مـن أجـلِ هـذا، فـكان علينـا أن نتخطّـى هـذا الموقـف، ونتجاهـل الحكايـات والتلميحـات المتكـرّرة؛ لعـدم إيماننـا بمعتقداتهـم، فقـد كنّـا نوشـك على افتتـاح المخيّـم بعـد أن اكتمـل بنـاؤه رسميًّـا في ٢٩ يونيـه عـام ١٩٨٥م، وبدأنـا بالفعـل في إعداد خطّةٍ

لتسـكينه، لكـن كانـت الأعـداد المتوافـدة للسـكن بـه أكبر بكـثير مـن طاقـة استيعابـه، لـذا رأيْنـا تشـكيلَ لجنةٍ للنظرِ في أمـر الراغـبين في السـكن بهذا المخيّم، فتشـكّلت اللجنـةُ مـن ممثّلين مـن الأهـالي ومـن حكومـة الجنينـة، تلـك الحكومـة التي يرمـز لها أحيانًـا بـالسلطان نسـبةً إلى سلالـة السـلطان عبـدالرحمن، وسرعـان مـا أنهـت اللجنـةُ حصرهـا الأوليّ، وبدأنـا في تسـكين الدفعـة الأولى مـن اللاجـئين.

كانـت كل أسرة تُمنـح كُرنُـك للإقامـة بـه بعـد إجـراء الفحـص الـطبيّ وبعـد عـزل المصابين بالأوبئـة التي انـتشرت خـلال سـنوات الجفـاف، وسرعـان مـا بلـغ مجمـوعُ سـكّان المعسـكر خمسـةَ آلافٍ لاجئ، وهـو الحـدّ الأقصى الـذي قدّرنـا قـدرة المعسـكر على استيعابـه، وكنّـا بالفعـل نتدبّر المـوادّ الغذائيـة اللازمـة لهذا العـدد ونوزّعها عليهم، بـل إن المـوادّ الغذائيـة كانـت تفيـض عـن حاجـة المخيّـم، فنوزّعهـا على القـرى المجـاورة، ونتعمّـد أن نتجنّـب المخيّمـات؛ حتى لا نتسبّـب _دون قصـدٍ منّـا_ في تزاحـم المخيّمـات، فنفضّـل توزيعَهـا على الضـواحي بـدلًا مـن ذلـك، واكتسـب الـهلال الأحمـر السـعودي سـمعةً طيبـةً آنـذاك بالنظـرِ إلى جـودةِ المـوادّ الغذائيـة وكميّاتهـا، إضافـةً إلى تسـليمها يـدًا بيـدٍ، لكـن لـم يمكننـا أن ندّعـي _رغـم ذلـك_ أننـا أنجزنـا عملنـا وأن المعسـكر الآن قـد صـار مكتـملًا تمامًـا؛ فكنّـا لا نـزال نعمـل على تطويـره يومًـا بعـد يـوم، فبدأنـا أولًا بتـوفير مصدرٍ للميـاه بحفرِ بئريْـن ارتوازيـتين، ثـم أنشـأنا خـزّانيْن للميـاه، وثبّتنـا بهمـا مضخّـاتٍ للدفـع، وتطلّبـت هـي الأخـرى مصـدرًا للكهربـاء، لكـن تمكّنـا مـن تـدبيره لهـا، وكذلـك للمسـتوصف وللمنشـآتِ الإداريـة.

ولـم يقـتصر جهدنـا على المخيّـم فحسـب، ففـي هـذه الـفترة تمكّنّـا مـن إنشـاء عيـادة طبيـة في الجنينـة، وعيـادة ثانيـة بكَـسَلا، وثالثـة بدرديـب، ورابعـة ببورتسـودان؛ لتقديـم الرعايـة الطبيـة اللازمـة لـكل مَـن يحتاجها، خاصّـةً في ظـلّ تراجـع الحالـة الصحيـة لكـثير مـن الأهـالي جـراء الجفـاف والجـوع، كمـا كانـت لدينـا فـرقٌ جوّالـة تطـوف بأرجـاء المدينـة ومـا حولهـا لتوزيـع المسـاعدات.

وذات يـوم جاءنـا أحـد أعيـان الجنينـة بفكـرةٍ مقترحًـا أن نـنشئ دارًا لرعايـةِ الأيتـام، قـائلًا: إن كـثيراً مـن الأطفـال التشـاديين يُحيطـون بالمسـجد الكـبير مـن كل جانـب، ويعيشـون على صدقـات المحـسنين، ويتدفـؤون بإشـعال النـار في الإطـارات، فليـس لهـم عائـل، ولايعرفـون مـأوى آخـر.

فرحّبنـا بـه، واسـتمعنا لمـا عرضـه، على الرغـم مـن أن الفكـرة _بالأسـاس_ لـم تكـن جـزءًا مـن خطّتنـا. لكننـا تأثّرنـا بمشـاعر الرجـل، فقـد كان صادقًـا في خوفـه على هـؤلاء اليتامـى، الذيـن لوّنهـم دخـان الإطـارات بلونـه الأسـود ولـوّث صدورَهـم، ولا يسـتبعد أن يكـونَ قـد أثّـر سـلبًا أكثـر مـن ذلـك في أجسـادهم، كمـا نُقـل إلينـا أن اثـنيْن مـن بينهـم مصابـان بالعمـى. كان الرجـلُ عازمًـا حقًّـا على مسـاعدتهم، ولـم يـحضر إلّا لينقـلَ الصـورة كاملـةً إلينـا، وليرى ردّة فعلنـا ومـدى اسـتجابتنا، فـإن لـم نتجـاوب مـع طلبـه، فإنـه لـن يقـف عند هـذا الحـدّ، وسيُسـرع إلى مفوّضيـة اللاجـئين؛ طالبًـا مسـاعدتهم، فلا شيء يعنيـه أكثـر مـن سلامـة هـؤلاء الصغـار.

ولـم نكـن نحـن أقـلّ منـه خوفًـا وإشـفاقًا على هـؤلاءِ، فتحمّسـنا لفكرتـه، واتفقنـا على إنشـاء الـدار، فقـد كان المسـتودع كـبيًرا جـدًّا، وبـه غـرفٌ فارغـة إلى جـوار المخـازن التي نستخدمها في تخزيـن المساعدات، وهكـذا احتضنـت هـذه الـدار الوليـدة هؤلاء المساكين، وعيّنّـا موظّفـتيْن في البدايـة لرعايتهـم، وكنّـا نوفّـر لهـم كل مـا يحتاجونـه، وبدأنـا بتعليـم الأطفـال الذيـن يؤهّلهـم سـنّهم للدراسـة، وخلال شـهرٍ واحـد كان عـدد الأيتـام بالـدار قـد بلـغ خمسـة وثلاثين طـفلًا.

لـم يكـن حماسُـنا لهـذه الفكـرة المفاجئـة غريبًـا أو مسـتهجنًا؛ فقـد كان الغالـب على عملِنـا خلال هـذه الـفترة هـو الاجتهـاد، إذ لـم نَتَـبَنّ منهجيّـةَ المنظّمـات العالميـة التي سـبقتنا في التعامـل مـع هـذه الكـوارث، كالأمـم المتحـدة على سبيـل المثـال، والتي كانـت تعمـل وفـق خطّـة محـدّدة ومعـايير ثابتـة، فكانـت تسـجّل وترصـد، ولديهـا موظّفـون على درجـةٍ عاليـة مـن الكفـاءة، على خلاف موظّفينـا الذيـن لـم يكونـوا على درايـةٍ بهـذا العمـل، ولـم يتلقّـوا التدريـب الـكافي لإنجـازه، فكانـت مسـاعداتنا عشـوائيةً وغير منتظمـة، ولـم نتمكّـن مـن تأسيـس منهجٍ نعمـل مـن خلالِـه، ولـم يكـن لدينـا أيّ سـجلّاتٍ توثّـق عملنـا في هـذه المنطقـة، بـل كنّـا نعمـل كيفمـا اتفـق ووفقًـا لمعطيـات كل صبـاح جديـد.

وقـد عانيـتُ مـن هـذه العشـوائية، وشـعرت بـأنني مجبٌر دومًـا على التعامـل مـع الآثـار المدمّـرة؛ لعـدم احترافيـة فريـق البعثـة، فلـم تكـن حادثـة المسـجد هـذه هـي الأخيرة مـن نوعهـا، ولـم يكـن أفـراد الفريـق قادريـن على الفصـل بين عملِهـم الـذي أتـوا إلى هنـا خصّيصًـا مـن أجـلِ إنجـازه، وبين معتقداتهـم الشـخصية، على الرغـم مـن التأكيـد المسـتمرّ أن مهمّتنـا إنسـانية ولا علاقـة لهـا بالعقائـد والأفـكار، لكـن لـم يكـن أحدهـم يسـتمع، فكثيًرا مـا كانـت تطغـى عليهـم توجّهاتهـم الشـخصية، فينسـون طبيعـة عملهـم ودورهـم في هـذا المجتمـع.

لـم أكـن حـاضرًا حين قـرّر الدكتـور نـادر أن يحـول بين أسرةٍ بريطانيـة وبين تـبنّي طفـلٍ سـوداني اسـمه: جمعـة، وهـو طفـل يتيـم عمـره سـبع سـنوات تقريبًـا، قادتـه الظـروفُ إلى التعـرُّف على الـزوجيْن الإنجـليزييْن اللذيْـن كانـا يعـملان مـدرسين بالسـودان، وانتهـت فترة تكليفهمـا، فقـرّرا أن يعـودا إلى بريطانيـا، لكـن كان عليهمـا أن يعتنيـا بهـذا المسـكين الـذي ليـس لديـه مَـن يرعـاه، وكان الزوجـان قـد تعلّقـا بـه بالفعـل بعـد أن عـاش معهمـا لعـامين تقريبًـا، أجـاد خلالهمـا الإنجليزيـة، لـذا قـرّرا أن يتبنّيـا جمعـة، لكـن شـيخًا اسـمه الشـيخ مـدني، وهـو إمـام مسـجد، أقنـع الدكتـور نـادر أن تبنّيـه مـن أسرة أجنبيـة يـعني تنـصيره، فقـرّر نـادر أن يمنـع ذلـك بـأيّ شـكل، على الرغـم مـن أن الأسرة الإنجليزيـة كانـت

قـد اسـتخرجت جـواز السـفر، وحصلـت على التصاريـح اللازمـة، لكـن نـادر لـم ييـأس، حتى وصـل الأمـر للمحكمـة، وهنـاك عـرض نـادر أن يتكفّـل بالطفـل إلى أن يتـمّ عامـه الثامـن عشر، لكـن القـاضي اعترض؛ لعـدم وجـود مَـن يرعـاه خلال هـذه الـفترة، لكـن الشـيخ مـدني سـاعده في العثـور على أسرةٍ تحتضـن هـذا الطفـل، فيمـا يتكفّـل نـادر بنفقاتِـه، وحينهـا، وافـق القـاضي ومنـع الأسرة الإنجليزيـة مـن اصطحـاب جمعـة في سـفرها، ولـم أحـبّ أن نسـلكَ هـذا المسـار خلال عملنـا بالجنينـة، فقـد كان علينـا أن نحيّـد أفكارنـا، وأن نركّـز على إنجـاز مهمّتنـا فحسـب، لكـن لـم يكـن مـن سبيـلٍ لتحقيـق ذلـك، على الأقـل فقـد وجـد هـذا اليتيـم مَـن يرعـاه حتى بلـغ الثامنـة عشرة مـن عمـره، والتحـق بالجامعـة.

ربمـا انشـغلتُ بالتفكير في أفعـالٍ كهـذه لشـدّةِ مـا أزعجـتني، لكـنني أبـدًا لـم أنشـغل بهـا عـن واجبي، فقـد كان السـودان يعـاني تحـت وطـأة الجفـاف، يكفـي أن يـرى المـرء حسرةَ الأهـالي بعـد أن يمـرّ يـوم جديـد دون أن تهطـل الأمطـار التي ينتظرونهـا، ثم هـا هـم اللاجئون يتدفّقـون يوميًّـا على السـودان مـن الـدول المحيطـة بـه، كنهـرٍ هـادر بلا توقُّـف، حتى صـار هـذا البلـد يحمـل فـوق ظهـره أكثر ممّـا يسـتطيع، لكنـه يـأبى السـقوط.

كان هـذا العـبء يـزداد يومًـا بعـد يـوم، فبحسـب تقديـرات اليونيسـيف يواجه خطـر المجاعة مـن مليـون إلى سـتّة ملايين طفـلٍ خلال هـذه الـفترة، بالإضافـة إلى خطـر سـوء التغذيـة الـذي يواجـه عـددًا هـائلًا مـن الأطفـال، مـن سـنّ السادسـة وحتى الثانية عشرة.

كان الوضـع مأسـاويًا، لكننـا لـم نتخـلّ عـن الأمـل، فقـد اسـتمرّ عملنـا رغـم المعوّقـات والإحباطـات كلهـا التي في بورتسـودان وكسـلا والجنينـة، ولـم نكتـفِ بهـذا النطـاق، بـل عملنـا على توسـعته، حتى بلغنـا مناطـق الهواويـر في الإقليـم الشـمالي، وكذلـك إقليـم كردفـان، إضافـةً إلى عملنـا في توزيـع المسـاعدات على القـرى والخلاوي ودور المسـنّين المحيطـة بالخرطـوم، وكنّـا نشـعر بـأن ثمّـة رغبة داخـل أرْوِقَة بعض المسـؤولين السـودانيين في إحباطِ سـعينا هـذا، فبعـد أن نسّـقنا معهـم الموقـعَ المناسـب لإنشـاء المخيّـم، عـادوا ليُطالبونـا بنقلِـه بعيـدًا عـن المدينـة؛ بحجّـةِ أن قربـه مـن المدينـة تسبّـب بالعديـد مـن المشـكلات، ولـم يكـن ذلـك ممكنًـا في نظرنـا، وحاولنـا أن نعـرضَ أمامهـم الصعوبـات التي تتمثّـل في هـذا الاقتراح، ثـم عـادوا ليُخبرونـا بـأن بعـض سـكّان المخيّـم هـم مـن أهـالي الجنينـة، وأن لديهـم بيوتًـا بهـا، فأجبناهـم بأننـا لا نعلـم شيئًـا عـن ذلـك، وهـم أدرى بـه منّـا، ولا نسـتطيع التدخّـل في أمـورٍ كهـذه، وفوّضناهـم في اتّخـاذِ مـا يرونـه مناسـبًا، ثـم عـادوا ليخبرونـا بـأن التكـدّس داخـل المخيّـم قـد تسبّـب في تراكـمِ المخلّفـات وانتشـارِ الأوبئـة والأمـراض، بالإضافـةِ إلى

المخاطر البيئية، فعرضنا عليهم أن يقدّموا لنا خطّتَهم؛ لمواجهةِ هذه الكارثة، فالأوبئة والأمراض لن تنحصر داخل المعسكر، بل ستنتقل إلى سكّان المدينة كذلك، وكنّا على أتمّ استعدادٍ للتعاون في تنفيذ هذه الخطّة.

والحقيقة أننا لم نكن نفهم سرَّ هذه المطالبات المتتالية، وتضييق الخناق على عملِنا، وكنّا نتواصل دون أن نصل إلى شيء محدّد، إلى أن دُعينا إلى اجتماع اللجنة يوم الأحد التاسع عشر من يونيه برئاسة نائب المحافظ، وبحضور أعضاء مجلس المنطقة، وفي هذا الاجتماع أعاد المسؤولون طلبَهم الأول بنقلِ معسكر ديسه إلى مكانٍ آخر بعيدٍ عن المدينة؛ لما تسبّب به من انتشار تجارة السلاح والمخدِّرات وأمور غير أخلاقية، وهو انفلاتٌ تعجز الشرطةُ عن السيطرة عليه ولو بألفِ جنديّ على حدّ تعبير مدير شرطة شمال دارفور، وأمام إلحاحِه نجح في انتزاع تأييد المدير الإداري دون أن يُشارك في التعليق على هذا الاقتراح، لكنني عارضتُ هذا الاقتراح مجدّدًا كما عارضتُه من قبل، وأعلنتُ أمامهم أن الخللَ يكمن في عدم قدرتنا على التكفّل بأكثر من العدد المتّفق عليه من البداية، وهو خمسة آلاف لاجئ، وقد تخطّينا هذا العدد بكثير، بل إنني _أمام إصرارهم هذا_ قد أبديْتُ موافقةً مبدئيّة على نقل المعسكر، شريطة أن يتمّ نقله إلى منطقة أخرى غير الجنينة، لكن نائب المحافظ تدخّل وقرّر الإبقاء على المعسكر في مكانه، كما ألزم الشرطةَ بالتدخُّل في تقنين العدد، وحصر الأهالي الأكثر تضرُّرًا، وتسليمهم إلى الهلال الأحمر السعودي؛ ليتكفّل بهم ضمن معسكر ديسه.

ثـم طلـب نائـبُ المحافـظ مـن أمين عـام الحـزب الاشتراكي أن يُـدلي برأيـه السـياسي في وضـع ديسـه، وكان يـرى أن الوضـع الحالي يُعطـي انطباعًـا بوجـود شيءٍ مـن التحـدّي مـن قِبـل المواطـنين، بدليـل تزايـد أعدادهـم على الرغـم مـن مطالبتهـم عبر مـكبّرات الصـوت بعـودة أهـل المدينـة إلى بيوتهـم، حتى أن بعـض مَـن أعلنـوا أنفسـهم مسـؤولين عـن هـذا التمـرّد، قالـوا إنهـم لـن يعـودوا إلى بيوتهـم وإن ماتـوا جوعًـا في ديسـه، إضافـةً إلى تهديـد بعضهـم بحـرق المعسـكر السـعودي!

فنفيـتُ مسـؤوليتنا عـن ذلـك كلـه؛ فالتجمّعـات الخارجيـة غير محسـوبةٍ علينـا، ولا نُسـأل إلّا عـن الخمسـة آلاف لاجئ الذيـن تعهّدنـا برعايتهـم، ونحـن غير معـنيّين بالشـقّ الأمني، فـإن كان أحدهـم ينـوي إحـراق المعسـكر، فـإن حمايـة المعسـكر والأرواح التي بداخلِـه تقـع على عاتـق هـذا المجلـس، وهـي النقطـة التي أيّـدني فيهـا نائـبُ المحافـظ والمديـرُ الإداري، وانتهـى الاجتمـاعُ وقـد واجهـتُ هـذه الأكاذيـب والاتّهامـات، بـل وانـتصرتُ عليهـا أيضًـا، فكانـت نتائجـه إيجابيـة على خلافِ مـا توقّعـت، فصـدرت التعليمـات أن يعـودَ التسـجيل داخـل المعسـكر بعـد أن تـمّ إيقافـه مسـبقًا بنـاءً على تعليمـات المسـؤولين الحكوميين، وجـرى عـزل الخمسـة آلاف الذيـن سيبقـون داخـل المعسـكر، وتوزيـع البقيّة على معسـكراتٍ أخـرى، فأُرسـل اللاجئـون التشـاديون إلى معسـكر هيئـة الأمـم المتحـدة، وأُرسـل البقيّـة إلى الشـمال وديارتـا، حيـث سيُقام معسـكرٌ آخـر للعمّـال.

لكـن بمـرور الأيـام، ومـع هبـوط المطـر مجـدّدًا، تضرّر جـزء كـبير مـن المعسـكر، واضطررنـا إلى نقـل المتضرّريـن إلى (عيـش بـرا)، ثـم تعـذّر اسـتكمال العمـل في الجنينـة، فقـد كانـت الحيـاة تعـود رويـدًا رويـدًا إلى طبيعتِهـا، فنقلنـا المعسـكر أو مـا تبقـى منـه خارجهـا، ومـع قـدوم شـهر يونيـو عـام ١٩٨٦م تقـرّر إغلاق المعسـكر بالكامـل بعـد أن انتفـت الحاجـةُ مـن وجـودِه، وكان الغـرض الـذي دعانـا للإقـدام على ذلـك هـو دفـع النـاس للعـودة إلى أراضيهـم، والاشـتغال بالزراعـة، فتـمّ توزيـع السـكّانِ، وإعادتهـم إلى أراضيهـم التي كانـوا يسـكنون بهـا قبـل السـكن في المخيـم.

واتّفقنـا كذلـك على أن يتـمّ نقـل المسـتوصف _الـذي كان مقامًـا داخـل المعسـكر_ إلى داخـل المدينـة؛ للاسـتمرار في تقديـم الخدمـات الطبيـة لسـكّان الجنينـة.

لكـن تبقّـت مشـكلة دار الأيتـام، فقـد كانـت الـدار جـزءًا مـن المسـتودع الـذي قرّرنـا أن ننهـي تعاقـدَه مـع مالكِـه مصطفـى النفـار، وهـو واحـد مـن أعيـان الجنينـة، ولـه قصّـة، إذ حكى لي أنـه أول مَـن تنبّأ بالجفـاف، فهـو يملـك معصرةً، ولاحـظ أن المحاصيـل التي وردتـه

في عـام الجفـاف لـم تكـن أكثر مـن ثلاثين بالمئـة مـن المحاصيـل التي تصلـه كل عـام، وعلى الفـور اتّجـه إلى الحكومـة، وأطلعهم على مـا وجـده، ومـن ثـم تـمّ إصدار إعلانٍ رسـميّ بتعـرُّض السـودان للجفـاف.

لكـن إن أنهيْنـا التعاقـد وسـلّمنا المسـتودع، فأيـن يذهـب هـؤلاء الأطفـال؟ فتفاهمنـا مـع الحكومـة؛ بحثًـا عـن حلـول، وقـد سـاعدتنا على التواصـل مـع ذويهـم، وأقنعناهـم باسـتعادة أطفالهـم، لكـن تبقّـى لدينـا سـتّة أطفـال لـم نتمكّـن مـن العثـور على أقـارب لهـم، ولا أحـد لديهـم ليرعاهـم، وليـس في الجنينـة دار أيتـام أخـرى، فقرّرنـا أن ننقلهـم إلى الخرطـوم، ونتكفّـل بنفقاتِهـم حتى يبلغـوا عامهـم الثامـن عشر.

وأذكـر مـن هـؤلاء طـفلًا واحـدًا بالتحديـد، أحضره بعـض الأهـالي عنـد تأسيـس الـدار، وقالـوا إنهـم قـد عثروا عليـه مربوطًـا بشـجرة، ولمّـا سـمعوا بـدار الأيتـام التي أنشـأناها، أحضروه إلينـا، ولـم يكـن مـن بينهـم مَـن يعـرف أهلًا لهـذا الطفـل، فقرّرنـا أن نرعـاه، واسـتضفناه في بيتِنـا في اليـوم الأول وأطعمنـاه، وكان زميلي عبـدالله الخـزام يـخبرني بأنـه يـأكل بشراهـة، وكأنـه قـد حُـرم طـويلًا مـن الطعـام، وفي اليـوم التـالي سـلّمناه لـدار الأيتـام، ولمـا أُقفلـت، نقلنـاه مـع آخريـن إلى الخرطـوم، وقـد أسـميناه: شـجيرة.

هكـذا كُتبـت كلمـة النهايـة لعملِنـا في الجنينـة، وأدرك الآن حجـم العمـل الـذي أنجزنـاه، على الرغـمِ مـن قلّـة خبرتنـا وكثـرة أخطائنـا وعـدم إلمامنـا بمتطلّبـات العمـل الإغـاثي، فـأرى أننـا قـد أنجزنـا شيئًـا مهمًّـا في هـذه السـنوات، فقـد اسـتفادت ٧١٤ ألـف أسـرة سـودانية مـن المسـاعدات السـعودية حتى عـام ١٩٨٦م.

واصلنـا العمـل الإغـاثي بعـد هـذا العـام، وطرقنـا أبوابًـا جديـدة في شـندي ومـا حولهـا في الإقليـم الشـمالي، وفي الأبيـض والنهـود في إقليـم كردفـان، وفي نيـالا ومـا حولهـا في جنـوب دارفـور، وفي الدويـم بالإقليـم المتوسّـط، وفي بربـر بشـمال السـودان، وكنّـا نواجـه صعوبـات متزايـدة يومًـا بعـد يـوم، فقـد انقطـع توريـد الأغذيـة في الربـعِ الأول مـن العـام، وتوقّفـت طائـراتُ الشـحن التي كانـت تصلنـا في الجنينـة مـرتين أسـبوعيًّا لسـتّة أشـهر كاملـة، ثـم عـادت بعدهـا لتصلنـا مـرّة واحـدة أسـبوعيًّا، كمـا أننـا بدأنـا نعـاني أزمـةً أخـرى في النقـل الـداخلي، فإجمـالًا كان عملنـا في طريقِـه إلى النهايـة.

أمـا أنـا.. فقـد انتهى عـملي في السـودان قبـل ذلـك بكـثير؛ فقـد غـادرتُ السـودان في شـهر إبريـل عـام ١٩٨٥م، بعـد أن قدّمـتُ مـا لـديّ كلـه، ولـم يكـن مـن وراء ذلـك سـوى الرغبـة في تقديـم يـد العـون لمَـن يحتاجونهـا.

لقد قوبِلَ عملي ـ بفضل الله ـ بالاحتفاء والتقدير في كلٍّ من السودان والسعودية، ولا سيّما أنه نال رضى معالي الدكتور حمد الصقير رئيس الهلال الأحمر السعودي، الذي عيّنني منسّقًا للإغاثة السعودية، وعهد إليّ بإدارة مكاتب الهلال الأحمر السعودي والإشراف عليها، وهو العمل الذي أمضيتُ فيه ستّ سنواتٍ كاملة، قبل أن يتمّ حلّ اللجنة المركزية للإغاثة واستبدالها بعدّة لجانٍ أخرى.

ولم أتوقع أن أعودَ إلى السودان مرّة أخرى بعد هذه السنوات كلها، لكنني عُدْتُ هذه المرّة عام ١٩٩٠م؛ لتصوير فيلم وثائقي عن عمل الهلال الأحمر في السودان خلال فترة الجفاف، ولسوء الحظّ، فإن عملنا في الجنينة كان قد انتهى بالفعل بعد أن اجتازت محنة الجفاف القاسية هذه، لذا فلم يكن أمامنا إلّا الخرطوم وبورتسودان وكسلا، وكانت وسائل الإعلام السودانية مهتمّة بعملِنا هذا، وتغطّي أنشطتَنا، وأجرى التلفاز السوداني مقابلتيْن مصوّرتيْن معي ضمن هذه التغطية الإعلامية، كما أجريتُ عدّة لقاءاتٍ أيضًا مع التلفاز السعودي.

السودان - الجنينة ١٩٨٥م

الصومـــال

ـ الزيارة الأولى ـ

أخيرًا.. أُسـندت إليّ مهمّـة جديـدة، إذ كُلِّفْـتُ بفتـح مكتـبٍ للـهلال الأحمـر السـعودي في النيجـر، لتكـونَ بذلـك محـطّتي الثانيـة في العمـل الإغـاثي.

كنـتُ متحمّسًـا للغايـة لاستئنـاف العمـل الإغـاثي بعـد فترة توقُّـفٍ قضيتُهـا في الريـاض، لـذا سـارعتُ بإعـداد الفريـق وتجـهيز أغـراضي ومتعلّقـات السـفر، حاولـتُ في البدايـة أن أسـافر عـن طريـق إثيوبيـا، لكـن هـذه المحاولـة لـم يُكتب لهـا النجـاح، إذ فشـلتُ في الحصول على موافقةٍ مـن إدارة الجـوازات، فاتخـذت قـرار السـفر عـن طريـق الجزائـر، وسـلكتُ طريـق الإجـراءات المتعثّر، إلى أن تمكّنـتُ مـن السـفر على متن الخطوط الجزائريـة إلى باماكـو، على الرغـم مـن الإجـراءات المشـدّدة في تلـك الأيـام.

والنيجـر هـي إحـدى دول غـرب أفريقيـا، تمتـاز بكونهـا صحراويـة داخليـة، وتعـدّ مـن دول مـا يُعـرف الآن بالسـاحل الإفريقـي، وهـي إحـدى أفقـر دول العالـم وأقلّهـا نمـوًّا على الإطلاق، إذ تغطّـي الصحـراء ٨٠٪ مـن إجمـالي مسـاحتها، في حين تواجـه المسـاحة المتبقّيـة مخاطـر مناخيـة أخـرى، مثـل: الجفـاف والتصحّـر.

تقع النيجـر إلى الجنـوب مـن ليبيـا والجزائـر، وقـد كانـت مـعبًرا للقوافـل التي تمـرّ بواحاتِهـا الشـهيرة في: جـات وغـادس، وخضعـت للاحـتلال الفـرنسي حتى تأسيـس الجمهوريـة عـام ١٩٦٠م، حين تـولى هامـاني ديـوري رئاسـة الجمهوريـة لمـدّة خمسـة عشر عامًـا تقريبًـا، حتى واجهـت الـبلاد أزمـة جفـافٍ قاسـية، تزامنـت مـع تزايـد القمـع مـن جانـب الحكومـة تجـاه المعارضـة، الأمـر الـذي أدّى إلى قيـام انـقلاب عسـكري بقيـادة رئيـس الحكومـة آنـذاك العقيـد: سـاني كونتشـيه، حيـث كتـب على يـده نهايـة نظـام ديـوري، وتـولّى كونتشـيه الحكـمَ، وعاشـت الـبلاد تحـت الحكـم العسـكري حتى وفاتـه، والتي أعلـن بعدهـا قيـام الجمهوريـة الثانيـة في النيجـر.

ومثلمـا حـدث في السـودان، فقـد سـبقنا فريـقٌ استطلاعي إلى النيجـر؛ ليـدرسَ أبعاد المأسـاة التي تعانيها

الـبلاد جـراء أزمـة الجفـاف، قبـل أن يقـدّم هـذا الفريـق تقريـرَه إلى الـهلال الأحمـر السـعودي، ومـن ثـم يقـرّر الـهلال الأحمـر إرسـال بعثـةٍ إغاثيـة إلى النيجـر تحـت قيـادتي، ومـن جانبِهـا فقـد رحّبـت النيجـر بالـهلال الأحمـر السـعودي على أراضيهـا، واسـتعدّت لاسـتقبالِنا.

وصلـتُ إلى نيامـي عاصمـة النيجـر برفقـةِ زميلي عبـدالعزيز الرجيعـي، واسـتقلّينا سـيارة أجـرة حتى فنـدق جرانـد أوتيـل، فأقمنـا في هـذا الفنـدق المتواضـع ذي الـثلاث نجـوم أو ربمـا أقـل، ومـن هنـاك تواصلنـا مـع السـفارة السـعودية؛ لإعلامِهـم بقدومِنـا ولترتيـب موعـدٍ لمقابلـة السـفير غسـان الـرشراش، فكانـت هـذه المقابلـة في اليـوم التـالي مباشـرةً، حيـث اسـتقبلنا السـفير في مكتبِـه بحفـاوةٍ باديـة تعلوهـا ابتسـامته، ودعانـا للجلـوس، وعلى الفـورِ تطرّقنـا لمناقشـة برنامجنـا الإغـاثي في النيجـر، والـذي يرتكـز على اتفاقيـةٍ موقّعـة مـع حكومـة النيجـر، وكانـت اللجنـة قـد اتفقـت بالفعـل على إرسـال المسـاعدات مـن المملكـة مـن خـلال أحـد رجـال الأعمـال المهتمّين بالعمـل الإغـاثي وهـو سـعيد غـدران، والـذي تكفّـل بتـوفير المُؤَن والإمـدادات، وبإرسـالها إلى كلٍّ مـن النيجـر ومـالي، وقـد وصلـت هـذه المسـاعدات بالفعـل، وتـمّ تخزينهـا في نيامـي، وكان على السـفارة – حينهـا – أن تتـولّى مهمّـةَ التنسـيق بيننـا وبين حكومـة النيجـر لتفعيـل الاتفاقيـة المبرمـة بيننـا، ولتمكيننـا مـن اسـتلام المسـاعدات وبـدء ترتيبـات العمـل الإغـاثي، لكـن يبـدو أن محـاولات السـفارة المتواصلـة قـد بـاءت بالفشـل، فقـد مـرّ أسـبوع دون التوصّـل إلى أيّة نتيجـة، فاضطررنا إلى الاتصـال بالمـورِّد لدعوتـه للحضـور إلى نيامـي، واسـتجاب بالفعـل لطلبِنـا، ومـن ثـم فقـد طلبنـا معاينـة المـوادّ واسـتلامها، لكـن قوبِـلَ طلبنـا بالرفـض، فقـد كنّـا نسـمع أن المـوادّ مخزّنـة في مسـتودعات الجيـش، وهـو مـا قادنـا إلى سلسـلة لا نهائيـة مـن الاجتماعـات والمباحثـات بين السـفارة السـعودية والمـورِّد وممثّـلي حكومـة النيجـر، وأدركنـا أن الأمـر قـد يطـول قبـل التوصُّـل إلى حـلّ، فأودعنـا العهـدة الماليـة التي بحوزتِنـا في خزنـة السـفارة السـعودية، وانتظرنـا أن تُسـفرَ هـذه المباحثـات عـن نتيجـةٍ مـا، لكـن انـقضى شـهرٌ كامـل دون التوصُّـل إلى حـلّ، وحينهـا نقلـتُ الوضـعَ كاملًا إلى لجنـة الـهلال الأحمـر في السـعودية، واتّخـذت اللجنـةُ قرارهـا بإبقـاء عضـوٍ واحـد فقـط لمتابعـة تطـوّرات الموقـف، على أن أسـافر أنـا إلى الصومـال.

ومـا يُعـرف الآن عـن الصومـال لـم يكـن حقيقـة هـذا البلـد على الـدوام، فالصومـال تحتفـظ في ذاكـرة البشريـة بتاريـخ عظيـم، فحينمـا اشـتد الصـراع بين القرامطـة والخلافـة العباسـية في مطلـع القـرن الرابـع الهجـري وتعرضـت قبيلـة الحـارث ـ التي كانـت تقيـم بسـاحل الخليـج

العـربي قـرب البحريـن ـ إلى اضطهـاد حاكـم الأحسـاء، هاجـرت جماعـة كبيرة منهم على متن ثلاث سـفن، تحـت قيـادة سـبعة إخـوة مـن بني الحارث عـام ٩٠٣م، إلى شرق أفريقيـا ونزلـوا بسـاحل بلاد الصومـال واسـتقروا بـه حتى امتـد نفوذهـم فيمـا بعـد إلى جنـوبي مومباسـا في كينيـا. ومـع وصـول بني الحارث إلى المنطقـة اضطـرت جماعـة الزيديـة التي كانـت قـد سـبقتهم إليهـا، إلى تـرك السـاحل لـبني الحارث والنزوح نحـو أعمـاق الصومـال، وتحالـف بنـو الحارث مـع الصوماليين سـكان البـلاد، وأنشـؤوا مدنًـا عديـدة على مـدى سـنوات متفاوتـة، وأسسـوا فيهـا سـلطنةً اسـتمر حكمهـا طـوال العصـور الوسـطى حتى قـدوم البرتغاليين. فـكان لهـذه الهجـرة أثـر كـبير في تاريـخ الصومـال؛ إذ إنهـا أقامـت سـلطنة مقديشـيو الإسلامية، والتي كان لها نظم سياسية ورسوم إدارية، وأصابت قدرًا عظيمًا من الثروة والازدهار، حتى قال عنها ابن سعيد: «مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة على ألسنة المسافرين». وفي عهد أسرة بني الحارث نمت ثروة مقديشو وازدهرت ازدهارًا منقطع النظير، وكان تجارها أول من وصلوا إلى بلاد سفالة – كما ذكر الإدريسي – واستخرجوا منها الذهب، مما درَّ عليهم أموالًا كثيرةً، استفادوا منها في تطوير مقديشو فحلت المنازل المشيدة بالأحجار على الطراز العربي محل المباني الخشبية والطين.

وكانت مقديشو في عهدهم بمثابة العاصمة لجميع البلاد المجاورة، ومركزًا للمدن العربية الأخرى التي امتدت على طول الشاطئ، فكانت جموع الناس ترد على مقديشو من هذه المدن، فيجتمعون في مسجدها الجامع يؤدون صلاة الجمعة، مما يؤكد أهمية مركز مقديشو الديني والثقافي آنذاك عند سكان الساحل جميعًا، حتى اعتبرت العاصمة الثقافية لساحل الزنج كله، وزعيمة عرب هذا الساحل؛ لما وصلت إليه من قوة ونفوذ، ولما قامت به من دور مهم في نشر العروبة والإسلام.

ولطول مدة حكم هذه الأسرة – الحارثية – فقد كانت لها جهود كبيرة في تعريب كثير من القبائل الصومالية خاصة الساحلية، وارتبطت مع السلطنة تجاريًّا مثل قبيلة الأجوران التي كانت تقيم في الأراضي الواقعة بين نهري جوبا وشبيلي، ولا شك أن هذه العلاقات التجارية لا بد أن تؤتي ثمارها في نشر الإسلام بين هذه القبيلة وغيرها من القبائل الصومالية التي اتصلت بسلطنة مقديشو الإسلامية، وقد أكثرت الأخيرة من إنشاء المساجد التي لا يزال بعضها باقيًا حتى الآن، منها مسجد عبدالعزيز في مقديشيو الذي شُيِّد منذ سبع مئة عام تقريبًا، ولا زال باقيًا إلى الآن.

وقـد اسـتمرت سـيادة سـلطنة مقديشـو على سـاحل بنـادر حتى القـرن السـادس عشر الميلادي، ولكنها تعرضت للخطر البرتغالي، شأنها في ذلك شأن السلطنات الإسلامية المجاورة لها على الساحل الشرقي. فحاول البرتغاليون الاستيلاء على مقديشو لكنهم فشلوا بعدما أظهر الصوماليون صمودًا استثنائيًّا في مواجهتهم، لكن محاولات البرتغاليين ازدادت إصرارًا حتى استنجد الصوماليون بسلطان عمان الذي قام بإرسال أسطول في عام ١٦٥٦م استطاع إبعاد الخطر البرتغالي عن الساحل، وكان ذلك الانتصار بمثابة بداية تحالف مع مقديشو استمر حتى القرن التاسع عشر.

لكن بعد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤م الذي جرى فيه تقسيم القارة الإفريقية بين المستعمرين دون الاعتراف بآدميتهم أو حقهم في تقرير مصيرهم بأنفسهم، باتت الأمة الإسلامية ممزقةً، وتكالب عليها الأعداء من كل حدب وصوب، وتقاسمت دول أوروبا العالم وخاصة العالم الإسلامي، وكانت سلطنة مقديشو من نصيب إيطاليا فاحتلتها عام ١٨٩٢م بعد صفقة مالية أبرمتها مع السلطان العماني، لكن حاول المسلمون الاستقلال، فأشعلوا ثورة تلو أخرى، كان أشهرها: ثورة قبيلة بيمال، وثورة الشيخ حسن برسني، وثورة طَغَحتُور، وثورة السيّد محمد عبدالله حسن، لكن كانت إيطاليا أقوى من ثوراتهم، فتمكنت من قمعها جميعًا. لم ييأس الشعب الصومالي ومضى يواصل ثورته آملًا في استرداد حريته المسلوبة، حتى خرجت إيطاليا من جنوب الصومال في يوليو عام ١٩٦٠م.

وصارت مقديشو عاصمةً للبلاد، وأرستْ الحكومة نظامًا جديدًا، لكن بعد تسع سنين انقلب عليها الجيش بعد أن اغتيل الرئيس: عبدالرشيد علي شرماركي في أكتوبر عام ١٩٦٩م، واستقر لهم حكم البلاد لمدة ٢١ سنة. ذلك هو تاريخ الصومال الذي أعرفه، تاريخ أمة عربية إسلامية عظيمة، كان بإمكانها أن تكون قوة عظمى في هذا الزمان، لكنها – كغيرها من أوطاننا العربية والإسلامية – كانت ضحية الإمبريالية الأوروبية.

كنتُ محبَطًا ممّا آلت إليه مهمّة النيجر، إذ لم أتمكّن من إنجازِ أيّ شيء خلالها، ووَدَدْتُ لو كان بإمكاني أن أستمرّ في المحاولة؛ عسى أن تُكلّل هذه المحاولات بالنجاح في نهاية المطاف، لكن كان لا بدّ من أن أمتثل للتعليمات، ومن ثم فقد أعددتُ نفسي للسفر، وأنهيتُ الإجراءات، وسحبتُ المبلغ المطلوب من المصرف، وسلّمتُ عضو الفريق الذي تقرّر بقاؤه سلفةً من المال، وحجزتُ تذكرتي على الخطوط الإثيوبية، حيث كنتُ مضطرًّا لقطع رحلةٍ من نيامي إلى أديس بابا، ومنها إلى جيبوتي.

حين علمت السفارةُ السعودية بقرار رحيلي، قررت إقامة حفل وداع، ودعتنا لتناول الغداء والاحتفال قبل السفر المقرّر في منتصف الليل، وانتهزتُ فرصةَ انتهاء عملي في النيجر، فسبحتُ في مسبح الفندق؛ آملًا تصفية ذهني وإزالة الضغوطات التي سبّبتها تجربة النيجر المتوتّرة، ثم اتّجهتُ بعدها إلى بيت السفير، وتعرّفتُ يومها على طبيبٍ تونسي يعمل ضمن رابطة العالم الإسلامي، وتحدّثنا مطوّلًا عن عملي وعمله أثناء تناول طعام الغداء وما بعده، ثم ودّعتُه على وعدٍ بلقاء قريب.

لكنني حين عُدْتُ إلى الفندق، شعرتُ بأن أذني مسدودتان، وأنني لا أستطيع احتمال الألمَ الذي بدأتُ أُعانيه قبل يومَيْن، ورغم حرجي، فإنني لم أجد بدًّا حينها من الاتصال بالطبيب التونسي الذي تعرّفتُ عليه للتوّ، لكنه كان ودودًا واستمع إلى شكواي، وتوقَّعَ أن يكون مجرّد ضغطٍ وسيزول ما إن تقلع الطائرة، وتمنّى لي الشفاء والسلامة.

في الثمانينيات كانت المصارف في أفريقيا متواضعة، والحوالات تستغرق شهورًا كاملة قبل أن تصل، خاصّةً في الدول القائمة على النظام الاشتراكي، مثل: إثيوبيا والصومال، لذلك فقد درجت العادة على أن يتسلّم مسؤولو المكاتب العهدةَ المالية نقدًا أو كشيكات سفر، حتى إذا وصل إلى الدولة المنشودة، يشرع على الفور في إنشاء حسابٍ بأحد مصارفها.

وكنتُ أعلم مسبقًا بتشدُّد إثيوبيا والصومال حيال دخول العملات الأجنبية إلى أراضيها، إذ لا بدّ من تعبئة نماذج الإقرار المالي التي توثّق المبالغَ التي يحملها المسافر ويدخل الدولة بها، ومن ثم يحصل على إذنٍ بدخولها.

وصلتُ أديس بابا فجرًا، وسلّمتُ جوازَ سفري، وتلقّيتُ إيصالًا يُفيد باستلام الجواز عند المغادرة إلى جيبوتي، وفي الجمارك قدّمتُ الإقرار المالي، وهي ورقة خضراء وُزِّعت علينا في الطائرة قبل الهبوط، بعد أن دوّنتُ بها ما أحمله من مالٍ، وحينها طلب الموظّفُ المختصّ عرضَ ما لديّ من مالٍ أمامه؛ لمطابقته بالإقرار، وبسطتُ ما معي على الطاولة، وأنا ألحظ وأراقب أعين الناس من حولي، وشعرتُ بالتوتّر من هذه النظرات، خاصّةً أنني سأستقلّ سيارة أجرة إلى الفندق، وخفتُ أن يتبعني أو يتعرّض لي أحدٌ، لذا لم أكن في كامل تركيزي حين تركتُ للموظّف عَدَّ المال وتدوينَه في التصريح الذي سلّمه لي في النهاية، ولم أراجع ما دوّنه في الإقرار، فقد أغلقتُ حقيبتي، وهرولتُ إلى دورة المياه لأتمالك أعصابي وأستعيد تركيزي، فقد كنتُ متوتّرًا وبحاجةٍ إلى الهدوء، ثم خطرت ببالي فكرة قد تساعدني على الوصول إلى الفندقِ بسلام.

لباس الطوارق

فكّـرتُ في تغـيير مظهـري بعـض الشيء، ذلـك أن معـي في حقيبتي ثـوب طـوارق مـع اللثـام كنـتُ قـد اشتريتُـه مـن النيجـر، فلبسـتُه فـوق جلبـابي، وأسـدلتُ غطـاء رأسي، وأدخلـتُ حقيبتي الصغيرة داخـل الحقيبـة الكـبيرة، ومضيـتُ في طريقـي وقـد تـغيّر شـكلي تمامًـا، وحينهـا اسـتطعتُ أن أسـتقلّ سـيارة أجـرة إلى الفنـدق، وصعـدتُ إلى غـرفتي، فألقيتُ بجسـدي فـوق الفراش وتنفّسـتُ الصعـداء.

كنـتُ مجهـدًا للغايـة؛ فلـم أنـم تقريبًـا طـوال الليـل، ولـم أكـن أفكّـر في شيءٍ في هـذه اللحظة سـوى النـوم، لكـنني حين فتحـتُ الحقيبـة ورأيـتُ الرقـم المـدوَّن في الإقـرار ارتعبـت؛ فقـد كان الرقـم أكثر ممّـا حملتـه إلى هنـا بسـتّةِ آلاف دولار، وإن لـم أقدّمها أو أقـدّم مستندًا يثبت جهةَ صرفها أثنـاء خـروجي مـن المطـار، فـإنني سـأكون مُدانًـا بتغذيـة السـوق السـوداء، وهـي جريمـة في إثيوبيـا، سـأقضي عقوبتها داخـل السـجن.

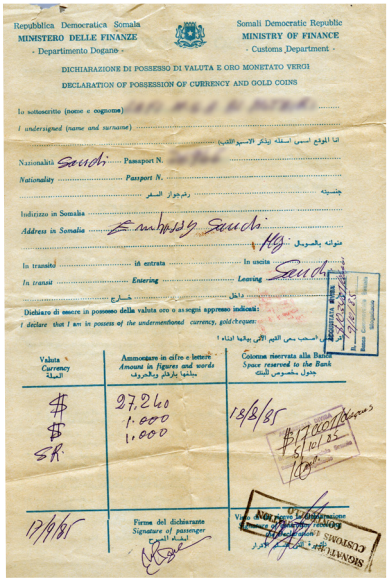

Repubblica Democratica Somala
MINISTERO DELLE FINANZE
- Dipartimento Dogane -

Somali Democratic Republic
MINISTRY OF FINANCE
- Customs Department -

DICHIARAZIONE DI POSSESSO DI VALUTA E ORO MONETATO VERGI
DECLARATION OF POSSESSION OF CURRENCY AND GOLD COINS

Io sottoscritto (nome e cognome) / I undersigned (name and surname)

Nazionalità / Nationality — Passaporto N. / Passport N.

Indirizzo in Somalia / Address in Somalia

In transito / In transit — in entrata / Entering — in uscita / Leaving

Dichiaro di essere in possesso della valuta oro e assegni appresso indicati: / I declare that I am in possess of the undermentioned currency, gold cheques:

Valuta / Currency	Ammontare in cifre e lettere / Amount in figures and words	Colonna riservata alla Banca / Space reserved to the Bank
$	27,240	18/8/85
$	1.000	
SR	1.000	

Firma del dichiarante / Signature of passenger

17/8/85

نموذج الإقرار المالي

لـم أفكّـر حتى في الأمـر، انتفضـتُ مـن مـكاني وارتديـتُ ملابسي، وركضـتُ إلى السـفارة السـعودية، وحين وصلتُهـا، لـم يكـن السـفير موجـودًا، لكـن لحسـنِ حظّـي التقيـتُ المسـؤول الثـاني بالسـفارة، السـيد عبـدالرحمن خلـف الـذي احتفـى بي وهـدّأ مـن روعـي، وحكى عـن رعايـا سـعوديين كُثُر يأتونـه وليـس لديهـم إقـرار، ونسـاعدهم، لـذا لـم يكـن الأمـر غريبًـا أو مفاجئًـا تمامًـا بالنسـبة لـه، ونبرتُـه الواثقـة هـي مـا أذهبـت عنّي خـوفي الـذي ألـمّ بي لمجـرّد التفكير في العواقب التي تنتظـرني.

أخبرني بـأن أول مـا سـنفعله هـو نقـل مقـرّ إقـامتي، فدعـاني إلى بيتـه، وأرسـل موظّفًـا ليحضرَ حقيبتي ويسجّل خـروجي مـن الفندق، وحين وصلـتُ إلى بيتـه، تمكّنـتُ أخيرًا مـن النـوم، ولـم أفـق مـن نومـي إلّا قـرب أذان الـعصر، فتناولنـا طعـام الغـداء، ثـم ذهبنـا إلى مطـار أديـس أبابـا، وقابلنـا مسـؤولًا يعرفـه في قسـم الجمـارك، تكفّـل عبـدالرحمن بشرح مـا حـدث، واسـتمع الرجـل بصمتٍ إلى مـا قيـل كلـه، ثـم اسـتأذن في أن يغيـب عنّـا لدقائـق، ثـم عـاد بعدهـا ليخبَرنـا أن الأمـر مرتّـب، فهـذا شركٌ قـد تـمّ نصبـه لي، وسينتظرونني في موعـدِ رحـيلي المقـرّر في اليـوم التـالي، لـذا لا بـدّ مـن أن نعـدّ خطّـةً مغايِـرة، وأن نحافـظَ على سريّتها.

كانـت خطّـة هـذا المسـؤول تقتضي تبكير موعـد السـفر، فقـد قـرّر أن أسـافر الليلة بـدلًا من الغـد، كمـا تتطلّـب سـداد القيمـة المدوَّنـة في التصريـح، ولـم أفهـم هـذا جيّـدًا، فهنـا كانـت تكمن المشـكلة بالأسـاس، فهـذا المبلـغ ليـس بحـوْزتي لأسـدّده، لكنه وعـدني بأنه سيرتّـب كل شيء.

تـمّ حجـز رحلـة في الفجـر كمـا وعـدني المسـؤول، واتّفـق معـي أن يلتقـيني عنـد مكتـب اسـتقبال الخطـوط الجويّـة الجيبوتيـة في الواحـدة صباحًـا، ونهـاني عـن الإتيـان بـأيّ فعـلٍ مهمـا يكـن بسـيطًا بدونـه.

عُدْنـا إلى منزل عبـدالرحمن، وسـهرنا سـويًّا، ثـم أخـذني سـائقٌ إلى المطـار، وهنـاك انتظـرتُ الرجـلَ كمـا طلـب منّي، فلمّـا رآني، أشـار لي أن أتبعـه، لكنـه كان يـمشي بعيـدًا عنّي، مكتفيًـا بإشـاراتٍ سريعـةٍ تـملي عليّ مـا أفعلـه، سـحبتُ بطاقـة صعـود الطائـرة (البوردنـق)، واسـتخرجتُ جـوازَ سـفري، ومرّرتُ حقـائبي على خـطّ التفتيـش، ثـم وقفـتُ في طابـور مفتّـش النقـد، والـذي اختـاره المسـؤول بإشـارةٍ مـن يـده، وحين جـاء دوري، ناولتُـه التصريـح، وأخـرج المـال وبـدأ يعـدّه، وأظنّـه قـد أطـال العـدّ كـثيرًا، لكنـه في النهايـة ختـم الورقـةَ، ثـم تركتُـه ومضيـتُ في طريقي، وحينهـا قابلني المسـؤول الـذي سـاعدني، واسـتلم منّي خفيـةً المـالَ الـذي أضافـه لمطابقـة الإقـرار، ثـم اختفـى، وغـادرتُ أنـا أديـس أبابـا أخيرًا.

عندمـا صعـدتُ إلى الطائـرة، شـعرتُ مـن جديـد بـآلامِ أذني التي كنـتُ قـد نسيتُهـا؛ بسـبب التوتّـر الـذي سبّبتـه أزمـةُ الإقـرار المـالي، لكـنني تحاملـتُ على نفسي؛ فلـم يكـن أمامـي مـن خيـارٍ سـوى المـضيّ قدمًـا في طريقي، فليـس الوقـتُ ملائمًـا للتوقُّـفِ أو الشـكوى.

حين وصلـتُ إلى مطـار جيبـوتي اسـتقبلني منـدوبٌ مـن السـفارة السـعودية، بعـد أن أبلغهـم السـيد عبـدالرحمن بوصولي مسـبقًا، وقـادني المنـدوبُ إلى فنـدقٍ ارتحـتُ فيـه مـن هـذه الرحلـة الطويلـة والمتوتّـرة، وفي المسـاء عـاد المنـدوب؛ ليصطحبني ويُريني جيبـوتي، ثـم دعـاني لمرافقتِـه إلى المطـار؛ حيـث اسـتقبلنا زميـلًا مـن الـهلال الأحمـر السـعودي، وهـو مكلـفٌ بتـولّي العمـل الإغـاثي في جيبـوتي، وبحوزتـه عقـود النقـل (البوليصـات)

الخاصّـة بشـحن مـوادّ الإغاثـة إلى جيبـوتي والصومـال، واصطحبَنـا المنـدوبُ إلى ضيافـة السـفارة، فتعارفنـا وجلسـنا وتحدّثنـا مطـوّلًا، لكـن ألـم أذني كان يتزايـد حتى صرتُ عاجـزًا عـن احتمالـه، وحينهـا طلبتُ المسـاعدة، فسـألتُ عـن طبيبٍ مختـصّ بـالأذن، فسـألوني عـن موعـدِ سـفري إلى الصومـال، لـم أفهـم سـبب سـؤالهم، لكـنني أجبتُهـم: يـوم الاثـنين السـاعة الحاديـة عشر صباحًـا.

حينهـا أوضحـوا لي أن غـدًا السـبت ومـن بعـده الأحـد عطلـة أسـبوعية، لكـن يمكنهـم حجـز موعـدٍ لي لـدى طبيـب فـرنسي صبـاح الاثـنين.

وأعـدّوا برنامجًـا ليومـي السـبت والأحـد، لكـن كان ألـم أذني يـزداد، فلـم أتمكّـن مـن الاسـتمتاع بالبرنامـج الـذي أعـدّوه لنـا، وفي صبـاح الاثـنين كنـتُ أول مريـضٍ في عيـادة الطبيب الفـرنسي، والـذي بـدا غير متخصّـصٍ في الأذن، لكنـه اسـتطاع تشـخيصي على كل حـال، فقد أخبرني بـأن لـديّ التهابًـا في الأذن، فطلبـتُ منـه أن يصرفَ لي الأدويـة كلهـا التي قـد أحتاجهـا في الصومـال، مـن مضـادّات حيويـة ومسـكّنات ومطهّـرات؛ لأن الوضـع هنـاك _حسـبما قيـل لي_ متـدنٍّ جـدًّا، فالصيدليـات لديهـا عجـز واضـح في الأدويـة المطلوبـة، ومـن ثـم فقـد حملـتُ كميـةً مـن الأدويـة التي وصفهـا لي؛ آملًا أن تكـونَ كافيـةً للتغلُّـب على هـذا الألـم.

ذهبـتُ بعدهـا إلى المطـار، وكان خـطّ سـير رحلـتي على الخطـوط الصوماليـة مـن جيبـوتي إلى هرجيسـا، ثـم إلى مقديشـو، أنهيـتُ إجـراءات السـفر، لكـن الموظّـف أوقـفني؛ لعـدم حصـولي على تـأشيرةٍ إلى الصومـال، لكـنني تمكّنـتُ مـن إقناعـه بـأن لـديّ باخـرة عـرب مـازن تنتظـرني هنـاك، وهـي تحمـل مسـاعداتٍ إغاثيـة، وأطلعتُـه على عقـد النقـل (البوليصـة) الخاصّـة بالشـحن، وهـو مـا يتطلّـب وجـودي هنـاك لاسـتلامها، حينهـا تفهّـم الموظّـف، وتشـاور مـع مديـره، فسـهّلوا إجـراءات سـفري، وصعـدتُ أخيًرا إلى الطائـرة، لكـنني حين هبطـتُ في هرجيسـا، واجهـتُ التشـدّد ذاتـه حيـال التـأشيرة والإقـرار المـالي، لدرجـةِ أنهـم أنهـوا إجـراءات ركّـاب الطائـرة جميعًـا باسـتثنائي أنـا، حتى صـار مسـؤولو المطـار يسـتعجلون إنهـاء إجـراءاتي كي لا نتأخّـر عـن موعـد إقلاع الطائـرة، حتى صعـدتُ إلى الطائـرة أخيًرا بعـد ثلاث سـاعاتٍ كاملـة مـن الإجـراءات والتدقيـق، ثـم وصلـتُ إلى مقديشـو، وفوجئـتُ أن السـفارة لـم ترسـل مَـن يسـاعدني، على الرغـم مـن علمِهـم بوصـولي وبطبيعـة مهمّتي، لكـنني تمكّنـتُ مـن إنهـاء الإجـراءات بمفـردي، وركبـتُ سـيارة أجـرةٍ حتى فنـدق العروبـة، فحجـزتُ غرفـةً وصعـدتُ إليهـا.

كان مكتـب الخطـوط الجويّـة السـعودية مجـاورًا لفنـدق العروبـة حيـث أقمـت، لـذا توجّهـتُ إلى المكتـب، والتقيـتُ السـيد عبـدالله بـن علي الحـسيني مديـر المكتـب الـذي اسـتقبلني

بحفـاوةِ صديـقٍ قديـم، وهـو نفسـه مَـن هاتـف السـفارة السـعودية وتحـدّث مـع القائـم بأعمـال السـفير السـيد محمـد عبـدالجواد، والـذي اعتـذر بـدورِه عـن عـدمِ اسـتقبالي في المطـار، وأرسـل سـيارةً لاصطحـابي إلى بيتِـه، وهنـاك طلبـتُ منـه أن أحفـظَ الحقيبـة في خزنـة السـفارة، ولبّى طـلبي، فكلّـف موظّفًـا بفتـح السـفارة، وسـلّمني مكتبًـا بـه خزنـة، ثـم أمـر السـائق أن يوصـلني إلى الفنـدق، وأن يظـلّ تحـت تصرُّفي.

دعـتني السـفارة إلى حضـور اجتمـاعٍ مـع القائـم بأعمـال السـفير، ونائبـه، ومسـؤول المنظّمـات والأعمـال الاجتماعيـة، والمسـؤول الأمني في السـفارة، ومديـر مكتـب رابطـة العالـم الإسلامـي يوسـف جـدو سـوداني.

عرضـتُ عليهـم تفاصيـل مهمّتي، والتي تقـتضي فتـح مكتـبٍ للـهلال الأحمـر السـعودي؛ لبـدء العمـل الإغـاثي، وأخبرتهـم عـن باخـرة عـرب مـازن التي كانـت لا تـزال في طريقهـا إلى مقديشـو، وأنها تحمـل كميةً كـبيرة مـن المسـاعدات، وطلبتُ مسـتودعًا ومكتبًـا وموظّفين وحرّاسًـا لهـذا المسـتودع، كما طلبـتُ متطـوّعين لمسـاعدتي في الرقابـة والتسـجيل، والأهم بالطبـع هـو توقيـع اتفاقيـة عمـل مـع الهيئـة الوطنيـة للإغاثـة؛ لتنسـيق عملنـا في الصومال.

أصغـى الحضـورُ لمـا عرضتُـه، ثـم طلـب القائـم بأعمـال السـفير مـن السـيد يوسـف جـدو أن يُفـرّغَ نفسـه لي لمـدّة أسـبوع للتباحـث مـع الهيئـة والميناء، وبالفعـل اتّصـل برئيـس الهيئـة الوطنيـة للإغاثـة عبـدي تـرح، وحدّثـه عـن وصـول الـهلال الأحمـر السـعودي إلى الصومـال للمشـاركة في العمـل الإغـاثي، فابتهـج الرجـلُ لسـماع هـذا الخبر، ورحّـب بقدومِنـا؛ فهـو يـرى أن الصومـال تعـاني مـن الجفـاف ومـا ترتّـب عليـه، خاصّـةً في ظـلّ تزايـد عـدد النـازحين واللاجـئين، والبلـد يحتـاج إلى تضافـر جهـود الجميـع، ومـن المؤكّـد ـكما أوضـحـ أن الـهلال الأحمـر السـعودي سـيكون إضافـةً للعمـل الـذي تقـوم بـه منظّمـاتُ الأمـم المتحـدة، بالإضافـة إلى شركاتٍ ومنظّمـاتٍ دوليـة أخـرى.

ومـن ثـمّ فقـد تـمّ ترتيـب اجتمـاعٍ حضره نائبـه السـيد يوسـف شردون، ومنسّـق النقـل والتخزيـن السـيد حسـين حـلني، وعـددٌ مـن المستشـارين.

كانـت حفاوتهـم بنـا وببرنامجنـا واضحـةً منـذ البدايـة، ووقّعتُ في هـذا الاجتمـاع اتفاقيـةَ عمـلٍ بين جمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي والهيئـة الوطنيـة للإغاثـة، وبعدهـا حدّثتُهـم عـن باخـرة عـرب مـازن المنتظـرة، فـأخبروني بـأن مسـؤول النقـل والتخزيـن سيسـاعدنا في التخليـص، وفي النقـل أيضًـا إلى مسـتودعنا، كمـا دعمتنـا الهيئـةُ بموظّـفين؛ لنختـارَ مـن بينِهـم مَـن يناسبنـا.

الصومال - مقديشو - باخرة عرب مازن ١٩٨٦م

قرّرنا البحث عن مستودع ليكون جاهزًا لاستقبال المساعدات القادمة إلينا، وبالفعل استأجرنا مستودعًا كبيرًا، وأمدّتنا السفارةُ السعودية بموظّفين لمساعدتِنا، وبحرّاسٍ للمستودع.

كان ألم أذني يتزايد بمرور الوقت، ولم أعد أحتمل المزيد، فسألتُ كل مَن أعرفهم في السفارة السعودية ورابطة العالم الإسلامي والهيئة الوطنية للإغاثة، عن طبيبٍ يستطيع علاجي، حتى فكّرتُ في السفر إلى السعودية للعلاج ثم العودة بعدها، لكن لم يكن ذلك ممكنًا في ظل المسؤوليات الملقاة على عاتقي، وليس لديّ مَن ينوب عنّي أو أعتمد عليه هنا في غيابي، إلى أن جاءتني النّجدةُ حين هاتفني أحدُ مساعدي مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي، بعد أن بلغته معاناتي، وحدّثني عن طبيب صوماليّ أجرى لابنِه جراحة استئصال اللوزتيْن، وأثنى عليه كثيرًا خلال المكالمة، فلم أجد بُدًّا من الذهاب إليه في مساء اليوم نفسه؛ إذ لم أكن أملك حينها رفاهية الاختيار.

مَرَّ بي المساعدُ الذي هاتفني لاصطحابي إلى الطبيب الذي يعرفه، وكانت عيادته في بيتٍ شعبيّ في حيّ حمروين، ففحص أذني وأخبرني بأنهما ملتهبتان وبحاجةٍ إلى التنظيف، وشرع في تنظيفهما بالفعل، وأخرج منهما شمعًا متراكمًا يسدّهما، وحينها شعرتُ بارتياح كبير وبتحسُّن واضح، لكن كنتُ بحاجةٍ إلى علاجٍ للالتهاب، فأريتُه الأدوية التي أحضرتُها معي من جيبوتي، فنصحني بالمضادّ الحيوي لمدّة أسبوعيْن، حتى شُفيتُ تمامًا.

خلال إقامتي في فندق العروبة، أُتيحت لي فرصةُ التعرُّف على أعضاء البعثة السعودية في مقديشو، كموظّفي السفارة والملحقية العسكرية والخطوط الجويّة السعودية، ومن بينِ هؤلاء تعرّفتُ على السيد عبدالله العيدي، وهو رجل وقور يعمل بالسفارة السعودية، وهو يقصد فندق العروبة كل يومٍ بعد صلاة العصر، ويمضي به الوقت حتى أذان المغرب، وحينها يذهب إلى مقهى أبو الخير بجانب القنصلية الأمريكية وعلى مسافةٍ غير بعيدةٍ من الفندق، فاعتدتُ الجلوسَ معه من العصر إلى المغرب، ثم كنّا نصلّي سويًّا ونذهب بعدها إلى ذلك المقهى، وهناك أسعدني الحظّ بالتعرُّف على رجالٍ كُثُر على درجةٍ عالية من الثقافة ورجاحة العقل، ولم أكن أتصوّر أن يجمعهم مكانٌ واحد كهذا، فقد التقيتُ في هذا المقهى برئيس منظّمة تحرير إريتريا، ورئيس منظّمة تحرير فلسطين، بالإضافة إلى أخٍ سودانيّ يعمل بمكتب التربية العربي، وبالطبع فقد التقيتُ السيد أبو الخير صاحب المقهى كذلك، والذي حكى لي قصة وصوله إلى هنا.

أبو الخير هو رجل سوري الجنسية، كان في أوائل الستينيات يعمل في تجارة الفاكهة بين سوريا و لبنان ودول الخليج، وكان يملك _آنذاك_ شاحنةً تحمل الفاكهة إلى السعودية والكويت وعمان، لكنها لم تكن تدرّ عليه الربح المأمول، حتى حدث أن كان في طريقه إلى مسقط عام ١٩٦٣، فانفجر اثنان من إطارات سيارته، وتعطّل على الطريق، وظلّ متوقّفًا إلى أن تمكّن من استبدالهما، وحينها اضطرّ إلى بيْع الفاكهة بأقلّ من سعرها بمجرّد وصوله إلى مسقط، وكانت هذه الحادثة بالنسبة له القشّة التي قصمت ظهر البعير، والتي قرّر على إثرها أن يغلق صفحة تجارة الفاكهة، وأن يُهاجر إلى أمريكا الجنوبية، لكن هناك مَن عارضه ونصحه بالهجرة إلى زنجبار؛ حيث الثراء السريع في سوقٍ متعطّش لكل مستثمر، وقد أغرته الفكرةُ بالفعل، فباع شاحنتَه وما لديه من مخزونِ الفاكهة، وسافر إلى زنجبار بحرًا من مسقط، ووصل بأمواله التي حملها مخبّأة في ملابسه، وأمضى عدّة أيامٍ يتجوّل في البلد ويستطلع أحواله؛ مفتّشًا عن المجال الذي سيقتحمه، وكان يواجه مشكلةً مع لغتهم السواحلية التي وإن غلبت عليها العربية لكنها ظلّت غير مفهومةٍ له، لذا فقد طال بحثه ودراسته.

وذات يوم.. صار يلاحظ حركةً غير مفهومةٍ بين الأهالي، وكان يلوح في الأفق هلعٌ مفاجئ لا يَعرف له سببًا، إلى أن قابل رجلًا عمانيًّا أطلعه على حقيقة الموقف، فثمّة تمرُّد قد نشب ضدّ السلطان جمشيد بن عبدالله وحكومته المكوّنة بشكلٍ أساسي من العرب، وقُتل عربٌ كُثُر في هذا التمرُّد، وحين سأله عمّا يجب أن يفعله، لم يُجبه سوى بكلمةٍ واحدة: «اهرب».

وعلى الفـور اسـتأجر مركبًـا بالجـزء الأكبر مـن المـال الـذي بحوزتـه، واتّجـه إلى مقديشـو، حيـث ألقـى بجسـدِه على الشـاطئ، فنـام في مكانـه مـن شـدّة التعـب، وفي اليـوم التـالي قطـع المسـافة إلى قلـب العاصمـة مشـيًا على الأقـدام، حتى بلغهـا، وبـدأ حياتـه هنـاك بالعمـل في كل مجـالٍ يلـوح لـه، خاصّـةً في الحـفلات والمطاعـم والحلويـات، إلى أن تمكّـن مـن افتتـاح هـذا المقهـى، واسـتقرّ بالصومـال، وتـزوّج مـن صوماليـة، وأسـمى بناتـه بأسـماء المـدن السـورية.

أمـا موظّـف التربيـة السـوداني، وهـو مـن الخرطـوم، ويعمـل في التعليـم السـوداني، فقـد حكى أنـه في السـتينيـات قـد ذهـب مـع وفـدٍ تعليمـي إلى الجنينـة، حيـث أُقيـم احتفـالٌ على طريـق تشـاد خـارج الجنينـة، وكان يعـاني مـن ناسـورٍ تعذّبـه آلامـه، وكان أهـالي الخرطـوم يتحاشـون أهـالي دارفـور ويعتبرونهـم غربـاء ويخافونهـم بسـبب ممارسـة بعضهـم السـحر والشـعوذة، وكان بالحفـل رجـالٌ مـن قبيلـةٍ تشـادية، وهـم رُعـاة أبقـارٍ يـسيرون ورماحِهـم في أيديهـم، ويحلقـون شـعر رؤوسـهم كلّـه باسـتثنـاء جـزءٍ في وسـط الـرأس يطيلونـه بعـض الشيء، بطـول ١٥ سـم تقريبًـا، وكان النـاس دائمًـا يحـذّرون مـن مصافحـة هـؤلاء؛ فمصافحتهـم تشـلّ الجهـاز التنـاسلي، لـذا كان هـذا الموظّـف يخشـاهم بالفعـل، فلمّـا رآهـم يقتربـون منـه _وقـد تعـرّف عليهـم مـن هيئتهـم_ ارتبـك واضطـرب وفقـد القـدرة على التفكـير في كيفيـة تحاشـيهم، فقـد وجـد أحدهـم يمـدّ يـده مصافحًـا، وهـو يكـرر: لا تخـف، لا تخـف.

فشـعر الموظّـف بالإحـراج، وقـرّر أن يمـدّ يـدَه بـدورِه مصافحًـا وهـو يـكاد يـبكي مـن شـدّة خوفـه، وتوسّـل إليـه الموظّـفُ ألّا يضرّه، ووعـده بـأن يمنحَـه مـا يطلبـه، لكـن الرجـل عـاد ليؤكّـد لـه: لا تخـف، كان لديـك شيء، ولـم يعـد موجـودًا الآن.

أعطـاه الموظّـفُ مـا معـه مـن مـالٍ، ومضى في حـالِ سبيلـه، ودُهِـشَ أنـه لـم يعـد يشـعر بألـمِ الناسـور بعدهـا أبـدًا.

حين وصلـت باخـرةُ عـرب مـازن، كنّـا قـد أكملنـا الترتيبـات اللازمـة لاسـتقبالها، وحدّدنـا أيضًـا موقـع عملنـا في بولـو بـورتي، والتي تبعـد عـن مقديشـو حـوالي ١٨٠ كيلـو، وبمجـرّد وصولهـا، بدأنـا بتفريـغ المـوادّ في مسـتودعات الميناء، ثـم بدأنـا في نقلهـا عـن طريـق متعهّـد النقـل ووفـق محـاضرَ رسـميةٍ إلى مسـتودع الـهلال الأحمـر الـذي اسـتأجرناه.

الصومال - مقديشو ١٩٨٦م

الصومال - مقديشو ١٩٨٦م

استضافني القبطانُ لقضاء الليلة برفقته ومساعديه على متن الباخرة، تناولنا طعام العشاء وسهرنا جميعًا على سطح الباخرة، حتى شعرتُ بالنعاس، فاستأذنتهم لأنام، لكنني لم أتمكّن من النوم رغم الإرهاق؛ بسبب اهتزاز الباخرة فوق الماء، حتى أنني شعرتُ بالدوار، فنهضتُ وصلّيتُ الفجر، ثم صعدتُ مع القبطان إلى السطح، وناولني منظارًا لأتمكّن من رؤية الطبيعة من حولي، كان المشهد غير مألوفٍ بالنسبة لي، فقد كنتُ في قلب الماء أستمتع بمشاهدة الأمواج والأسماك المتجمّعة من حولِنا، وشعرتُ خلال هذه اللحظات بأنني حرٌّ من كل عبءٍ يُقيّدني، وكأنني عدتُ طفلًا ولو للحظاتٍ قليلة.

ذهبتُ بعدها إلى بولو بورتي، حيث موقع العمل المقرّر، وحيث كان اليابانيون هناك قد شرعوا في تجهيز المخيّم، فأنشؤوا المباني وأوصلوا المياه والكهرباء، وأنجزوا كل ما يلزم تحت إشرافٍ مشتركٍ من الهيئة الوطنية للإغاثة، ومنظّمات الأمم المتحدة، والمفوّضية السامية لشؤون اللاجئين، وبرنامج الغذاء العالمي، وشركة يولي كير، وكان من المقرَّر أن يستوعب هذا المخيّم أحد عشر ألف لاجئ، ومن ثم فقد اجتمعتُ مع مسؤولي إسكان وتغذية اللاجئين لإعداد خطّة عمل.

الصومال - بولو بورتي ١٩٨٧م

في هـذه الأثنـاء عيّنـتُ اثـنيْن مـن أهـل البلـد، وهمـا: داوود شـيخ عبـدالقادر، وهـو خريـج جامعـة الأزهـر في أوائـل الستينيـات، وقـد سـبق لـه العمـل مـع الحكومـة الصوماليـة، وهـو رجـل هـادئ وحكيـم، يُجيـد العمـل الإداري والترجمـة، والثـاني: محمـود شريـف، وهـو شـاب جامعـي متّزن ومنضبـط، كمـا أرسـل الـهلال الأحمـر السـعودي اثـنيْن آخريْـن، أحدهمـا: كان مديـرًا للمكتـب، والثـاني مسـاعدًا لـه، فبـدأتُ أشرح لهـذا الفريـق طبيعـةَ العمـل، وأرتّـب لقـاءاتٍ بينهـم وبين المسـؤولين في الحكومـة الصوماليـة وفي المنظّمـات التي نتعـاون معهـا.

عنـد اكتمـالِ نقـل مـوادّ الإغاثـة إلى المسـتودع لاحظـتُ وجـود نقـصٍ فيهـا، فالكميـات التي وردت غير متطابقة مع الكميات المدوّنة في عقد النقل (البوليصة) الخاصّة بالشحن مـن جهـة، وإدارة الميناء كذلـك مـن جهـةٍ أخـرى قـد صـادرت الكميـة المـورَّدة مـن التمـر؛ لأنه معبّأ في خـزان خـاصّ بالسـمن والزيـوت، وتاريـخ الانتهـاء المدوَّن عليه لا يخـصّ التمر، لكنها افترضت أن مدّة صلاحيته قد انتهت، ومن ثم فقد تواصلتُ مع الشركة التي تولّت عمليـة الشـحن، وعوّضتنـا شركـة التـأمين عـن هـذا النقـص في المـوادّ المـورَّدة، كمـا طلبـتُ عقـد اجتمـاعٍ مـع السـلطات الصوماليـة بحضـور ممثّـلين مـن الصحـة والبيئـة وجهـاتٍ أخـرى متعلّقـة بالأمـر، وجميعُهـم تبنّـوا موقـف إدارة الميناء، وأكّـدوا عـدم صلاحيـة التمـر للاسـتخدام البشري، فلـم نجادلهـم طـويلًا، وبدأنـا في البحـث عـن طريقـة مناسـبة للتخلُّـص منـه، كحرقـه أو رميـه في البحـر، وكانـت السـفارة تتابـع معنـا المسـتجدّات خطـوة بخطـوة، وكان مـن المفترض أن يتـولّى بـديلي _الـذي وصـل للتـوّ هـو ومسـاعده_ إنهـاءَ هـذه الأزمـة.

في هـذه الأثنـاء كانـت ثمّـة مخـاوف بشـأن باخـرة يونانيـة رسـت بالميناء عقـب رحيـل باخـرة عـرب مـازن، لكنهـا جنحـت بسـبب الجـزر، وتعلّقـت في وضعيـةٍ غير آمنـة، ولـم تتمكّـن السـلطات الصوماليـة مـن معالجـة الموقـف؛ بسـبب ضعـف الإمكانيـات، فاكتفـتْ بالمشـاهدة التي يتخلّلهـا بعـض المحـاولات اليائسـة، وكانـت الباخـرة تحمـل عـددًا كـبيًرا مـن الحاويـات التي أفقدتْهـا اتّزانَهـا، وبـدأت تتسـاقط في المـاء، حتى انشـطرت الباخـرة، وغرقـت حمولتهـا كلهـا في المـاء، وانـتشر الذعـرُ بين النـاس؛ بسـببِ مزاعـم وجـود مـوادّ كيميائيـة ضمـن حمولـة الباخـرة التي سـقطت في البحـر.

ولـم تكـن هـذه الحادثـة سـوى واحـدة مـن تعقيـداتٍ كـثيرة للحيـاة في الصومـال، فأثنـاء لقـاءٍ قـد جمـعني بمديـر مكتـب الخطـوط الجويّـة السـعودية في الصومـال، حـدّثني عـن الصعوبـات التي يواجههـا في إرسـال المـال إلى الريـاض؛ بسـبب التعنُّـت الـذي يتبنّـاه النظـامُ الاشتراكي حيـال دخـول المـال وخروجـه مـن الأراضي الصوماليـة، وكنـتُ ملمًّـا بطبيعـة هـذه المشـكلة، فمـن جهتِنـا نواجـه أزمـةً مماثلـة في اسـتقبال المـال مـن مكتبنـا في الريـاض، فقد فتحـتُ حسـابًا ولـم أتمكّـن مـن اسـتقبال المـال في هـذا الحسـاب، فـاقترح مديـرُ الخطـوط الجويّـة أن يوفّـر لنـا مـا نحتاجـه مـن مـال، على أن يُسـدّد هـذا المـال لمكتبهـم في الريـاض، فتحمّسـتُ لهـذا الحـلّ وعرضتُـه على مسـؤولي الـهلال الأحمـر، واتّفقنـا على تفعيـلِ هـذا الاقتراح، واسـتمرّ المكتـبُ في تمويـل مكـتبَي السـودان والصومـال، إلى أن تـمّ إغلاقـه.

الصومال - بولو بورتي ١٩٨٧م

كان عملي في الصومال قد انتهى، ومن ثم فقد سلّمتُ بديلي: العهدَ المالية، وموادّ الإغاثة المخزّنة في المستودع، ومفاتيحه، ومسؤولية الموظّفين، من خلالِ السفارة السعودية التي أشرفت على عملية نقل هذه الصلاحيات، وسافرتُ بعدها إلى الرياض، وكنتُ بحاجةٍ إلى الراحة ورؤية الأهل والأصحاب، فقد اشتقتُ إلى المدينة وإلى أهلها، وكنتُ أمنّي نفسي بالبقاء فيها لبعض الوقت، لكن تأتي الرياحُ أحيانًا بما لا تشتهي السفنُ.

مـا إن اسـتقريت في الريـاض حتى تلقّيـتُ اتصـالًا وبرقيـةً مـن وزارة الخارجيـة السـعودية تبلغني بـالخبر المشـؤوم، فقد انتحـر بـديلي! ألقى بنفسـه مـن الطابـق الرابـع، فسـقط ميتًـا، وطالـبتني وزارةُ الخارجيـة بالحضـور والتواصـل مـع السـفارة والـزملاء في الصومـال.

توجّهـتُ إلى مقـرّ وزارة الخارجيـة برفقـة مسـؤولَيْن آخريْـن مـن جمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي، ورويـتُ لهم مـا حـدث حسـبما نُقـل لي مـن السـفارة وزميلـه وموظّفي المكتـب، لـم تكـن في الأمـر شـبهةٌ جنائيـة، لـذا لـم يكـن هنـاك داعٍ للتباطـؤ، فـعلى الفـور قرّرنـا إبلاغ الأهـل وإحضـار الجثمـان؛ ليُدفـن هنـا في بلـده، ثـم أخطرنـا زميلَـه بضرورة العـودة كذلـك، مـع منحـه إجـازة لمـدّة خمسـة عشر يومًـا.

تمكنّـا مـن التواصـل مـع ابـن عـمّ المتـوفّى، وذهبنـا إليـه لإبلاغـه بالنبـأ ولتعزيتـه، ورتّبنـا نقـل الجثمـان، ووصـل الجثمـان في ٢٥ سبتـمبر ١٩٨٥، وعلى متن الطائـرة ذاتها وصـل كذلـك زميلُـه الـذي طلبنـا عودتـه، واسـتلم الجثمـان جـدُّه، ودُفـن في اليـوم ذاتـه.

د.حمد الصقير أثناء زيارة تفقدية للصومال ١٩٨٧م

كُلِّفْـتُ بعدهـا بالعـودة إلى الصومـال لحين تشـكيل فريـق جديـد؛ ليتـولّى المهمّـة، وامتثلـتُ للتعليمـات كالمعتـاد، على الرغـم مـن كل مـا حلمـتُ بـه حين وصلـتُ الريـاض قبـل أيـام قليلـة! لكـنني أعـي جيّـدًا طبيعـةَ الموقـف وصعوبتـه، ولـم أكـن لأقصّر في مهـامّ عـملي في هـذه الظـروف الدقيقـة، التي تتطلّـب رجـالًا على قـدر المسـؤولية؛ ليعيـدوا الأمـور إلى نصابهـا الصحيـح.

وإزاء تشكيل فريقٍ جديد.. لم يكن ممكنًا نسيان ما حدث في السودان من تجاوزاتٍ من بعض موظّفي بعثة الهلال الأحمر السعودي، والتي لم تتمّ معالجتُها إداريًّا في حينِها، فشجّع هذا التراخي آخرين على التهاون والتخاذل، لكن حين زار الدكتور: حمد الصقير رئيس الجمعية ورئيس اللجنة التنفيذية للإغاثة مكاتبَ الإغاثة في السودان، واطّلع على طبيعة الوضع بنفسه، وقد كانت لديه آنذاك معلوماتٌ وأسماء، وبناءً على ما توفر لديه من معلومات، قرّر معاقبة المتجاوزين حسب المخالفة التي ارتكبوها، فبعضهم حُرم من الترقيات، وبعضهم حُرم من الانتدابات، والبعض الآخر حُرم منها جميعاً.

ولم يكتفِ بهذه الإجراءات فحسب، بل شكّل لجنةً برئاسته وعضوية اثنيْن آخريْن، وعيّنني سكرتيرًا لهذه اللجنة؛ كي يتمّ اختيار المُنْتَدَبين من خلالها، ولا يُصرّح لأحدِهم بالسفر إلّا بعد مقابلة الرئيس وحضور سكرتير اللجنة، وقد تزامن هذا القرار مع عودتي من الصومال.

سفير المملكة في الصومال أ.عبدالرحمن عالم في باخرة عرب مازن ١٩٨٨م

وزير الداخلية الصومالي مع أ. سعد السويد ١٩٨٨م

توزيع المواد الإغاثية - الصومال - بولو بورتي ١٩٨٨م

التجربة الإدارية الأولى، وأحداث الحجّاج الإيرانيين

في عـام ١٤٠٦هـ انتُدِبْتُ للحجّ مـع مجموعـة المتابعـة والإحصـاء، وكانـت تلـك المشـاركة الميدانيـة هـي المشـاركة الأولى لي، والتي أعطـتني معرفـةً بالعمـل والموظّـفين، خاصّـةً فـرع مكـة المكرمـة، حيـث المقـرّات والتجـهيزات والعمـل الميـداني للفـرق والإدارة، وكان أغلـب عملنـا في التفتيـش والمتابعـة، ثـم عُدْنـا مـن مكـة، وبقيـتُ في تنسـيق الإغاثـة، وإدارة مكاتبهـا في الخـارج، والتنسـيق مـع لجان التبّرعـات والتخزيـن والشـحن.

وفي عـام ١٤٠٧هـ انتُدِبْـتُ للحـجّ مـع مجموعـة المتابعـة والإحصـاء، وبـدأتُ العمـل مـع اللجنـة، وأثنـاء ذلـك، صـدر قـرارٌ بتكليفـي بـإدارة الطـوارئ والإسـناد التي تضـمّ ثلاثين فرقـةَ إسـعافٍ مـع سـياراتهم، ومئـة سـيارة إسـعاف جـاءت دعمًـا للـهلال الأحمـر مـن وزارة الصحـة بسـائقيها.

كانـت تلـك التجربـة هـي الأولى لي في إدارة الفرقـة الإسـعافية والطـوارئ، وكان معـي مسـاعدون إداريّـون: رئيـس مسـعفين، وميكانيكيـون، واتصـالات سـلكية ولاسـلكية.

في يـوم الجمعـة ثالـث يـومٍ لمبـاشرتي العمـل؛ كانـت أحـداث الحجّـاج الإيرانـيين، بـدأت الأحـداث بعـد صلاة الجمعـة، عندمـا قامـت تجمُّعـات من الحجّـاج الإيرانيين بتشـكيل مسـيرة حافلـة أشـاعت الفـوضى والاضطـراب بين حجّـاج بيـت اللـه الحـرام الذيـن أتـوا مـن مختلـف أنحـاء العالـم الاسـلامـي، ويقـدّر عددهـم بمليـون أو مليـونيّ حـاجٍّ، وكان مـن الطبيعـي أن يتدخّـل المواطنـون الذيـن توقّفـت مصالحهـم، وأن يتدخّـل الحجّـاج الذيـن تعطّلـت مقاصدهـم في العبـادة وأداء المناسـك بعـد أن تعرقلـت الحركـة، ثـم حدثـت مناوشـات لفسـح الطريـق أمـام النسـاء والأطفـال وكبـار السـن، وبعضهـم كان محتجـزًا في السـيارات، إلّا أن الإيرانـيين أصرّوا على مواصلـة المـسيرة وسـط هتافـاتٍ، وتوجّـه المتظاهـرون إلى الحـرم، وأخـذوا يدفعـون المواطنين والحجّـاج بالقـوّة والعنـف، وحدثـت التحامـات.

كانـت قـوّاتُ الأمـن تراقـب الموقـف بضبـط النفـس، متّخـذةً الموقـف على جـنبي طريـق المسيرة، وحاولـت منع المواطنين وبقيّـة الحجّـاج من الاصطدام بالإيرانيين المتظاهريـن مستخدمي العصيّ، لكـن المتظاهريـن هجمـوا على رجال الأمن، ووصل هجـوم المتظاهرين إلى اسـتخدامهم الحجـارة، وتصاعـدت الاشتبـاكات، وزادت الحـدّة والضرب، وتـمّ التصـدّي للمسيرة وإعـادة الأمـور إلى مجراهـا.

كان هنـاك قـتلى وجـرحى في الطـرفين: المتظاهريـن ورجـال الأمـن السـعوديين، وكانـت مراكـز إسـعاف الـهلال الأحمـر السـعودي التي حـول الحـرم تغطّـي أحـداث الحالات وتنقـل المصابين، وعندمـا اشتدّت الأمـور وكثرت الحالات، تـمّ توجيـه نـداء مـن العمليـات للطـوارئ والإسـناد، بإرسـال عشر فـرق، ثـم نـداء ثـانٍ، بإرسـال عشر فـرق أخـرى، وتوجيـه ثالـث بإرسـال كل الفـرق التي في الطـوارئ.

انتهـت الأحـداث، وعـادت الفـرق الإسـعافية بسـياراتها، وانشـغلوا بغسـيل السـيارات مـن الدمـاء ومخلّفـات الحجّـاج؛ لأنهـا كانـت تنقـل المصابين والقـتلى، وتمّـت إعـادة تجـهيز سـيارات الإسـعاف بالتمويـن والأجهـزة والأكسـجين واللـوازم الطبيـة.

لـم يكـن مقـرّ الطـوارئ والإسـناد ملـكًا للجمعيـة، لذلك كانـت التجـهيزات متنقّلـة، كالخيام والبركسـات والمطابـخ والحمّامـات المؤقتـة، فقُمْنـا بالمهمّـة في الإسـناد والمشـاركة رغـم ضعـف الإمكانـات، لكـن بالهمّـة والحمـاس والإخلاص، تغلّبنـا على العقبـات بفضـل الله.

انتهـت الأحـداث، وأخذنـا بالاسـتعداد لإسـناد مراكـز الإسـعاف حـول الحـرم ومنى وعرفـات ومزدلفـة كالمعتـاد، وعـاد العمـل لطبيعتـه.

ثـم جـاء توجيـهٌ بتجـهيز خمسـين فرقـة إسـعافٍ السـاعة الثانيـة عشرة منتصـف الليـل في مـكان محـدّد وسـط مكـة يوجـد فيـه منسّـقُ الطـوارئ، وصلـت الفـرق إلى عمـارة تـمّ اتّخاذهـا مستشـفى للبعثـة الإيرانيـة، كان فيهـا جـرحى ومصابـون مـن أحـداث الجمعـة الماضيـة، وكان قـد تقـرّر نقلهـم إلى مطـار الملـك عبـدالعزيز في جـدة بواسـطة طائـرات إيرانيـة، فحـدث نقـصٌ في السـيارات، وطُلـب دعـم بـعشر سـيارات إسـعاف، وحضرت إلى الموقـع مـع الفـرق، ولمّـا دخلـتُ البنايـة، فـإذا هـي مجهّـزة بتجـهيز مستشـفى جيّـد، كانـت فيهـا كـوادر طبيـة وكـوادر تمريـض إيرانيـة، وتـمّ نقـل الجـرحى والمصابين إلى المطـار، حيـث نُقلـوا بطائـرة إيرانيـة، وأُغلـق المستشـفى.

وقبـل انتهـاء أعمـال الحـجّ في يـوم الجمعـة التي تلـت الأحـداث، جـاء توجيـهٌ لي بالبقـاء مـع الفـرق الإسـعافية؛ تحسُّـبًا لأيّ حـدث، وغـادر موظّفـو الـهلال الأحمـر وفـرق الإسـعاف

عرفـات ومنى ومزدلفـة، وبقيـت فـرقُ الطـوارئ والإسـناد كاملـةً، وكذلـك مراكـز الإسـعاف حـول الحـرم، ولـم تحـدث _ولله الحمـد_ أيّـة مشـاكل.

رفعـتُ تقريـرًا عـن فـرق الطـوارئ والإسـناد، عـن وضعهـا وأهميتهـا، ولأن الأرض ليسـت ملـكًا للـهلال الأحمـر، فقـد اقترحـتُ اقتراحيْن، الاقتراح الأول: العمـل على الحصـول على أرضٍ وبناؤهـا وفـق معـايير الطـوارئ والإسـناد، وهـذا ضروريّ؛ لأن شـعيرة الحـجّ مسـتمرّة، والدولـة تعمـل على خدمـة الحجّـاج وراحتهـم، والاقتراح الثـاني: إعـادة تأهيـل الموقـع، وتـوفير المتطلّبـات الرئيسـة، مثـل: السـكن والخدمـات ومسـتودعات الإدارة.

وافقـت الإدارةُ عـلى الاقـتراح الثـاني، عـلى أن أكـون ضمـن الفريـق الـذي سـيعمل عـلى تجهـيز الإسـناد وإعـادة تأهيلـه، وتـمّ تجهـيز مبـنى الإسـناد تجهـيزًا أفضـل مـن السـابق، وبـاشرتُ العمـل بـه في ١٤٠٨هـ.

زيارة الأمير نايف بن عبد العزيز - رحمه الله - لمركز الطوارئ والإسناد

في عـام ١٤٠٨ هـ تمكنّا مـن تجـهيز مركز الطوارئ والإسـناد والإدارة والمسـتودع والخدمات والسـكن والبوّابـات وكـراج السـيارات وترتيـب المقـرّ، حيـث أشرفـتُ على أعمـال البنـاء والتجـهيز قبـل شـهريْن مـن الموسـم مـع أعمـال تنسـيق الإغاثـة.

فقَـدِمَ صاحـب السـموّ المـلكي الأمير نايـف بـن عبـدالعزيز وزيـر الداخليـة ورئيـس لجنـة الحـجّ العُليـا، وصاحـب السـموّ المـلكي الأمير ماجـد بـن عبـدالعزيز أمير منطقـة مكـة المكرمـة، وأعضـاء لجنـة الحـجّ العُليـا، يرافقهـم الدكتـور حمـد الصـقير رئيـس جمعيـة الهلال الأحمر السـعودي، في حافلـة كـبيرة، فاسـتقبلناهم، وكنّا قـد رتّبنـا معرضًـا، وجهّزنـا السـيارات والفـرق وبرنامـج حفـل مُبسّـط.

شرحـت للأمير نايـف - رحمـه اللـه - عـن الطـوارئ والإسـناد، وعـن مهامّهـا وإمكاناتهـا وعملها في الحـجّ، وتـمّ اسـتعراض العـرض لسـموّه ولمرافقيه، ثـم ختمنـاه بتقديـم العـصير والقهـوة العربيـة.

وهنـاك موقـف - أتذكّـره دائمًـا - حيـث كلّفـت أحـدَ الـزملاء بشراء عـصير لضيافـة الأمير مـن فنـدق الانتركونتنتنـال في مكـة، لكنـه أضـاع طريـق الفنـدق، وعنـد تأخـره وخوفـه أن يطـول البحـث ويدركـه الوقـت لـم نجـد لتـدارك الموقـف سـوى أن نـشتري مسـحوق عـصير (تانـج)، فقدّمنـاه للـزوّار، وأخـذ سـموّ الأمير نايـف كأس العـصير وشربـه، وكان يتذوّقـه، لكنـه أكمـل شرب الـكأس، فلـم تكـن إمكانـات جمعية الهلال الأحمر السـعودية بالمسـتوى الـذي يجعلنـا نتّفـق مـع الفنـادق الكـبيرة في تقديـم الضيافـة، كالعـصير والقهـوة وتوابعهـا.

ثم غادر صاحب السموّ الملكي الأمير نايف ومرافقوه مركز الطوارئ والإسناد.

جمعيـة الهـلال الأحمـر، وأحداث حرب الخليـج

بعـد أحـداث احـتلال العـراق للكويـت في أغسـطس ١٩٩٠م، نـزح كـثيٌر مـن الكويـتيين إلى السـعودية، وتوافـدت قـوّاتٌ دوليـة؛ القـوات المشتركـة مـع القـوات الأمريكيـة والقـوات السـعودية لتحريـر الكويـت مـن الغـزو العـراقي، واستنفـرت المملكـة حكومـةً وشـعبًا لـنصرة الكويـت وشـعبه، فشـكّلتْ لجانًـا لمسـاعدة الشـعب الكـويتي.

أمـا القطاعـات الحكوميـة، فقـد استنفـرت استنفـارَ حـربٍ، واسـتعدّت قطاعـاتُ الخدمـة في المملكـة للتطـوّرات المتسـارعة، ومـن ضمنهـا الـهلال الأحمـر السـعودي، الـذي قام بتسـخير إمكاناتـه وقدراتـه لهـذا الحـدث، فأنشـأ غرفـةَ عمليـاتٍ بالتنسـيق مـع القطاعـات الأخـرى.

كُلِّفْـتُ بالتنسـيق مـع: المديريـة العامّـة للدفـاع المـدني، واللجنـة الدوليـة للصليـب الأحمـر، وبفضـلٍ مـن اللـه ثـم القيـادة الملكيـة، انتهـت الأحـداثُ بتحـرُّر الكويـت، وعـاد الكويتيـون إلى الكويـت.

نتـج عـن الحـرب وفيّـات وفقـدان أشـخاص وأسـرى، وفتحـت اللجنـة الدوليـة للصليـب الأحمـر مقـرًّا لهـا في الريـاض، وبـدأت تمـارس مسـؤولياتها تجـاه الأسـرى والمفقوديـن ولـمّ الشـمل، وقـد عملنـا معهـم في لـمّ الشـمل، وكانـت بعـض الأسـر هـي عبـارة عـن سـعوديين متزوّجيـن مـن عراقيـات، وتـمّ لـمّ شـمل أكثـر مـن عشريـن أسـرة في السـعودية.

خـرج عراقيـون مـن العـراق، ودخلـوا شـمال المملكـة، وأقامـت المملكـة معسـكرًا للاجئيـن العراقـيين في رفحـاء، وتـولّى الجيـش السـعودي هـذه المهمّـة بإنشـاء مسـاكنَ وخدمـاتٍ، وزوّد بمراكـز خدميـة مـن القطاعـات الحكوميـة وغيـر الحكوميـة، مثـل: وزارة الصحـة، والهـلال الأحمـر، وغيرهـا، ومـن ممثّلي هيئـة الأمـم المتحـدة، مثـل: مفوّضيـة شـؤون اللاجـئين.

أقـام الـهلال الأحمـر السـعودي مركـزَ إسـعافٍ، وكان يـفترض أن يكـون للـهلال الأحمـر دورٌ أكبر مـن ذلـك، لكـن قـدرات وإمكانـات موظّفـي الـهلال الأحمـر في رفحـاء لـم تكـن مؤهَّلـةً وجاهـزةً لـدور أكبر مـن إدارة مركـز الإسـعاف.

كُلِّفْـتُ بزيـارة معسـكر اللاجـئين في رفحـاء، واطّلعـت على الأوضـاع والتجـهيزات، ووجـدتُ أن الجيـش السـعودي قائـمٌ بـدوره كمـا ينبغـي، ويتـولّى أكثـر التجـهيزات والخدمـات المقدّمـة، ويصرف أغذيـةً وملابـسَ لهـم، ويوفّـر سـكنًا مكتملًا، ويقـدّم لهـم العـلاج وكامـل الرعايـة، ويقـوم بالأعمـال الإداريـة والعسـكرية والاجتماعيـة بـأعلى مسـتوى، فرفعـتُ تقريـرًا عـن المعسـكر ودور الـهلال الأحمـر، واسـتمرّ عمـل المعسـكر لسـنوات، فرحـل مَـن رحـل إلى أوروبـا وأمريـكا وأستراليـا وكنـدا، وعـادت البقيّـةُ إلى العـراق.

جمعية الهلال الأحمر، والإشراف على إغاثة أفريقيا

في عـام ١٤١١هـ توقّفـتْ أعمـالُ إغاثـة مـتضرّري الجفـاف في أفريقيـا، وأُغلقـت مكاتـب جيبـوتي والصومـال ومـالي وموريتانيـا، وتأخّـر إغلاق مكتـب السـودان عـدّة أشـهر.

وأُنشئـت الهيئـة العليـا لجمـع التبّرعـات للبوسـنة والهرسـك والصومـال، وتولّـت جمعيـة الـهلال الأحمـر الإشرافَ على إدارة إغاثـة الصومـال في كينيـا والصومـال، إضافـةً إلى مكتـب الـهلال الأحمـر السـعودي في باكسـتان، ومستشـفى مكـة المكرمـة في كويتـا، ومستشـفى في بيشـاور، واسـتمرّ حتى ١٤٢٣هـ.

في بدايـة ١٤١٨هـ عُيِّنَ الدكتـور عبـدالرحمن السـويلم رئيسًـا لجمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي، وقد عمـل على إبـراز الـهلال الأحمـر السـعودي، إذ نقـل المقـرّ مـن شـارع الضباب إلى مـبنى مسـتأجر في شـارع صلاح الديـن الأيـوبي.

وعمـل على إقامـةِ مؤتمـرٍ عـن الـهلال الأحمـر السـعودي، عـن الخدمـات الطبيـة الطارئـة، واحتفـالًا بمناسـبة مـرور خمسـة وستّين عامًـا على تأسيـس الإسـعاف الخيري، وشـكّل فريقًـا برئاسـة الأسـتاذ عبـدالله بـن محمـد الهـزاع؛ لإعـداد ترتيبـات ومتطلّبـات المؤتمـر والاحتفاليـة، فاجتمـع الفريـق، وتوصّلـوا إلى:

١. تكليـف فريـق لعمـل ترتيبـات ومتطلّبـات المؤتمـر العلمـي، والدعـوة للمشـاركة مـن المتخصّصين، وإعـداد ورقـة عمـل عـن الخدمـات الطبيـة الطارئـة، وعـن تجربـة جمعيـة الهـلال الأحمـر السـعودي، ورؤيتهـا لتطويـر الخدمـة الطبيـة الطارئـة.

٢. إبراز دور الجمعية في مجال الإغاثة، وقد أُسند إليّ ذلك، حيث عملتُ على إصدار كتابٍ عن الإغاثة السعودية، وعرض فيلم قوافل المحبّة عن متضرّري الجفاف في أفريقيا.

٣. إصدار كتـاب عـن مسـيرة الإسـعاف منـذ بدايـة الإسـعاف الخيري عـام ١٣٥٣هـ، والعمـل على جمع الوثائـق والإحصائيـات، وتـمّ تشـكيل فريـق كنـتُ أحـدَ أعضائـه.

٤. إعادة تأهيل سيارة إسعاف قديمة.

٥. إقامة معرض مصاحب للمؤتمر والحفل.

بـدأت الفِـرق بالعمـل لإنـجاز مهامّـها، وتقـرّرت إقامـة المؤتمر العلمـي والحفل مـن ٢٨ - ١٤١٩/٣/٢٩هـ برعايـة صاحـب السـموّ الملـكي الأمير نايـف بـن عبـدالعزيز، وشُـكِّلَتْ عدّة لجانٍ للمؤتمر: الأمانـة العامـة، واللجنـة العلميـة، ولجنـة التسـجيل، ولجنـة الإعـداد والمراسـم والاسـتقبال التي كُلِّفْتُ برئاسـتها، وأُلْحِقَتْ بها اللجنـةُ الماليـة.

قدّمـت الجمعيـة دعـواتٍ علميـة، ووُجِّهَـتْ دعـواتٌ لرؤسـاء الجمعيـات الخليجيـة، وأميـن عـام جمعيـات الـهلال الأحمـر السـعودي والصليـب الأحمـر العربيـة، وتقـرّر تكريـمٌ للرئيـسيْن السـابقيْن للـهلال الأحمـر، الدكتـور عبـدالعزيز مـدرس، والدكتـور حمـد الصـقير، ونـوّاب الرئيـس في المؤتمـر.

عمـل الفريـق بجـدٍّ واجتهـادٍ على إنجـاز المتطلّبـات وتـوفير المـوادّ، وقـد تضمّـن العمـل: تجهيز القاعـات، وتـوفير إسـكان للضيـوف، وإقامـة حفـل، وتـوفير المـواصلات، وكل مـا تطلّبـه الحفـل، بالإضافـة لمعـرض عـن جمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي.

كانـت فعاليـات المؤتمـر في حيّ السـفارات بالريـاض، فبـدأت جلسـات المؤتمـر العلمـي، وأُقيـم المعـرض المصاحـب، وجهـزت سـيارات الإسـعاف القديمـة المعـاد تأهيلهـا مـن ساسـكو مـع عشر سـيارات إسـعاف حديثـة.

وشرّف صاحـبُ السـموّ الملـكي الأمير نايـف بـن عبـدالعزيز - رحمـه اللـه - الحفـل، يصاحبـه الدكتـور أسـامة شـبكشي وزيـر الصحـة ورئيـس مجلـس إدارة الجمعيـة، والدكتـور فـؤاد فـارسي وزيـر الإعلام، وحضر الحفـلَ أيضًـا جمـعٌ مـن المسـؤولين والأعيـان، وكان عـدد الحضـور قرابـة ٦٧٠ بعضهـم كان واقفًـا، وبـدأ الحفـل وبرنامجـه بالخطـاب والتكريـم، وتحقّـق للجمعيـة نجـاحٌ وبـروز، وحصلـت الجمعيـة على تبّرعـات ماليـة، وتكفّـل صاحـب السـموّ المـلكي الأمير نايـف بـن عبدالعزيـز - رحمـه اللـه - ببرنامـج تدريـب الإسـعافات الأوليـة، وسُـمّي بمشروع الأمير نايـف، واسـتمرّ لسـنوات، وحقّـق نجاحـات، واختُتِمَ المؤتمرُ العلمي بتوصيـاتٍ للخدمـات الطبيـة الطارئـة.

وفي اليـوم الثـاني أُقيـم حفـلٌ لتكريـم ضيـوف المؤتمـر؛ رئيـس جمعيـة الـهلال الأحمـر الكـويتي، ورئيـس جمعيـة الـهلال الأحمـر الإمـاراتي، ورئيـس جمعيـة الـهلال الأحمـر البحـريني، والأمين العـام لجمعيـات الـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر، وضيـوف المؤتمـر العلمـي.

كانـت الخطـوة التاليـة لمعـالي رئيـس الجمعيـة الدكتـور عبـدالرحمن السـويلم هـي إقامـة ورش عمـل للمديريـن العامـلين، ومديـدي الفـروع في الإدارة والتخطيـط والمتابعـة والتطويـر والرؤيـا والأهـداف والاستراتيجيـات.

نتـج عـن ذلـك حـراك إداريّ، وتحفّـز القياديـون لتطويـر الأداء والخدمـة وتنشـيط التبّرعات، وشـجّع على فتـح معاهـدَ أهليـةٍ للخدمـات الإسـعافية، ونشـط الابتعـاث والتدريـب، وعمـل معاليـه على فتـح العديـد مـن المراكـز الإسـعافية، ومـبنى للمركـز العـام، ومَبـانٍ للفـروع، ومراكـز الإسـعاف، وإنشـاء الإسـعاف الطائـر مـن التبّرعـات، ووفّـر زوارقَ بحريـةً إسـعافيةً في جيزان، وعمـل لقـاءات واجتماعـات للمديريـن والفـروع والقيـادات في المركـز العـام، ثـم انتقلـت دوريًّـا بين الفـروع الرئيسـة.

سيراليـــون

ـ الوفاء بالعهـد ـ

كنـتُ على موعـدٍ مـع مهمّـةٍ جديـدة، إذ كُلِّفْـتُ بمَهمّـة إيصـال مسـاعداتٍ إلى سيراليـون، كانـت في معظمِهـا مسـاعدات طبيـة تـمّ شـحنها بحرًا، وتسلّمت عقد النقل الخاص بالشـحن (بوليصـة الشـحن) بعدهـا لأتـولّى مهمّـة اسـتلامها وتوزيعهـا، ومـن ثـم فقـد نسّـقتُ مـع وزارة الخارجيـة للمشـاركة في تسـليم هـذه المسـاعدات، وكان الأسـتاذ سـليمان بديـر هـو منـدوب سـفارة المملكـة في داكار، وهـو ممثّـل وزارة الخارجيـة في هـذه المهمّـة، فسـافرتُ مـع فريـقٍ مـن الـهلال الأحمـر السـعودي مـن الريـاض إلى تونـس ثـم إلى داكار، وأمضيـتُ اليـوم في داكار، حيـث التقيـتُ سـليمان بديـر وتعارفنـا، ثـم سـافرنا جميعًـا إلى جامبيـا، ومـن جامبيـا إلى غينيـا بيسـاو، ثـم إلى فريتـاون عاصمـة سيراليـون.

هبطـتْ بنـا الطائـرةُ في جزيـرةٍ صغيرة، اسـتقبَلَنا فيهـا وفـدٌ مـن مسـؤولي المراسـم، ثـم ركبنـا السـيارة، وعبرتْ بنـا فـوق المعدّيـة، كانـت تلـك الزيـارة هـي الأولى لي إلى سيراليـون، وهـي دولـة تقـع في غـرب أفريقيـا، غنيّـة بالمعـادن النفيسـة كالذهـب والألمـاس والنحـاس وغيرهـا، ممّـا جعلهـا قبلـةً للشركات الطامحـة في اسـتنزاف ثـروات هـذا البلـد، والتي تتركـه أفقـرَ ممّـا وجدتـه، ذلـك البلـد الـذي ينشـد المسـاعدة وتقديـم يـد العـون؛ مـن أجـلِ انتشـاله مـن أزماتـه العديـدة.

كانـت لمنـدوبي السـفارة علاقـاتٌ واتصـالاتٌ تربطهـم بالرئاسـة، وقـد تفاجأنـا آنـذاك أننـا بصـدد تسـليم هـذه المسـاعدات إلى رئاسـة الدولـة، وهـو أمـرٌ لـم نعتـده، لـذا رتّبـوا لنـا موعـدًا لجلسـةٍ مـع مجلـس الـوزراء، بحضـور رئيـس سيراليـون، الـذي عـاد لتـوّه مـن زيـارةٍ كانـت إلى المملكـة العربيـة السـعودية قبـل حـوالي شـهريْن، طلـب خلالهـا مسـاعداتٍ عاجلـة؛ مـن أجـلِ إغاثـة مواطنيـه، ولـم نتأخّـر في تلبيـة طلبـه واحتياجـاتِ بلده،

فسرعـان مـا حضرنـا مـن أجـلِ تسـليمه المسـاعدات التي طلبهـا خلال جلسـة وديّـة تبادلنـا فيهـا التحيّـات والثنـاء على العلاقـات الطيبـة التي تجمـع الدولـتيْن، ثـم تفضّـل الرئيـس بإعطائنـا طائرتـه الخاصة لتأخذنـا في جولـةٍ ثـم تعـود بنـا إلى المطـار، بـدلًا مـن الرحلـة البريّـة التي تتطلّـب العبـور فـوق المعدّيـة، كانـت رحلـة ممتعـة شـاهدنا خلالهـا فريتـاون مـن الأعلى، واسـتمتعنا بروعـة المنظـر في هـذه الليلـة.

طائرة رئيس الدولة - فريتاون - سيراليون ١٩٨٦م

كنّا قـد التقينـا في الليلـة الماضيـة بالجاليـة اللبنانيـة، وكان معظـم أفـراد الجاليـة ينحـدرون مـن جنـوب لبنـان، ويحظـون بحيـاة هادئـة في سيراليـون، حيـث يعملـون وينخرطـون في المجتمـع، وكان للبنانـيين بصمتُهـم الواضحـة في التجـارة، ممّـا جعلهـم عـنصرًا أساسـيًّا في اقتصـاد سيراليـون، لكـن في الـفترة الأخيرة بـدأت الأوضـاعُ تتوتّـر، ولـم يعـد المجتمـع يرحّـب باللبنانـيين، بـل صـاروا يتعرّضـون لبعـض المضايقـات، ممّـا دفـع البعـض للهجـرة؛ هربًـا مـن هـذا المنـاخ العـدائي.

اصطحبنـا الرجـل الـذي التقينـاه هنـاك إلى بيـتٍ كانـوا يسـتخدمونه كمكتـبٍ لهـم، ولـم يكـن يشـبه المكاتـب في شيءٍ، بـل كان أقـربَ إلى بيـتٍ على الطـراز الشـامي، تطوّقـه حراسـةٌ مشـدّدة دون أن تعلـن عـن هويّتـه أيّـة لافتـات، ومـن هـذا البيـتِ المُريـب، تحرّكنـا إلى اجتمـاع مجلـس الـوزراء.

كان هـؤلاء اللبنانيـون يتمتّعـون بعلاقـاتٍ جيّـدة وبنفـوذٍ واسـعٍ، لـذا تولّـوا مهمّـة الوسـاطة والتواصـل مـع المسـؤولين وتسـهيل مهمّتنـا، دون أن أدرك طبيعـة علاقتهـم بالحكومـة على وجـه الدقّـة، أو حقيقـة نشـاطهم في سيراليـون، لكـن على كل حـال، كانـت هـذه نهايـة مهـمّتي في سيراليـون، وهـي مهمّـة ذات طابـع خـاصّ بالنسـبة لي، وأحتفـظ لنـفسي بالعديـدِ مـن الذكريـات فيهـا.

طائرة رئيس الدولة - فريتاون - سيراليون ١٩٨٦م

اليمن الجنوبي

ـ أحداث ٨٦ ـ

عقـب عودتنـا مـن سيراليـون بعـدّة أيـام، وبالتحديـد في ١٣ ينايـر عـام ١٩٨٦م، اندلعـت الحـرب الأهليـة في اليمـن الجنـوبي، والتي تعـرف بأحـداث ٨٦، والتي دامـت لقرابـة الشـهر الواحـد، وتسبّبـت في العديـدِ مـن الأضرار، فقـد نجـم عـن هـذه الحـرب مقتـلُ مـا لا يقـل عـن أربعـة آلاف شـخص، وتشريـد ستّين ألـف شـخص آخَـر، ومـن ثـم فقـد اقتضـت الحاجـة المسـاهمة في مسـاندة اليمـن ودعمـه في هـذه الـفترة العصيبـة، لـذا أرسـلت المملكـة العربيـة السـعودية مسـاعداتٍ للمتضرّريـن، وقـد كُلِّفْـتُ إلى جانـب منـدوبٍ مـن وزارة الماليـة، هـو الأسـتاذ نـاصر القحطـاني بإيصـال هـذه المسـاعدات إلى اليمـن الجنـوبي.

حين وصلنـا إلى عـدن، كان في اسـتقبالِنا وفـدٌ يـمنيّ مكـوّن مـن مسـؤولين مـن وزارة الماليـة ومـن جِهـاتٍ حكوميـة أخـرى، بالإضافـة إلى وفـدٍ مـن الـهلال الأحمـر اليـمني الجنـوبي، فأحسـنوا اسـتقبالنا وأكرمـوا ضيافتنـا، حتى إن كرمهـم هـذا ظـلّ عالقًـا في ذاكـرتي طـوال هـذه السـنوات.

وفي اليـومِ التـالي.. توجّهنـا للقـاء السـفير السـعودي، وكان على علـمٍ بمسـألة المسـاعدات الـواردة إلى اليمـن الجنـوبي، وأجـرى بعـض الترتيبـات بالفعـل، وأطلَعَنـا عليهـا، لـذا لـم يكـن مـن سببٍ لإهـدار الوقـت، فتحرّكنـا لتنفيـذ الأجنـدة التي حدّدتهـا السـفارة.

كانـت أولى خطواتنـا هـي الذهـاب إلى الميْنـاء، حيـث وجدنـا الباخـرة قـد وصلـت بالفعـل، فجدّدنـا عقـد النقـل الخـاص بالشـحن (بوليصـة الشـحن)، ثـم سـلّمناه بمـحضرٍ رسـميٍّ إلى الحكومـة اليمنيـة، وفي اليـوم التـالي أقـام لنـا السـفيُر مأدبـةَ غـداءٍ، تحرّكنـا بعدهـا إلى المطار.

كانـت تنتظرنـا مفاجـأةٌ في المطـار، فالإخـوة الذيـن اسـتقبلونا وأكرمونـا في اليمـن، قـد بالَغـوا في كرمهـم، فأرسـلوا هديـةً لـكلٍّ منّـا، وكانـت الهديّـة عبـارة عـن ثلاثـة أو أربعـة

صناديـق قـد شـحنوها على متن الطائـرة دون أن نعـرف محتواهـا، لـذا فقـد سـألنا _مـا إن صعدنـا إلى الطائـرة_ عـن محتـوى هـذه الصناديـق، فجاءنـا الجـواب: إنـه تمبـاك عـدنيّ مـن النـوع الفاخـر.

كانـت الهديّـةُ قيّمـةً بلا شـكّ، لكـن تصـادف أنني وزمـيلي لا ندخّـن، لـذا كانـت الهديـة _رغـم قيمتهـا_ في غير محلّهـا، إضافـةً إلى أن النـاس في مجتمعنـا يسـتهجنون المدخّـنين ويضيقـون بهـم، لـذا حين وصلنـا إلى المطـار، جـرت بيننـا مناقشـات مطوّلـة حـول هـذه الهديّـة، فلـم نكـن واثـقين مـن رغبتنـا في اسـتلامها؛ فقـد كنّـا نراهـا نقيصـةً في حقّنـا، ولا تليـق بمقامنـا، لكنّنـا قرّرنـا في النهايـة أن نقبـل الهديّـة، فهـي هديّـة أولًا وأخيًرا، بغـضّ النظـر عـن مضمونهـا.

وحـين ذهبنـا لاسـتلامها، صارحْنـا موظّفـي الجمـارك بعـدم رغبتنـا في أخذهـا، وعرضنـا عليهـم الحصـول عليهـا بـدلًا منّـا، لكنهـم لـم يقبلوهـا إلّا بعـد أن وقّعنـا إقـرارًا بعـدم رغبتنـا في أخذهـا.

وبذلك اكتملت مهمّة إيصال المساعدات إلى اليمن الجنوبي.

*** *** ***

ثمّة مهامّ أخـرى لـم أسـافر لتنفيذهـا بنـفسي، لكـنني خطّطـتُ ورتبـتُ لتنفيذهـا بـدلًا مـن ذلـك، كإيصـال مسـاعدات طبيـة وأدويـة إلى أوغنـدا بالتعـاون مـع رابطـة العالـم الإسلامي.

وكذلـك إرسـال القمـح إلى بوركينـا فاسـو، الـذي أرسـلناه عـن طريـق مكتبنـا في مـالي، كمـا أرسـلتُ مسـاعدات إلى لبنـان عـن طريـق سـوريا، لكـن سـوريا اعترضـتْ طريقهـا، فعـادتْ إلينـا مـرّةً أخـرى، ثـم أرسـلناها ثانيـةً عـن طريـق المنظّمـة العربيـة للهلال والصليب الأحمـر.

بالإضافـة إلى إرسـال مسـاعدات إلى بنجلاديـش، وقـد أنهيـتُ إجراءاتهـا بالكامـل، ثـم تـولّى زميـلٌ لي مهمّـةَ تسـليمها.

الصومـــال

ـ الزيارة الثانية ـ

عُدْتُ إلى الصومال من جديد، واستمرّ العمل الإغاثي الذي يخدم أحد عشر ألفَ لاجئ في مخيّم بولو بورتي، إذ يتولّى المخيّمُ صرفَ الموادّ الغذائية اللازمة لكل فرد، من أرزٍ ودقيق وزيت وسكر وحليب مرتيْن شهريًّا، لكن بمرور الأيام، جرى تواطؤٌ بين الكيّالين واللاجئين بمباركةِ مُشرفي التوزيع، وفي غيابٍ تامّ من المشرفين السعوديين.

فريق الإغاثة السعودي - بولو بورتي - الصومال ١٩٨٧م

وصلتنا موافقة ببدء الخدمة الطبية للاجئين بالمخيّم من خلال فريق سعودي، فكُلِّفَ طبيب وصيدلي وممرّض ببدء عملهم في الرعاية الطبية للاجئين، وكُلِّفَ إداريّون بالعمل في الفريق بدلًا من أولئك الذين جرى استبدالهم عقب الحادث، وترأّستُ المكتب للمرّة الثانية، ومن ثم فقد سافرتُ برفقة الفريق الطبي إلى مقديشو، حيث استقبلنا زملاؤنا في صالة كبار الزوّار بالمطار، ووصلنا إلى مكتب الإغاثة بمقديشو،

والـذي يقـع بجـوار قصر رئيـس الصومـال محمـد زيـاد بـري، ويتكـوّن مـن مكاتـبَ، وسـكنٍ، وفنـاءٍ واسـع، كمـا أنـه يتمتّـع بمميّزات وجـوده بالقـرب مـن بيـت الرئيـس، أي بوجـود حراسـة أمنيـة تشـمل الحـيّ كلـه، وبالطبـع فـإن المرافـق كلهـا كانـت ممتـازة، سـواء الميـاه أو الكهربـاء أو الهواتـف والاتصـالات.

أنهيْنـا إجـراءات التسـليم والتسـلُّم، وسـافر بعدهـا الفريـقُ الإداري السـابق عائـدًا إلى السـعودية، إلّا أنني استبقيـتُ عبـدالعزيز أبـو بكـر لمـدّة شـهريْن، ثـم مـددتُ عملـه لشـهريْن آخريْـن.

كنـتُ بحاجـةٍ إلى الوقـوف على طبيعـة الوضـع داخـل المخيّم، فاسـتمعتُ إلى تقرير مشرف المخيّـم عـن العمـل داخـل المخيّـم وعـن اللاجـئين والعامـلين المحليّين، وبالطبـع فقـد كان هنـاك خلـلٌ واضـح في توزيـع المـوادّ، وكنـتُ أدرك تبعـات ضبطـه ومواجهـة الفاسـدين، لكـن لـم يكـن أمامـي خيـار، لـذا أصـدرتُ تعليماتي بمعالجـة هـذا الخلـل والتصـدّي لـه بـكل حـزم، وتسريـح أيّ موظّـفٍ أو مسـؤول يُعيـق عملنـا التنظيمي.

كانـت علاقـاتي التي كوّنتُهـا في مقديشـو لا تـزال قائمـةً وكأنني لـم أرحـل يومًـا، وخلال وجودنـا في مقديشـو، اسـتضافنا السـيد محمـد عبدالجـواد في منزلـه، وكذلـك السـيد عبدالله الحـسيني، وعُـدْتُ مـن جديـد أرافـق عبدالله العيـدي في مجلسـه بفنـدق العروبـة، ثـم إلى مقهـى أبـو الخير كمـا اعتدنـا سـابقًا، كنـتُ أشـعر بـأنني بين أهلي وأصدقـائي، باسـتثناء المشـكلات التي تنتـج عـن العمـل فقـد كنـتُ مطمئنًّـا خلال وجـودي في الصومـال؛ بفضـل وجـودي بين هـؤلاء، وارتيـاحي لصحبتِهم.

لـم يكـن المخيّـمُ جاهـزًا بعـد لاسـتقبال الفريـق الـطبي والإداري الـذي سـافر إلى بولـو بـورتي، إذ لـم ينتـهِ اليابانيّـون مـن عملهـم وإيصـال كافّـة المرافـق والخدمـات للمخيّـم كمـا هـو متّفـق عليـه، لكـن ذلـك لـم يمنـع الإداري مـن مباشـرة عملـه، فبـدأ على الفـور في معالجـة فسـاد عمليـة توزيـع المُـؤَن والمسـاعدات، وكانـت أولى خطواتـه أنـه شـرح لمسـؤولي التوزيـع والكيّـالين نظـامَ التوزيـع الـذي اتّفقنـا عليـه وأعددنـاه للعمـل بـه في المخيّـم، كمـا سـلّمهم آلاتٍ حاسـبةً ومكاييـلَ دقيقـةً لاسـتخدامها، ولـم يَنْـسَ ولـم يتردّد في أن يحـدّد نسـبةَ الخطـأ المسـموح بهـا _والتي لا يمكـن تجاوزهـا بحـالٍ مـن الأحـوال_ لكنـه قوبِـلَ باعتراضـاتٍ مـن البعـض الذيـن رفضـوا هـذا النظـام، فقـرّر فصلَهـم بالتشـاور معـي، لكنـه فـوجئ في موعـد التوزيـع بعـدم ظهـور أيٍّ مـن المسـتفيدين، وكأنهـم يقاطعوننـا.

لكـن ذلـك لـم يمنـع الفريـق مـن أداء عملـه، فقـد قـرّروا المداومـةَ عـلى الذهـاب يوميًّـا إلى

المخيّم، يفتحـون أكشـاك التوزيـع وينتظـرون توافـد المسـتفيدين، لكـن بـلا جـدوى.

واسـتمرّت هـذه الحال هكـذا لقرابـة الـعشرة أيـام، حين بـدأ النزلاء يتجمهـرون ويرفعـون طلباتهـم مكتوبـةً بالعربيـة على لافتـاتٍ: «كلكـم راعٍ، وكلكـم مسـؤول عـن رعيّتـه»، نريـد ملابـسَ وأكلًا وأدواتِ طبـخٍ.

كان الوضـعُ يتفاقـم يومًـا بعـد يـوم، فـكان تعنُّت النزلاءِ يتزايـد، وكان رفضهـم لاسـتلام حصصهـم يتجـدّد، وسـاد في الجـوّ العـام شيءٌ مـن التوتّـر الـذي يـنبّئ بالخطـر، خاصّـةً في وجـود العامـلين الصومالـيين الـذي أجّجـوا نـار هـذه الفتنـة؛ لأنهـم هـم المسـتفيدون مـن التسيُّـب الـذي وقـع في المخيّـم، ويريـدون اسـتعادة مكاسـبهم الضائعـة مـن جديـد، حتى حـدث الصـدام يـوم وصـل الفريـقُ السـعودي إلى المخيّـم، وفتحـوا الأكشـاك كالمعتـاد، ففوجئـوا بـالنزلاء يهاجمونهـم، ففـرّوا على الفـور هـاربين ركضًـا إلى السـيارة، فركـب أربعـةٌ منهـم بداخلهـا، فيمـا انتظـر الاثنـان المتبقّيـان اللـذان كانـا مطارديْـن مـن النزلاء، حتى أدركا السـيارة لاهـثيْن، فانطلقـا باتّجـاه المكتـب، وعلى الفـورِ توجّـه الـمشرفُ إلى الشرطـة، وقـصَّ عليهـم مـا حـدث بالمخيّـم، فاسـتعانت الشرطـةُ بفرقـةٍ مـن الجيـش؛ لحمايـة المكتـب وأعضـاء الفريـق، لكـن الفريـق لـم يجـد البقـاءَ بالمكتـب فكـرةً جيّـدةً، لـذا قـرّر الرحيـل إلى مقديشـو، وتحرّكـت معهـم دوريّـةٌ مـن الجيـش لقرابـة الخمسـة عشر كيلـو؛ لتتأكّـد مـن مغادرتهـم بـسلام.

كنـتُ مشـغولًا في هـذه الأثنـاء باسـتقبال صاحـب السـموّ الملـكي الأمير سـلطان بـن سـلمان رائـد الفضـاء، الـذي قـد وصـل في الثانيـة ظهـرًا إلى مقديشـو بطائرتـه الخاصّـة لإلقـاءِ محـاضرةٍ عـن رحلتـه إلى الفضـاء، والتي كان مـن المقـرّر لهـا أن تُـقام في الثامنـة مـن مسـاء اليـوم ذاتـه، فكنـتُ واحـدًا مـن الوفـد الـذي اسـتقبله في المطـار لـدى وصولـه، إلى جانـب القائـم بأعمـال السـفير وآخريـن، والـذي رافقـه إلى الـقصر الجمهـوري الـذي سيسـتضيفه حتى رحيلـه.

حينهـا.. علمـتُ بوصـول الفريـق إلى مكتـب مقديشـو، وعلى الفـور اتّجهـتُ إلى المكتـب لفهـم حقيقـة مـا حـدث، وحين قصّـوا عليّ مـا وجـدوه هنـاك، حمـدتُ اللـه على سلامتهـم أولًا، فمَـن يـدري مـا كان يمكـن أن يحـدث لـو أن واحـدًا منهـم وقـع بين أيـدي هـؤلاء لا قـدّر اللـه؟! ثـم نقلـتُ لهـم أولويّـة المسـؤولين في السـعودية، والذيـن يعتـبرون سلامـة أفـراد الفريـق مقدّمـةً على كل مـا سِـواها، ومـن ثـم فـإن مـن واجبي اتّخـاذ اللازم نحـو الحفـاظ عليهـم وإبقائهـم في أمـان.

وفي المساء.. توجّهنا جميعًا لحضور محاضرة سموّ الأمير، و فوجئنا أثناء المحاضرة بوصول الرئيس الصومالي زياد بري، ثم توجّهتُ بعد المحاضرة إلى سموّ الأمير وصافحتُه، واستأذنتُه أن يرافقه في رحلته إلى الرياض زميلُنا السيد عبدالعزيز أبو بكر مشرف مكتب بولو بورتي، والذي سيتكفّل بنقل ما حدث إلى المملكة، وقرّرنا أن نحتفل بعدها بنجاة أعضاء الفريق وعودتهم سالمين، فأقام القائم بأعمال السفير مأدبةَ عشاءٍ؛ تكريمًا لهم واحتفالًا بسلامتهم، وكانت بحضور الجالية السعودية في مقديشو.

وبعدها بيومَيْن أو ثلاثة أيام.. وصلنا وفدٌ من عشرة أفراد من نزلاء مخيّم بولو بورتي ، قد قرّروا المجيء إلى مكتبنا في مقديشو؛ للاعتذار عن تعدّيهم على أعضاء فريق الإغاثة السعودي، ثم تلقّينا خطابًا واتّصالًا كذلك من الهيئة الوطنية للإغاثة لدعوتنا لحضور اجتماعٍ خاصٍّ بمناقشة أحداث مخيّم بولو بورتي.

ذهبتُ إلى هذا الاجتماع برفقة الدكتور إبراهيم أحمد يعقوب، وكان في انتظارنا رئيسُ الهيئة الوطنية للإغاثة عبدي ترح الذي استقبلنا استقبالًا جافًّا، وما إن بدأ الاجتماع حتى انطلق يلوم رئيس جمعية الهلال الأحمر، الذي سبق أن وعد برصف الطريق إلى مخيّم بولو بورتي حوالي عشرة كيلو متر، منذ أكثر من عامٍ، ولكنه لم يُنفّذْ وعدَه حتى الآن، وكنّا نتوقّع أن يبدأ الاجتماع بمناقشة ما حدث بمخيّم بولو بورتي، وهو السبب الذي دُعينا من أجله لحضور هذا الاجتماع، بدلًا من مناقشةِ أعمالٍ لم تكن تخصُّنا في المقام الأول.

فتدخّلتُ معترضًا؛ لكن أعمال المقاولات ليست ضمن مهامّنا، فمهمّتنا هنا تقتصر على إغاثةِ متضرّري الجفاف، وحين طلبت الحكومة مساعدتها في تنفيذ برنامجها الإغاثي لم نتردّد، ونفّذنا هذا البرنامج بالتعاون مع وزارة الداخلية.

وكان اللواء أحمد سليمان وزير الداخلية، هو المُكلَّف من الحكومة الصومالية بالإشراف على إغاثة متضرّري الجفاف، وقد سبق أن تعاونّا معه ومساعديه في إرسالِ قوافل مساعداتٍ إلى المناطق المتضرّرة، وذلك بناءً على توجيهاتهم، وحضر الوزير ومساعدوه ومسؤولون من الهلال الأحمر السعودي تدشينَ انطلاق القوافل، ونُقل هذا الحدث عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، ونشرته الصحف، وأحدث دويًّا هائلًا.

وحين طلبتْ منّا الحكومةُ مساعدةَ دور الأيتام في الصومال، وإمدادَها بالموادّ الغذائية التي يحتاجونها، لم نتردّد لوهلةٍ، فأرسلنا فريقًا لدراسة وإحصاء المساعدات التي تحتاجها

هـذه الـدور، وعلى الفـور حدّدنـا الكميّـات المطلوبـة، ووضعنـا جـدولًا سـنويًّا لإمدادهـم بالمسـاعدات والمـؤن بصفـةٍ شـهريّةٍ، والتي اسـتمرّت حتى إغلاق مكتبِنـا بمقديشـو.

فانتقـل إلى أحـداث المخيّـم، وعلى الرغـم مـن تعـابير وجهـه _التي تشي بخـلاف مـا يقـول_ إلّا أنـه كان يؤكّـد دعمنـا في كل مـا نـراه مناسـبًا، فاعترضـتُ مُذكِّـرًا: إن نائبـك يوسـف شردون حضر إلى مكتبِنا الأسبوع الماضي مطالبًا بإعادة الموظّفين الذيـن فصلناهم إلى عملهم مرّة أخرى، وكذلـك ضابـط الاتصـال _وكان حـاضرًا معنـا هـذا الاجتمـاع_ الـذي كان شـاهدًا على مـا أقـول.

لكنه تنصّل من هذا التصرُّف قائلًا: لا علاقة لنا بموظّفيكم الصوماليين.

فاعترضـتُ قـائلًا: إن النـواحي الأمنيـة والإداريـة والتنظيميـة تقـع ضمـن نطـاق مسـؤولياتكم، لكنكـم لـم تلتزمـوا بهـا، ولا يمكـن لمنظّمـات الإغاثـة أن تعمـل إلّا في بيئـةٍ مُحكَمـة وآمنـة، وعلى كل حـال فقـد رفعنـا تقريـرًا بمـا حـدث في المخيّـم إلى حكومـة المملكـة، وننتظـر التوجيهـات.

فلـم يكـن منـه إلّا أن اعتـذر اعتـذارًا باهتًـا، متحجّجًـا بالظـروف الـتي يعيشـها اللاجئـون، طالبًـا أن نلتمسَ لهم العـذر، لكـن لـم يكـن لدينـا اسـتعدادٌ لتقبُّـل هـذه الأعـذار الفارغـة، فرحلنـا بعـد أن ودّعنـا وداعًـا بـاردًا كاسـتقبالِه لنـا في البدايـة.

وعلى كل حـال كنّا قـد أوضحنـا موقفَنـا بالفعـل، ومـع اعتـذارِ نـزلاء المخيّـم عمّـا حـدث، لـم يعـد هنـاك مـا يمنعنـا مـن العـودة إلى العمـل بالمخيّـم، بعـد أن فرضنـا طريقـةَ التوزيـع التي أردناهـا منـذ البدايـة، لكـن هـذه المـرّة كانـت محـلّ قبـولٍ مـن الجميـع، كمـا أننـا اسـتبعدنا كل مَـن شـاركوا في الفـوضى التي جـرت خـلال الأيـام الماضيـة، ونقلنـا مديـر المخيّـم التابـع للهيئـة الوطنيـة للإغاثـة إلى مقديشـو.

كنـتُ في هـذه الأثنـاء لا أزال أتّبـع الـروتين ذاتـه، حيـث الجلـوس مـع عبـدالله العيـدي بعـد العـصر في بهـوِ الفنـدق، ثـم الذهـاب إلى مقهـى أبـو الخيـر بعـد صلاةِ المغـرب.

وذات يـوم.. فوجِئنـا بقـدوم صديـقٍ لنـا يعمـل بالسـفارة السـعودية لينبّئنـا أن القنصـل فهـد البـداح يعـاني مـن ألـمٍ شـديد في بطنِـه، واضطـرّ إلى الذهـاب إلى المستشـفى، وهـو يطلـب مسـاعدة الطبيـب إبراهيـم يعقـوب، والـذي مـا إن سـمع مـا حـدث، حتى أسرع إلى المستشـفى، فقابـل فهـد وسـأله عمّـا بـه، ثـم تحـدّث مـع الأطبـاء الصومالـيين، الذيـن كانـوا يؤكّـدون التهـاب الزائـدة الدوديـة، وضرورة استئصالهـا دون تـأخير، حـاول الدكتـور

إبراهيم أن يفهم السبب الذي دفعهم إلى هذا التشخيص، لكنهم اعتبروا ذلك تشكيكًا في قدراتهم، وامتنعوا عن الخوض في هذا النقاش، وتمسّكوا بموقفهم بضرورة إجراء هذه الجراحة في أسرع وقت، ثم تركهم الدكتور إبراهيم لمّا يَئِسَ من محاولة التفاهم معهم، واتّجه إلى المكتب، وأدخلوا فهد إلى غرفة العمليات، ولكن لسوءِ حظّه انقطعت الكهرباء أثناء إجراء الجراحة، فأسرع الدكتور إبراهيم إلى بيته، وحمل مولّدًا كهربائيًّا إلى المستشفى ليتمكّن الأطباء من استكمال الجراحة.

لم يكن من الصعب توقُّع النتيجة التي انتهت إليها هذه التجربة القاسية، فقد خرج فهد من المستشفى بعد أيام، لكنه لم يكن بأفضل حال، لذا لم يحتمل البقاء لأكثر من أسبوعٍ، سافر بعده إلى السعودية؛ ليستشير أطباءً هناك، والذين وجدوا بدورهم أن الجرحَ ملتهبٌ، ومن ثم فقد بقي هناك لشهرٍ كامل للعلاج، لكنه حين عاد، كنّا نراه يمشي بانحناءةٍ واضحة.

تلقّينا توجيهًا من الرياض بزيارة مخيّم بوعو على طريق بولو بورتي، والذي يبعد عنها حوالي ١٨٠ كم، فتحرّكنا ثلاثتُنا فجرًا؛ أنا والدكتور إبراهيم يعقوب والسيد عبدالعزيز أبوبكر باتجاه مخيّم بوعو عبر طريقٍ وعرة وغير ممهّدة، فالطريق قديمة وشبه مهجورة، ولم تتم صيانتها من قبل، لذا تكسّرت طبقة الإسفلت بمرور الوقت، فصارت الطريق عبارة عن حفرٍ موزّعة بطولِه، وكأنها لعبة من ألعاب الفيديو.

وصلنا في التاسعة صباحًا، وكان في استقبالنا مديرُ المخيّم، ومساعدوه، وممثّلٌ من مفوّضية اللاجئين، واصطحبونا جميعًا في جولةٍ داخل المخيّم، الذي يقطنه قرابةُ الأربعين ألفًا، وهم خليطٌ من لاجئين ونازحين، وكان تخطيط المخيّم يدلّ على الجهد الذي يُبذل فيه، فقد كان بالمخيّم مكاتبُ إداريةٌ، وأكشاكٌ لتوزيع المساعدات والمؤن، ومبانٍ خشبيةٌ قد تكون عياداتٍ أو سكنًا للموظّفين، كما أن المخيّم بعيدٌ عن القرى، لكنه قريبٌ من الطريق.

انتهيْنا من هذه الجولة، إلّا أن تشغيل هذا المخيّم كان مكلفًا جدًّا إذا احتسبنا عدد الموظّفين والمُؤَن التي يتمّ توزيعها والمعدّات والنقل، فليست لدينا المقدرة على إدارة مخيّم مثله، لكن يمكن للمفوّضية السامية لشؤون اللاجئين أن تُديره وتُشرف عليه، وهو ما ينطبق على هذا المخيّم بالتحديد، ومن ثم فقد أعددنا تقريرًا شاملًا عن هذه الزيارة، وأرسلناه إلى الرياض للعرض والدراسة.

أثناء عودتنا إلى مقديشو لاحظنا أن سيارتين من سيارات الجيش كانتا تسبقان

السـيارات الأخـرى على الطريـق، وكانـت تـعترض طريـق مرورهـا، فقـد كان الجنـود الذيـن بداخلهما مكلّـفين بجمع الشـباب لتجنيدهـم مـن أجـل الحـرب التي توشـك البـلاد على خوضهـا مـع إثيوبيـا، فكانـوا يحملـون كل مَـن يقـع تحـت أيديهـم قسرًا، فيوقِفـون السـيارات، ويأخـذون ركّابها الشـباب، أو يطـاردون المشـاة حتى يمسـكوا بهـم، حتى إنهـم أمسـكوا برعـاة أغنـامٍ مـرّوا بجوارهـم، وكنّـا مرتبـكين _بالطبـع_ مـن رؤيـة مشـهدٍ كهـذا، لكننـا حين أشرنـا لهـم طالـبين الإذن في العبـور، سـمحوا لنـا بذلـك، شريطـة ألّا نحـذّر مَـن نقابلـه على الطريـق.

كنـتُ أتابـع أخبـار المخيّـم وأداء الفريـق عـن قـرب؛ لأتأكّـد مـن اسـتقرار الأوضـاع بداخلـه، لكـن عبـدالعزيز أبـو بكـر كان ينقـل تقاريـرَ عـن عمليـات البيـع والشراء التي تنشـط على هامـش عمليـة التوزيـع بالمخيّـم، فـالنزلاء يبيعـون المـوادّ الغذائيـة والملابـس واللـوازم الأخـرى، وعـادةً مـا تنشـب بينهـم شـجاراتٌ تسـتدعي تدخُّـل الأمـن، وقـد داهمتهـم سـياراتُ الجيـش أكثر مـن مـرّة، واعتقلـت بعضًـا منهـم، وحينئـذٍ تهـدأ الأمـور لبعـض الوقـت قبـل أن تعـود إلى نشـاطها السـابق ثانيـةً.

لقـد بلغنـا في هـذه الأثنـاء أن وزارة الخارجيـة السـعودية قـد عيّنـتْ سـفيرًا جديـدًا بالصومـال، وهـو السـيد عبـدالرحمن عالـم، الـذي وصـل أثنـاء وجودنـا في مقديشـو، فقرّرنـا أن نتوجّـه إلى مكتبـه للقائـه والترحيـب بـه في مقديشـو، وإطْلاعـه على أنشـطة المكتـب وأعمالـه في الصومـال في مواجهـة آثـار الجفـاف.

وكنّـا نتطلّـع كذلـك لاسـتقبال متطوّعٍ جديـد، وهـو مـازن جاسـم التركي مـدرّس الجغرافيـا بثانويـة العـزّ بـن عبدالـسلام بمدينـة الريـاض، الـذي سـبق أن شـارك في العمـل الإغـاثي بالسـودان، وقـد عمـل معنـا في مكتـب الجنينـة في التوزيـع، وكان متـميّزا في التصويـر الفوتوغـرافي، ويلتقـط صُـوَرَهُ باحترافيـةٍ عاليـة، لـذا عرضنـا عليـه تصويـر أنشـطة المكتـب في الصومـال وجيبـوتي، وبالفعـل سـافر إلى مقديشـو لينضـمّ إلينـا، واسـتقبله في المطـار موظّفـو المكتـب، وكان أول مـا قـام بـه هـو التقـاط صورٍ للباخـرة عند إفـراغ حمولتهـا مـن المسـاعدات التي وصلـت مـن المملكـة، كمـا التقـط عـدّة صورٍ لمخيّـم بولـو بـورتي ونزلائـه، ووثّـق بعدسـته عمليـة التوزيـع وأنشـطة أخـرى كـثيرة للمكتـب.

مكـث مـازن معنـا قرابـة الأسـبوعيْن، ثـم كان عليـه أن يتّجـه بعدهـا إلى جيبـوتي لاسـتكمال عملـه، فذهـب إلى المطـار في الموعـد المحـدّد لرحلتـه، لكنـه لـم يصـل إلى جيبـوتي أبـدًا!

كان مـن المقـرّر أن تصـل رحلتـه في العـاشرة مسـاءً، وكان في انتظـار وصولـه مديـرُ مكتـب جيبـوتي الـذي ظـلّ منتظـرًا حتى تأكّـد مـن وصـول الرحلـة، ولكـن بلا مـازن! على الرغـم مـن

أن اسـمه كان مدرجًـا في قائمـة المسـافرين، وانتظـر الرجـلُ يائسًـا حتى الثانيـة صباحًـا، لكـن بلا جـدوى.

وفي صبـاح اليـوم ذاتـه، وكان يـوم الخميـس، حيـث العطلـة الأسـبوعية آنـذاك، اتّصـل بي وقصّ عليّ مـا حـدث في المطـار، فاتّصلتُ على الفـور بمكتـب مقديشـو، والـذي أكّـد لي أن مـازن سـافر إلى جيبـوتي بالفعـل، انتظـرتُ حتى يـوم السبـت، وهاتفـتُ أسرة مـازن لأسـألهم عنـه، فلـم تكـن لديهـم معلومـات أكثر مـن أن مـازن مسـافرٌ مـع الإغاثـة السـعودية.

حينهـا قـرّرتُ أن أتّصـل بمكتـب مقديشـو ثانيـةً، وطلبـتُ إطْلاعـي على الحقيقـة، وهدّدتُهم باتّخـاذ الإجـراءات الإداريـة ذات الصلـة إن اسـتمروا في الكـذب عليّ، فاضطـرّوا حينهـا إلى إبلاغـي بالحقيقـة، فقـد ألقـي القبـض على مـازن في المطـار؛ حين فتّشـوه ووجـدوا معـه مبلغًـا مـن المـال أكبر مـن المثبـت في الإقـرار، وقـد حوكـم، وحُكـم عليـه بالسـجن لخمسـة عشر عامًـا، وهـو الآن مـودعٌ بالسـجن، بعـد أن صـادروا مـا وجـدوه معـه مـن مـالٍ.

أجريـتُ عـددًا مـن الاتصـالات، حتى تمكّنّـا مـن التواصـل مـع مكتـب رئيـس الدولـة محمـد سـياد بـري، فوعدونـا بإصـدار أمـرٍ رئـاسيٍّ بخروجـه مـن السـجن، لكـنني لـم أنتظـر أن يصـدر هـذا الأمـر أو لا يصـدر، فاتّجهـتُ على الفـور إلى رئيـس الهـلال الأحمـر، وقـد كان موجـودًا في هـذه الأثنـاء بمقديشـو كذلـك، وعرضـتُ عليـه مـا حـدث، فطلـب منّي أن أعـود إليـه بعـد ظهـر هـذا اليـوم، بعـد أن يكـون قـد أجـرى اتصالاتـه.

وبعـد عـددٍ مـن الاتصـالات، تحقّـق أولًا مـن سـجن مـازن بالفعـل، ثـم بـذل جهـودًا لإخراجـه على مـدار الأيـام التاليـة، إلى أن خـرج بعـد قضـاء ثمانيـة أو تسـعة أيـام في السـجن، وعـاد إلى الريـاض بعـد أن سـلّمني الصـور، ولـم يشـارك في أيّ عملٍ إغاثيٍّ بعدها.

بعدهـا بحـوالي عـام.. كنـتُ شـاهدًا على قصّـة أحمـد الخلـف، وهـو تاجـر سـعودي يعمـل في تجـارة الماشـية في المملكـة، جـاءه تاجـرٌ صومـالي ذات يـومٍ ليعـرضَ عليـه شـراء أغنـامٍ وإبـلٍ بأسـعارٍ زهيـدة مـن الصومـال، فرآهـا أحمـد فرصـةً سـانحة فانتهزهـا، واتّفـق مـع التاجـر الصومـالي على أن يُسـافرا إلى الصومـال؛ لعلهـا تكـونَ سـوقًا مفتوحـةً للاستثمـار فيهـا، وكان ينـوي أن يفتـح حسـابًا في مقديشـو إن كانـت الحال كذلـك، فحمـل معـه شـيك سـفر (Traveller›s cheque) لهـذا الغـرض.

حين وصلا إلى المطـار، سُـئل أحمـد عمّـا يحملـه مـن مـالٍ، فظـنّ أن السـائل متسـوّل أو يطلـب إكراميـة، فأجابـه بالنفـي، ولـم يعلّـق رفيقـه التاجـر الصومـالي ـمفسّرًا سـبب السـؤال ـ كمـا كان يجـدر بـه أن يفعـل.

ثـم خرجـا مـن المطـار، وسـافر أحمـد على مـدار خمسـةٍ وعشريـن يومًـا برفقـة هـذا التاجـر إلى المواقـع التي حدّدهـا للأغنـام والإبـل في أرجـاء الصومـال كلهـا، وانتهـت هـذه الرحلـة دون التوصُّـل إلى اتّفـاقٍ، فعـاد إلى مقديشـو؛ ليسـافر عائـدًا إلى المملكـة، لكنهـم اسـتوقفوه في المطـار بعـد أن طالبـوه بالإقـرار المـالي، فأجابهـم أنـه لا يحملـه، فمنعـوه مـن السـفر، وصـادروا مـا معـه مـن مـالٍ، وحوكـم بعدهـا، فحُكـم عليـه بالسـجن لخمسـة عشر عامًـا، بالإضافـة إلى غرامـةٍ ماليّـة.

حينمـا نُقـل إلى السـجن، طلـب إبلاغ سـفارة المملكـة بوجـوده هنـاك، فلمّـا بلغـه النبـأ، أرسـلوا موظّفًـا مـن السـفارة، فاطّلـع على القضيـة، واسـتمع إلى أحمـد واطمـأنّ عليـه، ثـم انصرف، وبعدهـا اتّصـل السـفيُر بمديـر مكتـب الإغاثـة، وطلـب منـه أن يتـولّى قضيّـة أحمـد الخلـف؛ بحُكـمِ تجربتنـا السـابقة في قضيـة مـازن جاسـم التركي.

اسـتجاب مديـرُ المكتـب لطلـب السـفير، واتّجـه إلى السـجن؛ لمقابلـة أحمـد والاطمئنـان عليـه، ثـم ذهـب بعدهـا إلى المحكمـة؛ لمعرفـة موقفـه القانـوني، ففوجـئ أنـه على ذمّـةِ قضيتيْـن: الأولى وهـي حيـازة أمـوالٍ دون إفصـاح، وهـذه كان يعرفهـا أحمـد، وهـي شـبيهةٌ بمـا خبرنـاه في قضيـة مـازن، لكـن الثانيـة كانـت مفاجِئـة! فقـد اتّهمـه التاجـرُ الصومـالي بشـراء ماشـيةٍ دون سـداد ثمنهـا، وهـم ينفقـون على رعيهـا الكـثير، ومـن ثـمّ فقـد طالبـوا بثمنهـا وتعويضًـا عمّـا أنفقـوه، وهـو مـا جعـل أحمـد مدينًـا بالكـثير، ربمـا أكثر ممّـا يسـتطيع سـداده.

كان ضِمْـن المعلومـات التي عرفهـا مديـرُ المكتـب موعـدَ جلسـةِ محاكمتـه القادمـة، فقـرّر أن يحضرهـا، وكان أحمـد حـاضرًا كذلـك، وحينهـا تدخّـل مديـر المكتـب ليطلـب مـن القـاضي إعطـاءه مهلـةً لتدبيـر أمـوره وإعـداد دفاعـه، فسـأله القـاضي: هـل تكفـل حضـوره؟

فأجابـه مديـرُ المكتـب بالإيجـاب، لكنـه لـم يوقّـع على أيّ مسـتندٍ يُثبـت ذلـك، ومـن ثـم فقـد أطلـق القـاضي سـراحَه، واسـتغل أحمـد الخلـف الفرصـةَ، فسـافر هاربًـا إلى السـعودية.

وربمـا ظـنّ مديـرُ المكتـب أن الأمـر انتهـى بسـفر الخلـف إلى السـعودية، لكنـه فـوجئ ذات يـومٍ باسـتدعائه للمثـولِ أمـام القـاضي لسـؤاله عـن أحمـد الخلـف، فأجـاب: إنـه في السـعودية.

وإذا بالقاضي يقول: لقد كفلتَ حضوره، فإن لم يحضر، فأنت مكانه.

فتحجّج مدير المكتب قائلًا: لكني لم أوقّع على ذلك.

فحسم القاضي الأمر قائلًا: لقد كفلته أمامي، والقضاة شهود.

عنـد هـذه النقطـة.. اتّصـل بي مديـرُ المكتـب، وقـد لمسـتُ في صوتِـه المرتعـش خوفـه

الواضح؛ فقد كان يخشى أن يصلَ هذا الخبر إلى رئيس الهلال الأحمر السعودي ورئيس لجنة الإغاثة، والذي كان حازمًا تجاه هذه المواقف، فقد أخطأ مديرُ المكتب حين تدخّل في أمرٍ لا علاقة له بعملِه وبالمهام المُكلّف بها في الصومال، وكان يُفترض به أن يتركَ هذا الأمر للسفارة؛ فهي جهة الاختصاص في هذا الشأن.

لكنني على كل حالٍ طمأنتُه، ولم أكن لألومَه في موقفٍ كهذا، وسارعتُ بالاتّصال بعدها بالسيد أحمد الخلف – فقد كنتُ وقتها في الرياض بحكمِ عملي منسّقًا لمكاتب الإغاثة – واتّفقتُ على زيارته في مكتبه هذا المساء، وكان أحمد الخلف رجلًا لطيفًا ومثقّفًا وواعيًا، رحّب بي في مكتبي، وشكرني كذلك على الدور الذي لعبه المكتب مع السفارة في إنقاذه وإخراجه من السجن، وبالطبع لم ينسَ موقف سعد السويد الذي ضمنه بالمحكمة، ورأيتُ أن الفرصةَ سانحةٌ آنذاك لمحادثته عن موقف سعد السويد الحَرِج، فانبرى الرجلُ مدافعًا عن نفسه، وحكى لي قصّته في تجارة الماشية التي يستوردها من بلدان عدّة، مثل: الهند وأستراليا، ولم يسبق له أن واجه أيّة مشكلاتٍ من هذا النوع، وفوجئ بنفسه متَّهَمًا في بلدٍ غريب، ومتورّطًا في قضايا لا ذنب له فيها، ولم يعرف كيفية التصرُّف، وهو ما جعله يعلن أمامي أنه لن يذهب إلى الصومال ثانيةً مهما حدث! فسألتُه: لكن، ماذا عن سعد السويد؟! فلقد تورّط في قضيتك من أجلِ إنقاذك.

حينها أكّد لي أنه سيُخرجه من محبسِه، حيث سيطلب من محاميه أن يخاطب وزارة الخارجية، فقد كان مستعدًّا للمحاكمة في أيّ مكان، باستثناء الصومال، وبالفعل فقد كتب خطابًا إلى وزارة الخارجية، وبناءً عليه خرج سعد من سجنه بكفالةٍ على ذمّة القضية، لكن القضية نفسها دفِنَت تحت الثرى حين اشتعلت ثورةُ الصومال، وأزيح محمد سياد بري وحكومته من السلطة.

مـالـي

ـ لا مفـر ـ

في عـام ١٩٨٨م كُلِّفْتُ بإدارة مكتب الإغاثة السعودية في مدينة باماكو عاصمة مالي، الإمبراطورية التي وصفها الرحالة ابن بطوطة بأنها واحدة من أعظم ثلاث قوى رئيسة في القارة الإفريقية، جنبًا إلى جنب مع دولة المماليك في مصر، ودولة المرينيين في المغرب.

مملكة مالي، أو الدولة الإمبراطورية، هي إحدى الحضارات الإفريقية التي ازدهرت خلال الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر، وامتد حكم إمبراطورية مالي لأكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن، كانت البداية في منتصف القرن الحادي عشر حين اعتنق ملوك كانجابا الإسلام، وأنشؤوا دويلة صغيرة انفصلت عن الصوصو الوثنيين، مستغلة الصراع الذي نشب بين المرابطين ومملكة الصوصو، حينها كَوَّن رجل يدعى سوندياتا كيتا ملك كانجابا، الذي عُرف تاريخيًّا باسم: الملك الأسد، اتحادًا للقبائل في الوادي الخصيب بأعالي نهر النيجر وأخضع جيرانه تحت سيطرته، مؤسسًا إمبراطورية مالي التي فاقت مساحتها نظيرتها مملكة غانا.

لكن توسعات كيتا أثارت حفيظة ملك الصوصو، فحاول أن يُخضِع مملكة كانجابا الناشئة، لكن الملك الأسد – ملك كانجابا – استطاع أن يهزم ملك الصوصو ويقتله في إحدى المعارك سنة ١٢٣٥م، ويضم بلاده إلى مملكته الجديدة. ثم استطاع شيئًا فشيئا أن يوحِّد القبائل المختلفة تحت سيطرته، وبذلك أسس إمبراطورية مالي.

وسار خلفاء سوندياتا كيتا على نهجه فاستمروا في توسيع حدود الإمبراطورية، حتى بلغت مملكة مالي ذروة مجدها وقوتها واتساعها في عهد مانسا موسى، الذي استولت جيوشه على مدينة ولاته، وتمبكت، وجاو في النيجر الأوسط، حتى فاقت مساحة مالي في عهده مساحة كل دول غربي أوروبا مجتمعة.

يعـتبر الإمبراطـور منسـا مـوسى أشـهر حـكام مملكـة مـالي وأغناهـم على الإطلاق، حتى إنـه لُقب بـأغنى رجـل في التاريـخ، ففي عهده ازدهرت المملكـة إلى حـدٍّ كـبير، خاصـة بعـد أن امتـد نفـوذ مملكتـه جنوبًـا حتى مناجـم الذهـب.

وعلى الرغـم مـن أن الصلـة بين المملكـة ومصر لطالمـا كانـت قويـة منـذ فجـر الدولـة، فـحين خـرج الملـك منسـاولي بـن مـاري جاطـة لأداء فريضـة الحـج قـرر المـرور بـمصر أولًا وكان ذلـك في عهـد السـلطان بـيبرس، وانتهـز هـذه الفرصـة لتدعيـم العلـم والثقافـة في مملكتـه، فـاشترى مجموعـة مـن الكتـب الدينيـة ليوفـر لأهـل بلـده جانبًـا مـن الثقافـة الإسلاميـة التي كانـت مصر مركـزًا لها في ذلـك الزمـان، ثـم اتفـق على تبـادل العلمـاء، فذهـب الكـثير مـن علمـاء مصر إلى مـالي، مثلمـا انتقـل علمـاء مـالي إلى مصر، وكان لهـم رواق في الأزهـر يقيمـون فيـه يسـمى: رواق التكـرور، إلا أن هـذه الرابطـة العميقـة مـن الدولـة المصريـة قـد تطـورت بشـكلٍ ملحـوظ في عهـد السـلطان منسـا مـوسى، فخروجـه لأداء فريضـة الحـج عـام ١٣٢٤م اتخـذ شـكلًا أسـطوريًّا خلدتـه كتـب التاريـخ، فقـد سـلك الملـك كعـادة ملـوك مـالي طريقـه عبر القاهـرة، حـاملا ٥٠ ألـف أوقيـة مـن الذهـب، وزع أكثرهـا على النـاس في صـورة هدايـا أو صدقـات في مصر ومكـة، كمـا بعـث إلى الخزانـة السـلطانية في القاهـرة بحمـل كـبير مـن الذهـب، ويقـال إن سـعر الذهـب انخفـض في العالـم لـكثرة مـا وزع مـن ذهـب على طـول الرحلـة.

ولأنـه كان عالمًـا وعاشـقًا للعلـم والثقافـة، فقـد قـام ببنـاء عاصمـة جديـدة لمـالي وهـي: تمبكتـو، وجعلهـا المركـز الرئيسـي للتعليـم والثقافـة في قـارة إفريقيـا، فـكان طلاب العلـم يقصـدون جامعـة سـانكوري المعروفـة بجامـع تمبكتـو الكـبير مـن جميـع أنحـاء القـارة السـمراء للدراسـة بهـا، وهـي عبـارة عـن جامـع كـبير يوجـد في حي سـانكوري بمدينـة تمبكتو، تعاقـب على إمامتـه أهـل آقيـت، ومـن هـذه الأسـرة العلامـة أحمـد بابـا التمبكتي.

وفي أواخـر القـرن الرابـع عشر بـدت على المملكـة مظاهـر الضعـف العسـكري، وبـدأت تسـتقل عنهـا بعـض الأقاليـم الخارجيـة واحـدًا تلـو الآخـر، وبلـغ ضعـف المملكـة غايتـه في القـرنين الخامـس عشر والسـادس عشر، حتى إنهـم اسـتنجـدوا بالعثمانـيين في المغـرب، وبالبرتغاليين على سـاحل إفريقيـا الغـربي، ولكـن لـم ينجدهـم أحـد، وتركـوا السـلطان سُني علي سـلطان إمـارة صنغـى يتوغـل في سـلطنة مـالي، حتى سـقطت في يـده تمبكتـو، ليرث بذلـك مملكـة مـالي.

وفي منتصـف القـرن السـابع عشر، أصبحـت المملكـة التي كانـت واحـدة مـن القـوى الثـلاث في إفريقيـا، مجـرد دويلـة صـغيرة في كانجابـا كمـا كانـت مـن قبـل، ولكـن في أواخـر القـرن

التاسـع عشر حـاول سـاموري التـوري آخـر زعيـم لكانجابـا أن يعيـد مجـد مملكـة مـالي، سـالكًا النهج ذاتـه الـذي اتبعـه الملـك الأسـد عبر توحيـد شـعب الماندنجـوه، إلا أن القـوات الفرنسـية قضـت على حلمـه سـنة ١٨٩٨م، ونفتـه إلى الجابـون، ليمـوت عـام ١٩٠٠م، لتكتـب بذلـك كلمـة النهايـة في حكايـة مملكـة كانـت الأقـوى في القـارة السـمراء.

كان الصيـدلي بتـال سـيف البتـال قـد جـاء لتـوّه إلى الريـاض عائـدًا مـن موريتانيـا، حيـث كان منتَدَبًـا بمكتـب الإغاثـة السـعودية فيهـا، وكان مقـرّرًا أن يرافـقني في رحـلتي هـذه إلى مـالي، فسـافرنا سـويًّا مـن الريـاض إلى باريـس، ومـا إن نزلنـا في مطـار شـارل ديجـول، حتى التقينـا مصادفـةً بصديقـي القديـم عبـدالله الحسيني مديـر مكتـب الخطـوط الجويّـة السـعودية في الصومـال، والـذي انتقـل عمله إلى فرنسـا، وكان سـعيدًا للغايـة برؤيتنـا، كنّـا قـد حجزنـا غرفـةً بفندقٍ للراحـة قبـل السـفر إلى مـالي، فلحـق بنـا ودعانـا للعشـاء في مطعمٍ يعرفـه، وسـهر معنـا طـوال الليـل، ثـم أوصلنـا إلى الفنـدق وودّعنـا، فقـد كان مخطّطًـا أن يسـافر بتـال في اليـوم التـالي إلى نواكشـوط، وأسـافر أنـا على الخطـوط الفرنسـية إلى باماكـو التي وصلتُهـا فجـرًا، حيـث كان في اسـتقبالي لـدى وصـولي السـيدُ سـعيد القـرني مديـر المكتـب، والـذي اصطحـبني إلى السـكن.

وفي اليـومِ التـالي مبـاشرةً.. كنّـا على موعـدٍ مـع السـفير محمـد مرعـي الحسيني، وكذلـك مـع الرجـل الثـاني في السـفارة مسـاعد العـنزي، وهمـا اللـذان اسـتقبلانا بحفـاوةٍ تـدلّ على علاقتهمـا الطيبـة بالقـرني، والـذي حضر ليـودّع الاثـنيْن وليوقّـعَ كذلـك على خطـابِ اعتمـاد توقيعي لـدى المصرف بـدلًا مـن توقيعه، واتّجهنا بعدها إلى المصرف لاستكمال الإجـراءات، ثـم تحرّكنـا صـوب هيئـة التموين، وهـي هيئـة حكوميـة تعاقدنـا معهـا لتوريـد المـوادّ الغذائيـة المصنوعـة محليًّـا إلى أماكـن التوزيـع التي نحدّدهـا، والتقيـتُ بالأشـخاص المسـؤولين فيهـا وتعرّفـتُ عليهـم، ثـم قـرّر أن يصطحـبني في جولـةٍ في مدينـة باماكـو، ثـم ودّعني ورحـل.

كان مـن المفـترض أن يرافـقني زميـلٌ مُكلّـف بالعمـل معـي، لكنـه اعتـذر لظـروفٍ طارئـة ألمّـت بـه، وتأخّـر إرسـال البديـل، كان كل مَـن لـديّ هـم العمّـال المحليـون: المترجـم والسـائق، وهـم مـن قبيلـة الأنصـار العربيـة في الصحـراء الـكبرى، والطبّـاخ والحـارس، وهـم مـن قبيلـة البامبـارا، كمـا كانـت لـدى المكتـب سـيارةُ جيـب لانـد كـروزر تحـت تصرُّف الفريـق.

كنـتُ على درايـةٍ بالآليّـة التي تتمّ وفقًـا لهـا عمليـةُ التوزيـع في مـالي، فقـد أطلعني القـرني قبـل رحيلـه على مـا أحتـاج إلى معرفتـه، فكانـت هيئـة التموين تـورّد حصـةَ التوزيـع إلى

بوريـم وقنـدام وديـري وتخزّنهـا، وبمجـرّد وصولنـا، نبـدأ في وضـع خطّـة التوزيـع، ومـن ثـم ننقـل المـوادّ إلى الأماكـن التي حدّدناهـا، ثـم نوزّعهـا بعـد التنسـيقِ مـع مسـؤولي المدينـة المقصـودة.

كان عليّ أن أبـدأ التحـضير لعمليـة التوزيـع القادمـة، على الرغـم مـن عـدم وصـول مَـن يُساعدني إلى الآن، لـذا طلبتُ من السفير أن يُكلّفَ أحد الدعـاةِ بالسفر معي، واستجاب السـفيُر، فكلّـف مـوسى شـداد، وهـو رجـل صـالح مـن الطـوارق، قضى سـنواتِ دراسـته في المدينـة المنـورة، وحين نالـت مـالي اسـتقلالها عـام ١٩٦٣م، عـاد هـو وزميـلٌ لـه إلى مـالي كي يعمـلَ في مجـال الدعـوة، ولـم أكـن أتوقّـع أن أواجـه صعوبـاتٍ في التعامـل مـع رجـلٍ مثلـه، خاصّـةً أن أهـلَ مـالي ودودون ومتديّنـون ويسـود عليهم الطابع القبلي، فلـم أشـعر بينهم بالغربـة أو الاخـتلاف.

جهّزنـا كل مـا يلزمنـا للسـفر، ولـم يتبـقّ سـوى سـحب المـال المطلـوب مـن الـمصرف، فاتّصلـتُ بالسـفارة؛ لأطلـب سـائقًا يوصلني إلى الـمصرف بعيـدًا عـن أنظـار رفقـاء السـفر، فقـد علّمـتني التجـاربُ أن أميـلَ إلى الحيطـةِ والحـذر في تصرُّفـاتي كلهـا، وبالفعـل ذهبـتُ وسـحبتُ المبلـغ المطلـوب، ثـم عـدتُ لأضعَـه في خزنـة المكتـب خفيـةً.

كنـتُ قـد بـدأتُ أختلـط بالجاليـة السـعودية في مـالي، فقـد عرّفـتني السـفارةُ على ثلاثـة مـدرّسين سـعوديين يعملـون في مـدارس باماكـو، وهـم: محمـد السـالم وسـعود الصقـر وجمعـان الزهـراني، ومـن خلال هـؤلاء تعرّفـتُ على مدرسيْن كويـتييْن، وهمـا: نعمـان العبـدالله

ومبـارك العجمـي، وتعرّفـتُ كذلـك على مـدرسين مصريين، وصرتُ أمـارس الرياضـةَ برفقتهم، وكان يـزور بعضُنـا بعضًـا، أو نلتقـي في أماكـنَ يختارونهـا، وعـادةً مـا ينضـمّ إلينـا كذلـك بعـضُ العامـلين في السـفاراتِ العربيـة.

وقبيـل سـفرِنا دعـاني السـفيرُ إلى عشـاءٍ في مطعـمٍ روسي بالمدينـة، وحضره مسـاعد العنزي الـذي قويت علاقتي بـه على مـدار الأيـام الماضية، إذ كان يـداوم على زيارتنـا بصورةٍ يوميّـة، كمـا كان يصحـبني في المدينـة للتمشـية مـن حينٍ إلى آخـر، فكنـتُ أقضي معـه معظـمَ يومـي، كان عشـاءً مـميّزا، اسـتمتعتُ بالطعـام والصُّحبـة، ثـم قضيـتُ السـهرة برفقـة مسـاعد العنزي الـذي دعـاني إلى بيتـه بعـد العشـاء.

وحين توجّهـتُ إلى المكتـب في اليـوم التـالي فوجئـتُ بالحسـن السـائق، يحـادثني بشـأن المـال الـذي سـحبتُه مـن المـصرف، والـذي رآه غير كافٍ لهـذه الرحلـة، فتعجّبـتُ ممّـا قالـه، وسـألتُه:

ــ «هل تعرف كم سحبتُ من المصرف؟!»

فأجابني:

ــ «نعم».

فسألتُه عن الطريقة التي علم بها معلومةً كتلك، فأجابني:

ــ «أخونا في المصرف أخبرني».

كنـتُ أعـرف الكـثير عـن الحسـن، فقـد كان يعمـل سـائقًا في اللجنـة الدوليـة للصليـب الأحمـر، وتـزوّج موظّفـةً سـويسرية مـن العامـلين باللجنـة، والتي سـبق لهـا العمـل في لبنـان، حيث فقدت قدمها بسبب انفجـار لغمٍ أرضيّ، وأنجـب منها طفلًا قبل أن تعـودَ إلى سـويسرا، وهـي تعمـل جاهـدةً كي يلحـقَ بهـا هنـاك.

وكان الحسـن _كما عرفتـه_ رجلًا قويًّـا وسـائقًا متمرّسًـا، يعـرف دروبَ الصحـراء الـكبرى، ويعـرف النجـومَ ومنازلهـا، لـذا كنـتُ أخشى الغـدرَ من رجـلٍ كهذا، لكـن لـم يكـن أمامي مـن خيـارٍ، ففوّضـتُ أمـري للـه، وتوكّلـتُ عليـه.

تحرّكنـا فجـرًا أنـا وحسـن السـائق وسـديدي المترجـم وموسى شـداد الداعيـة وإبراهيـم الطبـاخ تجـاه بوريـم التي تقـع في جـاو، والتي تبعـد عـن باماكـو حـوالي مئـة كـم، وصلنـا سـيجو قبـل الظهـر، وهـي مدينـة زراعيـة تقـع على نهـر النيجـر وتمتـاز بأشـجارها الكـثيرة، فأنزلنـا معدّاتنـا، وفرشـنا الأرض، وبـدأ إبراهيـم يجمـع الحطـب ويشـعل النـار للطهي وإعـداد

القهـوة، صلّينـا الظهـر والـعصر جمعًـا وقصرًا، وتمشّينـا بطـولِ ضفّـة النهـر، وتحدّثنـا مـع بعـض الأهـالي، ثـم واصلنـا رحلتَـنا بعـد أن تناولنـا الطعـام وشربنـا القهـوة، واقترح حينهـا مـوسى أن نبيـتَ عنـد صديـقٍ لـه قـد زاملـه أثنـاء دراسـته في المدينـة المنـورة، ويقطـن في قريـةٍ على طريقنـا، فوافقنـا على اقتراحـه، وتحرّكنـا تجـاه بيتـه، وطرقنـا بابَـه بعـد صلاة المغـرب، ومـا إن رأى الرجـلُ مـوسى أمامـه حتى احتضنـه طـويلًا، ثـم عرّفـه مـوسى عليّ، وشرح لـه طبيعـة مهمّتنـا والغـرض منهـا، فتجلّـت أمـاراتُ السـعادة على وجهـه بينمـا يرحّـب بنـا هـو ومـن ورائـه أهلُـه، فقـد كان يسـكن بيتًـا يتكـوّن مـن سـاحةٍ تُحيـط بهـا غـرفٌ كـثيرة مبنيّـة مـن الـطين، وكانـت هـذه الغـرف تزدحـم بالرجـال والنسـاء.

صلّينـا المغـرب والعشـاء في سـاحة بيتـه، ثـم أعـدّ إبراهيـم العشـاء، تناولنـا الطعـام، ثـم جلسـنا جميعًـا نتبـادلُ الأحاديـث والحكايـات، وبالطبـع حدّثنـا مضيفُنـا عـن ذكرياتـه في المدينـة المنـورة، وعـن عودتـه إلى مـالي، وسـألناه عـن عـاداتِ أهلهـا وتقاليدهـم، ثـم حدّثنـا عـن أسـلحة الشـوزن التي يصنعهـا، وهـي بنـادقُ صيْـدٍ تُصنـع يدويًّـا، وقـد أهـداني واحـدةً منهـا كانـت على شـكل مسـدّس، تأمّلتُهـا مطـوّلًا بين يـدي، كان شـكلها رائعًـا، وكانـت دقّـةُ صناعتهـا باديـةً في تفاصيلهـا كلهـا.

واصَلْنـا رحلتَـنا بعـد صلاة الفجـر، ووصلنـا مـوبتي قـرب وقـت الظهـر، فتزوّدنـا بالوقـود، واشترينـا فاكهـة تناولناهـا في السـيارة، ثـم اسـتكملنا الرحلـة إلى جـاو التي تقـع بعـد النهـر، وهـو مـا يـعني ضرورة عبـور الجسر الـذي يتـمّ إغلاقـه في الخامسـة مسـاءً قبـل أن يُعـاد فتحـه في السـادسـة مـن صبـاح اليـوم التـالي.

كنّـا بحاجـةٍ لمـكان نـقضي فيـه الليلـة، ومـن المعتـاد أن تحتـوي كلُّ قريـةٍ على غـرفٍ لاسـتضافة المسـافرين على الطريـق، وعـادةً مـا تكـون غرفًـا متجـاورةً على الجانبيْن وبـدون أبـواب، فنزلنـا بهـا، وانضـمّ إلينـا مسـافرون آخـرون، أعددنـا عشـاءنا وشربنـا قهوتنـا، ثـم تبادلنـا الحديـث مـع جيراننـا مـن النزلاء، ثـم حاولنـا النـوم بعدهـا، لكـن لـم نهنـأ بنومنـا بسـبب البعـوض المـنتشر بكثافـةٍ هنـاك.

صلّينـا الفجـر، ثـم واصلنـا رحلتنـا، فعبرنـا الجسر إلى جـاو، ومشينـا حتى نهايـة الطـرق المرصوفـة، وكان علينـا أن نـمشي بعدهـا في طريـقٍ ترابيـة، وصـولًا إلى جـاو، وهـي مدينـةٌ بيوتهـا مـن الـطين، لـم تصلهـا المرافـق، فلا مـاء ولا كهربـاء، لكـن كانـت بهـا مضخـات وقـود ومسـاكن معـدودة.

بحثنـا عـن مـكانٍ لنسـحتمّ بـه، فلـم نجـد، لـولا أن واحـدًا مـن الأهـالي أكرمنـا باسـتقبالنا

في بيته، وباستخدام حمّامه، وكان حمّامه متواضعًا للغاية، فأرضيتُه إسمنتية، ولا شيء فيه يستر مَن بداخله سوى ستارة قماشية بدلًا من الباب الخشبي، ويجلبون الماء إلى هذا الحمّام في سطول، وكانت بالمدينةِ دكاكين تبيع الماء، لم تكن لدينا رفاهية الاختيار، فكان لا بدّ من أن نرضى بالأمر الواقع، فما ينتظرنا ليس الأفضل، فبعد جاو كنّا سنمرّ بمُدُنِ وقرى الصحراء الكبرى.

تحرّكنا في صباح اليوم التالي باتجاه بوريم، وصلناها عصرًا، وتوجّهنا مباشرةً إلى النُّزُلِ، فقد كنّا مُتعَبين كثيرًا بعد هذه الرحلة الطويلة، لكننا فوجئنا به خاليًا من الأثاثِ، لذا أحضرنا ما حملنا معنا من فرشٍ، ونظّفنا المكان وفرشناه، وشرعنا في إعداد الطعام، ارتحنا قليلًا وصلّينا، ثم تناولنا طعامنا، وكان الناس بالخارج يستطلعون أخبار القادمين، فما إن تصل سيارةٌ حتى يتوافدون عليها ويسألون عن التوزيع والمساعدات الأخرى، كانوا في حالٍ يُرثى لها، وفي انتظار أي مساعدة بعد المعاناة التي عانوها من الجفاف.

نِمْنا مبكّرًا؛ لأن أمامنا يومًا حافلًا في الغد، إذ كان علينا أن نبدأ توزيع الموادّ الغذائية منذ الصباح الباكر، فاستيقظنا فجرًا وتناولنا إفطارنا، ثم جاء مسؤولو المدينة، وكانوا قد أعدّوا القوائم الخاصّة بالأعداد والأسماء والمواقع؛ لتسهيل عملية التوزيع، فبدأنا العمل على الفور، أخذنا الموادّ من المخزن، ونقلناها بشاحناتٍ إلى الموقع المحدّد،

وبدأنا التوزيعَ الجماعي حتى انتهينا قبيل غروب الشمس، فعُدْنا مجدّدًا إلى النُّزل لنرتاح، صلّينا وتناولنا طعام العشاء، ثم زاحَمْنا البعوضَ في الغرفة لننام.

وفي صباح اليوم التالي.. جاءنا بعضُ الأهالي؛ ليشكرونا على ما قدّمناه من أجلهم، وليطلبوا مساعدتهم في توفير ما تحتاجه المدينة، كبناءِ مسجد أو مدرسة أو حفر بئرٍ للمياه، فاستمعنا لطلباتهم، وحاولنا فعلَ ما بإمكانِنا في سبيل تحقيقه.

كنّا نعدّ العُدّة للذهابِ إلى قوندام، حين فوجئنا بقدوم رجلٍ مسنٍّ ذي لحيةٍ بيضاء طويلة، ومن خلفِه رجلان يتبعانه، وكان يظهر أنهما مريضان، سلّم علينا وعرّفنا بنفسه بصفته شخصًا يُداوي مَن به مسّ من الجنّ، وأخبرنا بأن في بيتِه عشرين شخصًا لم ينالوا نصيبهم من التوزيع بالأمس، وتحدّانا قائلًا:

ـــ «لن تذهبوا حتى تصرفوا لهم الطعام».

حاولنا أن نُفهمه أن توزيع الموادّ الغذائية تمّ وفقًا لقوائم الأسماء التي سلّمها لنا المسؤولون، وأن لا دخل لنا بها، وعرضنا عليه مبلغًا ماليًّا في المقابل، لكنه رفض؛ إذ كان يريد الطعام فحسب، لذا استسلمنا أمام إصراره، وأرسلنا مَن يشتري له طعامًا، ثم قدّمناه له، فتركنا ورحل.

تحرّكنا إلى قوندام، وفي الطريق اقترح حسن أن نزورَ واحدًا من إخوانه من الأنصار، كان متزوّجًا من فرنسية، ويعيش في قريةٍ قريبة على الطريق، مؤكّدًا أننا سنجد عنده الراحةَ والطعام الجيّد، فرحّبنا بهذه الفكرة، واتّجهنا مباشرةً إلى بيته، وما إن وصلنا، حتى رأينا أكواخًا نظيفة ومرتّبة، قد أنشِئت بتجهيزاتٍ بسيطة من البيئة المحيطة، كان المكان مريحًا، وما إن تعرّف مضيفُنا علينا وعلى سبب مجيئنا إلى هنا، حتى رحّب بنا، فشعرنا بالألفة لوجودنا في هذا المكان.

دعانـا مضيفنـا إلى الإقامـة بأحـد الأكـواخ، كان كوخًـا واسـعًا ونظيفًـا ومرتّـبًا، وأعـدّ لنـا الأتـاي، وهـو شـاي أخضر شـديد المرارة يتـمّ غليُه طويلًا على نـار الحطب، وبدأ يـحكي قصّتـه:

«درسـتُ في فرنسـا لخمس سـنوات، وهنـاك تعرّفـتُ على زوجتي أثنـاء الدراسـة، أحببتُها وأحـبّتني هـي أيضًـا، وخطّطنـا لحياتنـا القادمـة معًـا، لكـن حين أنهيـتُ دراستي فكّـرتُ في المصاعـبِ التي تحـول بيننـا، فأنا كما تـرون أعيـش في بيئةٍ ريفيـةٍ بَدَويـةٍ تفتقـر إلى أبسـط المقوّمـات الحياتيـة، فقـرّرتُ العـودة إلى جـاو دون أن أخبرهـا بشـأن ذلـك، فبَحَثَـتْ عنّي، إلى أن عَلِمَـتْ بسـفري، وكانـت تعـرف كل شيءٍ عنّي وعـن أهلي وعـن القريـة التي أعيـش فيهـا، وربمـا مـا سـاعدها هـو أن مـالي هـي واحـدة مـن مسـتعمرات فرنسـا، لـذا لحقـت بي إلى هنـا، أغمضتُ عـيني وفتحتُهمـا، فرأيتُها واقفةً أمامي، وكأنهـا جِنِيَّـةٌ ظهـرت مـن العـدم، فعاتبـتني على هـربي، لكـنني اعتـذرتُ مبّررًا تصرُّفي بمـا تـراه مـن حولهـا، فلـم أكـن أريدهـا أن تشـقى هنـا، حتى إن كانـت مسـتعدّة لذلـك، لكنهـا قالـت:

ــ «إنه مصيُرنا».

فلم يعد لديّ ما أقوله، ولقد أسلمتْ، وتزوّجتُها وبدأنا حياتنا سويًّا.

ثم أكمل كلامه قائلًا:

ــ «وهي مَن أعدّت هذا المكان ليكونَ مصدر رزقِنا، ويتوافد علينا السيّاحُ طوال العام».

أعـدَّ مضيفُنـا غـداءً فاخـرًا مـن الخبز المـحليّ وأنـواع الجبن المختلفـة، بالإضافـة إلى المقـبّلات والكسـكسي باللحـم وكذلـك الحلويـات، ارتحنـا كـثيرًا لإقامتنـا في هـذا المـكان، فقرّرنـا البقـاء حتى صبـاح الغـد؛ فقـد كنّـا معجبين بالطعـام والشراب والأُنس، وهـي أشـياءٌ افتقدناهـا كـثيرًا في هـذه الرحلـة.

في صبـاح اليـوم التـالي كنّـا مضطرّيـن لمواصلـة الرحلـة إلى تمبكتـو، وهنـاك رأينـا مظاهـرَ احتفاليـة، فقـد تـمّ تـزيين الإبـل، واجتمعـتْ في السـاحةِ أعـدادٌ كـبيرة مـن الخيـول، فحاولنـا تـقصّي الأمـر، إلى أن أخبرنـا أحدُهـم: هلمـوت كـول يـزور تمبكتـو.

ذهبنـا إلى نُـزُلٍ لنقيـمَ فيـه، ثـم غادرنـاه لنتمشّى قليـلًا في تمبكتـو فهي مدينـة تاريخيـة، تحظى بأهمّيتهـا وقيمتهـا التاريخيـة والحضاريـة في الأوسـاط الثقافيـة، وتضـمّ العديـد مـن المعالـم الأثريـة والإسلاميـة على وجـه الخصـوص، كمسـجد سـيدي يـحيى، ومؤسسـة أحمـد البابـا التي تضـمّ أكثر مـن أربـعين ألفًـا مـن المقتنيـات التي يعـود تاريخُهـا إلى القـرن العـاشر الميلادي.

حين أظلّنـا الليـلُ عُدْنـا إلى النُّزل فنِمْنـا، وفي الصبـاح واصلنـا رحلتنـا إلى قونـدام عبر طريـقٍ رمليّـة، وصلنـا قبـل العـصر، واخترنـا نُـزُلًا لنبيـت فيـه، شـعر سـائقُنا حسـن بارتفـاعٍ في درجـة

حـرارة جسـده، فقد كان يعـاني مـن حمى، وتـبيّن لاحقًا أنه أُصيـب بالملاريـا، فانشـغلنا بـه وسهرنا على رعايتـه وتمريضه، وكنّا _لحسـن الحـظّ_ نحمل معنا أثنـاء تجوالنـا المسـكّنات ودواء الملاريـا (كلـوروكين)، لكـن في اليـوم التـالي تـبيّن أن مـوسى أيضًـا قد أُصيـب بالملاريا، فأمضيْنـا أيامًـا نعـالج الاثنيْن ونرعاهما.

أرسـلنا مَـن يتـقصّى أخبـار المـوادّ الغذائيـة في ديـري التي تقـع على مسـافة خمسـة وعشريـن كيلـو، فعلـم أنهـا لـم تصـل بعـد، وأخبروه بأنهـا في الطريـق وسـتصل خلال أيـام، وانقضـت خمسـةُ أيـامٍ بالفعـل قبـل أن يتـمّ اللـه شـفاءَ حسـن ومـوسى.

وحين وصلـت المـوادّ الغذائيـة أخيرًا، وزّعنـا حصّـة قونـدام، وكذلـك حصّـة ديـري وفقًـا لقائمـة الأسـماء التي سـلّمنا إيّاهـا مسـؤولو المدينـة.

وبعدهـا زارنـا والي قونـدام، وهـو أنصاري مثقّـف، تخـرّج في جامعـات فرنسـا، وكان وزيـرًا في حكومـة مـالي بعـد الاسـتقلال لـدورتيْن أو ثلاث، فسـهر وتحـدّث معنـا، ثـم شـكرنا على المعونـات، وكان معجبًـا بالأثـر الـذي نُحدثـه في اقتصـاد مـالي، بشراء المـوادّ الغذائيـة مـن هيئـة التموين وتوزيعهـا على الأهـالي، فالمسـتفيد هـو المواطـن ذاتـه.

كنّـا نسـكن في طـرف المدينـة، وكان معـي مذيـاعٌ أحملـه، وأصعـد بـه على كثبـانٍ رمليـة، فأجلـس فوقهـا؛ لأعـرفَ مـن خلالـه أخبـار السـعودية كل ليلـة، مراعيًـا فـارق التوقيـت الـذي بين السـعودية ومـالي، الـذي يصـل إلى ثلاث سـاعاتٍ كاملـة.

ذات يـوم .. جاءنـا في النُّزُلِ رجـلٌ وابنُـه، وفوجئـتُ بهمـا يخدموننـا دون طلـبٍ منّـا، فسـألتُ مـوسى عنهمـا، فـأخبرني بأنهمـا كانـا مـن العبيـد الذيـن نالـوا حريّتهـم، لكنهـم لـم يعـودا قادريْـن على كسـب رزقهمـا سـوى بخدمـة الآخريـن، فأكرمناهمـا بمـا تيسّـر لدينـا مـن المـال والطعـام، ولاحظـتُ أن الابـن صـار يتبعني في الليـلِ حين أصعـد الكثبـان الرمليـة، فيجلـس على مقربـةٍ منّي لحـراستي.

في فجـر اليـوم التـالي.. تحرّكنـا عائديـن إلى باماكـو عبر الطريـق الترابيّـة، فوصلنـا سـيجو بعـد المغـرب، وحينهـا شـعرتُ بـأنني مصـابٌ بالحمـى، كانـت حـرارتي مرتفعـة، وكنـتُ أشـعر بـالبرد، فتلحّفـتُ ببطانيـةٍ وباثـنتيْن، ولكـن دون جـدوى، فأيقنـتُ حينهـا أنني قـد أُصبـتُ بالملاريـا، وقضيـتُ سـبع سـاعات داخـل السـيارة وأنـا أُعـاني مـن الحمى، حتى وصولنـا إلى باماكـو.

حين وصلنـا سـاعدوني على النزول، وقـادوني إلى فـراشي، فنِمْـتُ والتحفـتُ بعـددٍ مـن الأغطيـة، واكتشـفتُ أن زميلي قد وصل قبل أيـام، وقبيـل الفجـرِ بَحَـثَ زميلي عـن طبيـبٍ، فلم يجد، لكـن في صباح اليـوم التـالي استيقظـتُ والحمى قـد فارقـت جسـدي، كنـتُ منهـكًا فحسـب، لكـنني كنـتُ سـليمًا مـن المـرض، واللـه وحـده يعلـم مـا حـدث لي.

لكـن مـع غـروبِ الشـمس.. عـادت الحمى مـن جديـد كالأمس، بـل أشـدّ وطـأة، ولـم يُفلـح الكلـوروكين أو المسـكّنات في التخفيـف مـن شـدّتها، واسـتمرّ الوضـع هكـذا لسـبعة أو ثمانيـة أيـام، حتى خسرتُ اثني عشر كيلـو مـن وزني، وشـحب وجهـي، لكـنني شـفيتُ في النهايـةِ بفضـل اللـه.

كنـتُ أعلـم مسـبقًا أن مـالي تعـاني مـن الأوبئـة الكـثيرة، فهي معروفـةٌ بالملاريـا والعمى النهـري الـذي يُصيـب سـكّانَها؛ بسـبب بعـوض الأنهـار، وذبابـة الـتسي تسي التي تُسبّـب داءَ الفيـل، لـذا حمـدتُ اللـه على خـروجي منهـا سـالمًا، ولـم أكـن لأنسى فضلـه لمجـرّد إصابتي بالملاريـا، فاللـه وحـده يعلـم مـا كان يمكـن أن يُصيـبني غيرهـا.

سـلّمتُ زمـيلي عهـدةَ المكتـب والعهـدةَ الماليـة، واعتمدنـا توقيعَـه لـدى الـمصرف، ثـم توجّهـتُ إلى السـفير لوداعـه، وقدّمـتُ لـه الـسلاح المصنـوع يدويًّـا الـذي حصلـتُ عليـه مـن الداعيـة صديـق مـوسى كهديّـةٍ تذكاريـة تعبيرًا عـن حبّي وامتنـاني لـه، وودّعـتُ زملائي، وغـادرتُ مـالي إلى الريـاض.

أ. فؤاد بنتن و عبدالله العنقري - مالي ١٩٨٥

مـوريتـانيـا

ـ بلد المليون شاعر ـ

كلمة موريتانيا تعني بلاد المور، أيّ أسود البشرة.

تتعدّد فيها صور الطبيعة وتضاريسها، كما تتعدّد الأجناس والأعراق، لكنهم يعيشون في تناغمٍ وانسجامٍ، إذ يميل أهلُها إلى الودّ والسلام، وتشكّل أزياؤهم بالنسبة لهم إرثًا تقليديًّا لا يمكنهم التخلّي عنه، لذا فأهلها هم نموذج للأصالة والعراقة.

ويعتبر نظْم الشعرِ إرثًا يتعامل معه أبناءُ القبيلة كالفريضة التي لا يمكنهم التفريط فيها، فيندر أن تجدَ واحدًا من قبيلة الحسنيين أو العقوبيين لا يُجيد نظْمَ الشعر، لذا فإن الشعرَ هو لازمُ تاريخِ موريتانيا في أبرز محطّاته، ولهذا السبب أيضًا عُرفت موريتانيا ببلد المليون شاعر.

كانت قبائل صنهاجة قبل الإسلام تدين بالوثنية، شأنهم شأن بقية الأمازيغ، لكن حين اتجهت جيوش المسلمين إلى شمال إفريقية رحب الأمازيغ بالفتوحات الإسلامية كونها أزاحت عنهم اضطهاد الرومان، وقد نشر عقبة بن نافع الإسلام بين الأمازيغ، ووصل إلى ديار الملثمين، فبعد أن وقف على المحيط وقفته المشهورة انحدر جنوبًا في الصحراء، يخضع القبائل الأمازيغية، وينشر بينهم الإسلام، ثم بنى فيها المساجد، وحين حانت ساعة رحيل عقبة عن هذه الأراضي ترك عندهم من يعلمهم الإسلام، ويلقنهم تعاليمه. وحينما قامت دولة الأدارسة دخلت ديار الملثمين الشمالية في حكمهم، واستمرت عملية نشر الإسلام بين الأمازيغ.

لكن كان للملثمين طموحهم بإقامة دولة خاصة بهم، والتي سرعان ما وسعوا حدودها نحو الجنوب حتى وصلوا إلى حدود دولة غانا في إقليم السودان. واتخذوا من مدينة أودغست عاصمة لدولتهم الجديدة ومركزًا لها، وكانت نشأة هذه المدينة تحت حكم دولة غانا الزنجية، لكن اتحاد الأمازيغ بعد إسلامهم في القرن الثالث الهجري دفعهم لمهاجمة هذه الدولة

لـنشر الإسلام بين الزنـوج فاسـتطاعوا بقيـادة زعيمهـم المسـلم (يَثْلُوثـان بـن تـكلان)، هزيمة الزنوج والاستيلاء على دولتهم، وهو أول ملك للصحراء من لمتونة، ويذكر عنه أنه كان يركب في مئة ألف نجيب وكانت وفاته سنة ٢٢٢هـ.

وعرفت أودغست ملكًا قويًّا آخر، وهو (تنبروتان بن اسفيشر)، والذي كانت تخضع لـه كل قبيلـة صنهاجـة، واسـتمر حكمـه أكثر مـن عشريـن سـنة، وكان مـن أقـوى ملـوك صنهاجة حيث دان لـه أكثر من عشرين ملكًا من ملوك السودان، يهابونه ويؤدون له الجزية، واتسعت رقعة دولته، وبلغ من قوته أن الأمازيغ من غير صنهاجة يستعينون به ضد بعضهم البعض، لكن مع الأسف لم تدم هذه القوة طويلًا، فمع مطلع القرن الخامس الهجري تفرقت كلمة الملثمين، واختلفوا مرة أخرى، فاستعادت دولة غانا نفوذها في الصحراء.

كان لقيام مملكة أودغست أثر كبير في انتشار الإسلام في السودان، فهي المعبر الذي عبر منه الإسلام إلى مملكة غانا، وقد كان لملوكها دور كبير في جهاد أهل السودان وإدخالهم في الإسلام، حتى إن بعضهم قُتل في هذا الجهاد، ويذكر عن ملكهم (تيبوتان) أنه كان شديد التحمس لنشر الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين من ناحية الجنوب.

ومع أن هذا الجهاد كان له أثر في انتشار الإسلام في السودان إلا أن الأثر العظيم كان للوسائل السلمية، خاصة في دولة غانا الوثنية، والتي انتشر الإسلام فيها من خلال التواصل الذي دشنته التجارة والهجرة. فالعاصمة غانا تنقسم إلى قسمين: قسم مسلم هو الشرقي، وقسم وثني هو الغربي، والقسم الشرقي فيه اثنا عشر مسجدًا، أما الغربي ففيه مسجد واحد، وموظفو الملك الوثني غالبهم من المسلمين، فالتراجمة وصاحب بيت المال والوزراء جلهم من المسلمين، ولم يبق من الوثنية إلا الملك الذي أزاحه المرابطون ليبدأ حكم الملوك المسلمين.

وفي عام ١٤٤٢م، قام البحارة البرتغاليون برحلة حول كيب بلانكو (كيب نواذيبو) وبعد ٦ سنوات أسسوا حصن أرغوين حيث حصلوا على الذهب والصمغ العربي والعبيد. هذه السلع ذاتها هي ما جذبت في وقت لاحق التجار الإسبان والهولنديين إلى ساحل موريتانيا مع مطلع القرن السابع عشر، حين وجدوا أن الصمغ العربي مفيد في صناعة المنسوجات.

وتنافس الفرنسيون على الظفر بهذه التجارة الناجحة، أولًا مع الهولنديين، ثم في القرن الثامن عشر مع الإنجليز، لكن المعاهدات الأوروبية، في أوائل القرن التاسع عشر، سلمت

جـزءًا كـبيًرا مـن السـاحل الصحـراوي للفرنسيين. وأطلـق الفرنسـيون على المسـتعمرة لقـب الهدنـة العظيمـة، فطالمـا كان السـكان هـادئين، إلى الحـد الـذي يجعـل الوجـود الفـرنسي فيهـا مسـألة مشـكوك في صحتهـا.

وكان بعـض الذيـن اسـتفادوا مـن الوجـود الفـرنسي في وضـع جيـد يؤهلهـم لتـولي أدوار سياسـية بـارزة، فتفاوضـت أول حكومـة منتخبـة بقيـادة مختـار ولـد داداه مـع فرنسـا للحصـول على اسـتقلالها، إلى أن تـم إعلان الجمهوريـة الإسلاميـة الموريتانيـة دولـة مسـتقلة في ٢٨ نوفـمبر عـام ١٩٦٠م، ثـم أصبحـت عضـوًا في الأمـم المتحـدة في أكتوبـر عـام ١٩٦١م.

كنـتُ أعـرف موريتانيـا جيّـدًا، ولطالمـا كنـتُ معجبًـا بهـذا البلـد، لـذا كنـتُ سـعيدًا بالذهـابِ إليـه حين نظّمـت الأمانـةُ العامـة لجمعـيتي الـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر العربـيتيْن مؤتمـرًا للجمعيّـات الوطنيـة بمدينـةِ نواكشـوط في موريتانيـا عـام ١٩٨٦م، وكنـتُ واحـدًا مـن بين وفـد الـهلال الأحمـر الـذي يرأسـه نائـب رئيـس الجمعيّـة حمدي أبـو زيد، اجتمعـت الوفودُ في الـدار البيضـاء، ثـم سـافرت بطائـرة خاصّـة إلى نواكشـوط؛ للمشـاركة في المؤتمـر.

شـاركنا في المؤتمـر، حتى انتهـت فعاليّاتـه، وحينهـا جاءنـا توجيـهٌ بزيـارة المناطـق التي تأثّـرت بالجفـاف وتقديـم تقريـر بتفاصيـل الوضـع فيهـا، وكُلِّفْـتُ بـأداء هـذه المهمّـة، فتحرّكـتُ صـوْب (بوتلميـت) ومنطقـة أخـرى لا أذكرهـا الآن، لكـنني أذكـر جيّـدًا الحالـة التي رأيـتُ هـاتيْن المنطقـتيْن عليهـا، فقـد كانتـا متأثّـرتيْن بالجفـاف أكثـر مـن كل مـا رأيـتُ آنـذاك، لـذا كتبـتُ تقريـرًا مفـصّلًا مـع توصيـةٍ ببـدء برنامـجٍ إغـاثي عاجـل في موريتانيـا؛ خشـية تفاقـم الأوضـاع هنـاك.

موريتانيا - وادي الناقة ١٩٩٠م

لـم يكـن اتّخـاذ القـرار صعبًا بعـد كل مـا عرضتُـه في تقريري، لـذا صدرت التعليمـاتُ بالبدء في التحـضير للبرنامـج الإغـاثي في موريتانيـا، وعلى الفـور أعـددتُ خطّـةَ عملٍ راعيـتُ فيها المخاطر والضرر الواقـع على أهـل المناطـق المسـتهدفة، وطبيعـة المنطقـة الجغرافيـة، فالتضاريـس في موريتانيـا تتكـون بشـكل أسـاسي مـن سلاسـلَ جبليـةٍ وأحواضٍ صخريـة وسـهولٍ رملية تمتدّ على مسـاحات شاسـعة مـن الأراضي الموريتانيـة، كمـا تتـوزّع فيهـا بعـضُ القمـم الصخريـة التي يُسـمّيها السـكّانُ المحليـون (الكلابـة)، وهـو مـا يـعني تعـذُّر الحركـة بين القـرى النائيـة المتضرّرة مـن الجفـاف بالنظـر إلى صعوبـة الطـرق، لكـنني كنـتُ قـد اختـبرتُ تجربـةً مماثلـة في الصومـال، ومـن ثـم فقـد أخذتُهـا بعيْن الاعتبـار أثنـاء إعـداد هـذه الخطّة.

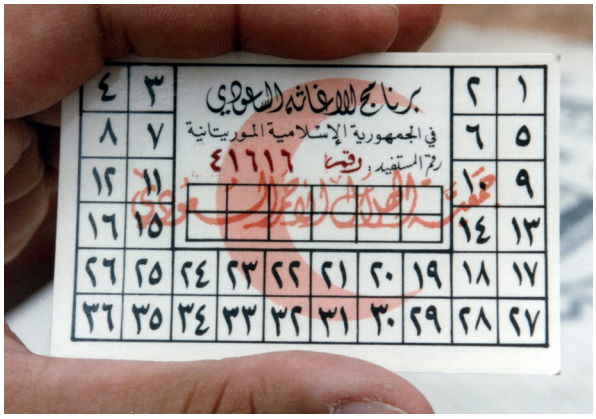

أعـددتُ أيضًـا بطاقـةً برقـم المـتضرّر وعـدد أفـراد أسرتـه، لكـنني تركـتُ عدد مرّات التوزيع ومواعيـده وفقًـا لتقديـر المُوزّع نفسـه، على أن يتـمّ ثقـب هـذه البطاقـة مـع كل عمليـة توزيـع؛ حتى يتـمّ إلغاؤهـا بالكامـل في المـرّة الأخيرة.

أرسـل الـهلالُ الأحمـر فريـقَ عملٍ برئاسـة محمـد عـوده الحـجيري مديـر عـام الشـؤون الماليـة والإداريـة، وعضويـة سـتّةٍ آخريـن، كمـا زوّد المكتـب بسـياراتِ دفـعٍ رباعـيّ، وأرسـل باخـرةً محمّلـةً بسـتّة آلاف طـنٍّ، ثـم أرسـل باخـرةً ثانيـة بعد حوالي شـهرٍ من وصـول الباخرة الأولى إلى موريتانيـا، وكان العمـل في هـذه الأثنـاء يجـري على قـدم وسـاق وفـق خطّـةٍ مُعَـدَّةٍ تتضمّـن دورَ كل فـردٍ في فريـق العمـل، ولا أنكـر الـدورَ الداعـم للسـفارة السـعودية، وتجـاوُب الحكومـة الموريتانيـة في تسـهيل كافّـة الصعـاب وتحـفيز الفريـق لبـذل مزيـدٍ مـن الجهـد مـن أجـل إنجـاح هـذه المهمّة.

لكـن بالطبع واجـه الفريـقُ صعوبـاتٍ متوقّعـةً؛ بسببِ وعـورة الطريق، لكن هـذه الصعوبات لـم تُضْعِـفْ مـن عزيمـة أعضـاء الفريـق، بـل جعلتهـم أكثر اسـتعدادًا لمواجهـة المزيـد مـن الصعوبـات، وهـو مـا كان لـه أبلـغ الأثـر في نجـاح المهمّـة، وفي بـروز اسـم الـهلال الأحمـر السـعودي في مصـافّ منظّمـات الإغاثـة الدوليـة.

استمرّ العمل في موريتانيا حتى نهاية عام ١٩٩٠م، وخلال هذه الفترة تمّ إرسال عددٍ من البواخر المحمّلة بموادّ الإغاثة، بالإضافة إلى فريقٍ طبّي مكوّن من طبيبٍ وصيدليّ وممرّض، كان لهذا الفريق دورٌ هائلٌ في التقليل من معاناة المتضرّرين، خاصّةً في ظلّ انتشار الجهل والأوبئة.

موريتانيا ١٩٩٠م

موريتانيا - د.محمد التركي، محمد دليم ١٩٩٠م

عُدْتُ إلى موريتانيا لاحقًا في عام ١٩٩٠م؛ بغرضِ توثيق نشاط الإغاثة السعودية في هذا البلد، وخاصّةً نشاط توزيع الموادّ الغذائية، والرعاية الطبية التي يُقدّمها الفريق الطبي، وما إن وصلتُ إلى مطار نواكشوط، حتى لقيتُ حفاوةً واضحة في الاستقبال، سواء من جانب سعادة سفير المملكة العربية السعودية عبدالرحمن بن حمد الشبيلي، أو من جانبِ مدير مكتب الإغاثة السعودية عبدالعزيز أبو بكر، وكان برفقتي فريق التوثيق من الشركة العالمية، ويضمّ: مُخرجًا، وكاتب سيناريو، ومُصوّرين تلفازيّين، ومُصوّرًا فوتوغرافيًا، وحين جلستُ في مكتب سعادة السفير، شرحتُ له طبيعة مهمّتنا، والتي تتركّز على توثيق النشاط الإغاثي، وكنّا نعمل وفق برنامجٍ أعددناه للتصويرِ في ثلاثة مواقع: بوتلميت وضواحي نواكشوط و واد الناقة، وشرّفنا السفيرُ بالزيارة أثناء عملنا في واد الناقة، وحضر معنا عمليات التوزيع والرعاية الطبية، ولمسَ بنفسه الدورَ الذي تلعبه السلطاتُ الموريتانية في تذليل العوائق أمام عملنا.

أ. عبدالرحمن الشبيلي سفير المملكة في موريتانيا ١٩٩٠م

كان العمل يجري حينها على نحوٍ طبيعي، إذ استمرّ المكتبُ في تنفيذ أعمال الإغاثة التي بدأها منذ وصوله قبل سنوات، ولم تكن ثمّة تغييراتٌ أو أحداثٌ كبيرة قد طرأت خلال هذه الفترة، باستثناء أن بعضَ الأهالي من المتضرّرين قد باعوا بطاقات استلام المساعدات لأفراد أو تجّار آخرين، وكنّا بين الحينِ والآخر نشهد موقفًا كهذا من بعض الأهالي، إذ تختلف احتياجاتُهم الفردية عمّا هو مقرّر لهم من مساعدات، وهو الأمر الذي شغلني، بل لطالما شغلني، إذ كنتُ آمل في الوصول إلى حلٍّ يُرضيهم ويحقّق لهم أقصى فائدة دون أن يؤثّر في سير عملنا.

الاغاثة السعوديه

GRAIN SILOS & FLOUR

الهلال الاحمر السعودي
CROISSANT ROUGE
SAOUDIEN
FOUR WHEEL DRIVE

الاغاثة السعودية

موريتانيا ١٩٩٠م

العـودة إلـى
الصومــال

في العـامِ ذاتـه.. عُـدْتُ إلى الصومـال مـن أجـل توثيـق المسـاعدات الإغاثيـة، واسـتقبلنا لـدى وصولنـا في المطـار مديـرُ مكتـب الإغاثـة السـعودي سـعد مهنـا السـويد، وسـهّل دخولنـا ودخـول معدّاتنـا، على الرغـم مـن التشـدّد والتدقيـق اللافتيْن للنظـر هـذه المرّة مـن قِبَـل سـلطات المطـار.

وصلنـا مقـرّ إقامتنـا، وضعنـا الحقائـب والمعـدّات، وارتحنـا لبعـض الوقـت قبـل لقـاء السـفير عبـدالله عالـم الـذي رحّـب بنـا وأبـدى اسـتعداده لمسـاعدتنا في مهمّتِنـا التي شرحتُها لـه، كمـا أنـه أبـدى إعجابـه بالعمـل المبهـر الـذي يقـوم بـه المكتـب ممثّلًا في سـعد السـويد وزملائـه.

كان الوضـعُ في الصومـال مختلفًـا تمامًـا هـذه المـرّة عمّـا شـهدتُه خلال إقـامتي فيهـا لسـنوات، فقـد اعتـدتُ أن أرى مقديشـو المدينـة الآمنـة، التي يسـتطيع المـرءُ السـيْر في جميـع أنحائهـا بأريحيّـة طـوال الليـل وحتى مطلـع الفجـر، وكانـت الأسـواق حينهـا عامـرةً بالبضائـع باختلافهـا: الأساسـيات والكماليـات، والكهربـاء تعمـل بكفـاءة، والشـارع ينبـض بالحيويـة، فيمكنـك أن تـرى الأطفـال يتبختـرون في الصبـاحِ ووقـت الظهيـرة بزيّهـم المدرسيّ، وتزدحـم المطـارات والمـوانئ بالحركـة والمسـافرين.

لكـن الآن صـار الوضـعُ مختلفًـا؛ رأيـتُ سـيارات الأمـن تجـوب شـوارع مقديشـو طـوال اليـوم في توتّـرٍ واضـح، وتنقطـع الكهربـاء في الليـل وفي النهـار، وتسـود الأجـواء حالـة مـن التوتُّـر والتذمُّـر مـن قِبَـل الأهـالي وموظّفـي البعثـات، لـم يكـن الوضـع طبيعيًّـا بأيِّـة حـالٍ مـن الأحـوال.

بدأنـا عملنـا بتوثيـق عمليـة توزيـع المسـاعدات الغذائيـة والكسـائية لمتضرّري الجفـاف، وفي مراكـز الأيتـام أيضًـا، بالإضافـة لتوثيـق الرعايـة الطبيـة والمكتـب ومسـتودعات المـوادّ،

وكنّا طـوال وجودنـا في الصومـال نحظى بتقديـر واحتفـاء السـفارة السـعودية وموظّفي الملحقيـات والخطـوط السـعودية، وحين انتهى عملُنـا، عُدْنـا إلى السـعودية بعـد أن أمضيْنـا في الصومـال قرابـة الأسـبوعيْن.

لكـنني غادرتُهـا وأنـا قلـقٌ مـن الأجـواء المتوتّـرة التي تنـذر بخطـرٍ وشـيكٍ، ولـم يمـضِ وقـتٌ طويـل قبـل أن يلحـق بي سـعد السـويد مديـر المكتـب، بعـد أن خشي على عائلتـه مـن توتُّـر الوضـع الأمني في مقديشـو، فطلـب إنهـاء مهمّتـه، وعـاد إلى السـعودية، ليخلفـه فهـد حمـد الربـدي الـذي بـاشر عملـه في مقديشـو، بعـد أن تـمّ تقليـل عـدد الموظّـفين بسـبب تقليـص النشـاط، وكنـتُ حريصًـا آنـذاك على أمـن فريقِنـا في مقديشـو، فقـد كنـتُ أشـعر بـاقتراب الخطـر، وكنـتُ طـوال الوقـت على تواصـلٍ مـع مديـر المكتـب؛ مؤكّـدًا في كل مناسـبة على أهميـة الحفـاظ على أمنهـم وسلامتهـم، وكنّـا قـد اتّخذنـا بالفعـل خطـواتٍ مـن أجـل إنهـاء العمـل في الصومـال وإغلاق مكتبنـا في مقديشـو، لكننـا فوجئنـا ذات مسـاء بسـقوطِ حكومـة مقديشـو، وفي الحـال عمّـت الفـوضى وحـدث تبـادلٌ لإطلاق النـار في عـدّة مناطـق، وهـو مـا اضطـرّ مديـر المكتـب للخـروج مـع موظّـفٍ صومـالي باتّجـاه مقـرّ الملحـق العسـكري بنـاءً على التعليمـات التي صـدرت لـه، مرتديًـا إزارًا بعـد أن تـرك كل شيءٍ خلفـه في المكتـب: السـيارات، والأمـوال، والأوراق الشـخصية أيضًـا؛ خشـيةَ أن يكـون أيٌّ منهـا سببًـا في قتلِـه.

كانـت المسـافة التي تفصـل بين مكتـب الإغاثـة ومقـرّ الملحـق العسـكري حـوالي خمسـة عشر كـم، قطعهـا مديـرُ المكتـب والموظّـفُ الصومـالي مرتعـبين؛ خشـيةَ أن يـعترض طريقهـم أيٌّ مـن فصائـلِ الانـقلاب أو غيرهـم ممّـن يحملـون الـسلاح، لكنـه وصـل أخيرًا بأمـان اللـه إلى مقـرّ الملحـق العسـكري، حيـث اجتمـع الرعايـا السـعوديون هنـاك، وتـمّ إجلاؤهـم على متنِ طائـرةٍ خاصّـةٍ، ومـن بينِهـم فهـد الـذي سـافر دون جـواز سـفر أو أيّ إثباتـاتٍ شـخصية، ثـم أنزلتهـم الطائـرةُ في جـدة، ثـم سـافر إلى الريـاض بمفـرده.

الصومال ١٩٩٠م

كينيـــا

ـ محاولة فاشلة للاعتزال ـ

جـاء العـام الجديـد عـام ١٩٩١م حـاملًا معـه ريـاح التغـيير، فقـد أُغلقـت مكاتـبُ الإغاثـة السـعودية في مـالي وموريتانيـا وجيبـوتي والصومـال، وكذلـك آخـر مكاتـب السـودان، على الرغـم مـن أن الأخير لـم يتـمّ بسـهولة البقيّـة، فقـد رفـع بعـضُ العمـالِ قضيّـةً على المكتـب؛ مطالـبين بمسـتحقّاتٍ كانـوا قـد تقاضوهـا مسـبقًا، لكـن تـمّ حـلّ القضيّـةِ على كل حـال، وتمّـت تصفيـة موجـودات المكاتـب، مـن سـيارات وتجهيزات وتصفيـة الرواتـب والإيجارات، كمـا تـمّ حـلّ اللجنـة التنفيذيـة للإغاثـة، ثـم اللجنـة المركزيـة لإغاثـة متضرّري الجفـاف في أفريقيـا، وبـدا أن ذلـك كلـه لـم يكـن سـوى صفحـةٍ قـد طويـت مـن صفحـات المـاضي البعيـد.

وفي العـامِ التـالي.. تشـكّلت الهيئـة العُليـا لمسـاعدة البوسـنة والهرسـك والصومـال برئاسـة صاحـب السـموّ الملكي الأمير سـلمان بـن عبـدالعزيز أمير منطقـة الريـاض آنذاك، وعضويّـة نخبـة مـن كبـار المسـؤولين السـعوديين، ومـن بينهـم الدكتـور حمـد الصـقير رئيـس جمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي الـذي أُسـندت لـه مهمّـة الإشراف على مسـاعدة الشـعب الصومـالي، ومـن ثـم فقـد تشـكّلت لجنـةٌ فرعيـة برئاسـته وعضويّـة وزارات الدفـاع والداخليـة والخارجيـة والماليـة والصحـة، وكُلِّفْـتُ أنـا بسـكرتارية هـذه اللجنـة.

كنـتُ قبلهـا قـد حصلـتُ على إجـازةٍ طويلـة لثلاثـةِ أشـهر كاملـة؛ بغـرض تأسيـس عملٍ تجـاريٍّ يخـصُّني، بالشراكـة مـع أخي، وكنّـا بالفعـلِ قـد افتتحنـا مجمّـع خدمـات سـيارات، واسـتأجرنا محطّـة وقـود بملحقـاتٍ عديـدة كـورش الصيانـة والمـحلّات التجاريـة، واسـتقدمنا كـوادر متخصّصة، وكانـت بدايـة العمـل مغريـة بالاسـتمرار فيـه، إذ بلـغ الدخـل اليومـي مـن هـذا العمـل مـا يعـادل راتبي الشـهري الـذي أتقاضـاه مـن الـهلال الأحمـر، وكنّـا آنـذاك لا نـزال في طـور التأسيـس والانـطلاق، وكان دخلنـا يـزداد يومًـا بعـد يـوم؛ لِمـا اكتسبنـاه مـن سـمعةٍ طيّبـة، وكانـت نـيّتي أن أتقـدّم باسـتقالتي مـن الـهلال الأحمـر السـعودي؛ لأتفـرّغَ للعمـل التجـاري.

إلّا أنني فوجئتُ عصر ذات يـوم بالدكتـور حمـد الصـقير ببـابِ منزلي، وكان قـد بحـث عنّي كـثيرًا إثـر تكليفـه بزيـارة أماكـن تجمُّـع الصومالـيين في كينيـا وعلى الحـدود الصوماليـة، وكان ينـوي اصطحـابي معه، لكنـه فـوجئ بإجـازتي الطويلـة، فأرسـل مَـن يُحضرني، لكنـه لـم يوفَّـق في العثـور علي، فاتّصـل بهاتـف منزلي ولـم يجبـه أحـد، ولمـا يئـس مـن الوصـول إليّ، قـرّر أن يأتـيني بنفسـه بعـد أن سـأل عـن موقـع سـكني، وقـف الرجـلُ أمامي، وكنـتُ أستعدّ للاعتـذارِ منـه، وربمـا إخبـاره بعزمـي على الاسـتقالة، لكنـه قـال:

ــ «في العملِ الإغاثي لا أثق إلّا بك، ولدينا مهمّة إغاثية عاجلة».

لم أجد ما أقوله حينها، فلم يكن بإمكاني سوى التسليم والموافقة، قائلًا:

ــ «حاضر، سأكون في مكتبِك صباح الغد».

ذهبـتُ مـن فـوري إلى مركزنـا، وسـلّمتُ الأعمـال لأخي، وأوكلـتُ لـه إدارةِ الـمشروعِ؛ لأني كُلِّفْـتُ بمهمّـةِ عملٍ جديـدة، وقـد أغيـب لبعـض الوقـت.

في صباح اليـوم التـالي اتّجهـتُ لمكتـب الرئيـس، وكنـتُ أول مَـن يسـتقبله في بدايـةِ يومـه، فشرح لي طبيعـةَ المهمّـة، وسـلّمني ملفّهـا كاملًا، وطلـب منّي أن أبـدأ في ترتيبـاتِ السـفر مـع اللجنـة، وكانـت قـد وضعـت تحـت تصرُّفنـا طائـرةٌ خاصّـة؛ لتسـهيلِ تحرُّكاتنا.

سـافر الوفـدُ إلى كينيـا على متنِ طائـرةٍ خاصّـة أقلعـت مـن مطـار الملـك خالـد الـدولي بالريـاض، وكان الوفـد يضـمّ الدكتـور حمـد وأربعـة مـن أعضـاء اللجنـة، وبالطبـعِ فقـد رافقتُهـم باعتبـاري سـكرتيرًا للجنـة، ووصلنـا إلى مطـار نيروبي، حيـث كان في اسـتقبالِنا مسـؤولٌ مـن مكتـب الرئيـس، ومديـرُ المنظّمـات والهيئـات الإغاثيـة، والقائـمُ بأعمـال السـفير السـعودي، والدكتـور عبـدالرحمن السـميط – رحمـه اللـه -، الرجـل المتواضـع الـذي أصرّ على مسـاعدتنا في حملِ حقائبنـا، ومسـؤولو مكتـب الإغاثـة العربيـة والإسلاميـة والسـعودية، وكذلـك أعضـاء السـفارة السـعودية، فقـد كان اسـتقبالنا اسـتقبالًا رسـميًّا اتُّبعـت خلالـه البروتوكـولات المتعـارف عليهـا، ووثّقـه فريـقٌ إعلامـيٌّ مُرسَـلٌ مـن وزارة الإعلام السـعودية.

وتـولّى مسـؤولو المراسـم ترتيـبَ سـكن الوفـد في واحـدٍ مـن أفضـل فنـادق نيروبي، حيـث تـمّ حجـز أجنحـةٍ لإقامـة أعضـاء الوفـد، ثـم وضعنـا أمتعتنـا، وتوجّهنـا لحضـورِ اجتمـاعٍ مـع مسـؤولي المنظّمـات والهيئـات الإغاثيـة، وهنـاك رحّبـوا بنـا، وأوضحـوا لنـا أن الحكومـةَ الكينيـة أتاحـت للمنظّمـات والهيئـات والجمعيـات الدوليـة حريّـةَ العمـلِ على أراضيهـا

مـن أجـلِ مسـاعدة المتضرّريـن واللاجـئين مـن الـدول المجـاورة، مثـل: الصومـال وأوغنـدا وإثيوبيـا ورواندا وبروندي والكونغـو، حتى وصـل مجمـوع المنظّمـات الدوليـة التي تعمـل على الأراضي الكينيـة إلى ٦٧٢ منظّمـة غير حكوميـة، إضافـةً إلى الاتحـاد الـدولي لجمعيـات الهلال والصليب الأحمر، ذلك الاتحـاد الـذي يشرف _منذ مـا يقرب على الخمس سنوات_ على مشروع: شريـان الحياة، والـذي يهدف إلى توصيـل المـوادّ الإغاثيـة إلى جنـوب السـودان، أيضًـا فـإن نيروبي شـهدت وجـود منظّمـات الأمـم المتحـدة، مثـل: مفوّضيـة شـؤون اللاجـئين، وبرنامـج الغـذاء العالمي، ومنظّمـة الصحـة العالميـة، وكينيـا هـي المقـرّ الدائـم لحمايـة البيئـة التابـع للأمـم المتحـدة.

أكّـدوا لنـا أنهـم يُرحِّبـون بمشـاركة المملكـة العربيـة السـعودية في العمـل الإغـاثي، وأن لديهـم توجيهـات رئاسـية بتسـهيل عملنـا هنـاك، فشـكر الدكتـور حمـد الصقير الحكومـةَ الكينيـة على حفـاوة الاسـتقبال، وعلى ترحيبهـم بمشـاركة السـعودية في العـون الإغـاثي، لكنـه طلـب السـماحَ للوفـدِ بزيـارة مواقـع اللاجـئين والاطّلاع على أوضاعِهم، وهـو الطلـب الـذي لـم يلـقَ معارضـةً مـن الحضـور.

انتقلنـا إلى أحـدِ المخيّمـات، وتفقّدنـا أوضـاع اللاجـئين فيـه، ثـم عُدْنـا مباشرةً إلى نيروبي؛ حيـث دعتنـا مفوّضيـةُ الإغاثـة إلى عشـاءِ عملٍ، وبعـد يـومٍ حافـل ومرهـق صعدنـا إلى غرفِنـا أخيًرا، فنِمْنـا حتى الفجـر، ثـم اسـتقلّينا طائـرتيْن لزيـارة مخيّمـات اللاجـئين الصومالـيين في شرق الصومـال مـن الشـمال إلى الجنـوب، وهـو مـا اسـتغرق اليـوم بطولـه، ثـم عُدْنـا في المسـاء، وكانـت السـفارة قـد دعتنـا إلى عشـاءٍ نظّمتـه على شرف اسـتقبالِنا، واجتمعنـا بعـده مـع الهيئـات والمنظّمـات والجمعيـات العربيـة والإسلاميـة والسـعودية حتى منتصـف الليـل.

وفي الصباح التالي اجتمع الوفدُ كذلك مع مفوّضية الإغاثة الكينية وبعض المسؤولين المشرفين على أعمالِ الإغاثة بحضور القائم بأعمال السفير.

كينيا ١٩٩٣م

استغرقتْ مهمّتنا هناك ثلاثة أيام، سافرنا بعدها إلى الرياض فوصلناها بحلول السادسة مساءً، واتّفقنا أن نلتقي في التاسعة من صباح اليوم التالي في مكتب رئيس الهلال الأحمر، رفعنا بعدها تقريرًا بزيارتِنا، ومعه توصيات بما رأيناه مناسبًا، ونوقش التقريرُ في مجلس الوزراء، وفي الليلةِ ذاتِها صدر القرار بتأييد توصيات التقرير والتوجيه بالبدء في تنفيذِها، وأُعلن ذلك عبر وسائل الإعلام حينها.

كنتُ أفترض أن عملي قد انتهى عند هذا الحدّ، لكن الدكتور حمد طلب منّي أن أرافق الفريقَ المتّجه إلى نيروبي، والمكوّن من ستّة أعضاء برئاسة الشيخ عبدالعزيز الحمدان،

يرافقـه وفـدٌ إعلامـي سـعودي برئاسـة المذيـع خالـد اليوسـف، فقـد كان الدكتـور حمـد يـرى حاجـة الفريـقِ إلى خبراتي في هـذا المجـال، ومـن ثـم فقد كُلِّفْتُ أنـا و وليـد السـعدون بالتنسـيق مـع مفوّضيـة الإغاثـة في كينيـا، وأطلعتنـا المفوّضيةُ على طبيعـة الموقف، فكينيا تعـاني مـن تدفُّـقِ اللاجـئين الصومالـيين إليهـا مـن الشرق على الحـدود الفاصلـة بين كينيـا والصومـال، وقـد أقامـت المفوّضيـةُ السـامية لشـؤون اللاجـئين مخيّمـاتٍ لاسـتقبالِهم، لكـن الأعـداد أكبر مـن سـعةِ هـذه المخيّمـات، وبعضهـم توغّـل إلى نيروبي وغيرهـا مـن المـدن الكينيـة، والحقيقـة أن إمكانـاتِ كينيـا لا تسـمح باسـتقبالِهم، ولا تسـتطيع تـوفيَر مـا يطمحـون إليـه، لـذا فتحـت البـابَ على مصراعيْـه أمـام المنظّمـات والهيئـات والجمعيـات الراغبـة في مسـاعدة هـؤلاء اللاجـئين، ومـن ثـم فقـد افتتحنـا مكتبنـا باسـم الـهلال الأحمـر السـعودي بمجـرّد وصولنـا إلى نيروبي، وجهّزنـاه، واسـتقدمنا الكـوادر اللازمـة للعمـل، وأحضرنـا السـيارات التي سـنحتاجها كل ذلـك وسـط موافقـة وترحيـب مفوّضيـة الإغاثـة، وعلى الفـور بدأنـا في إعـداد خطّـة عمـل إغاثيـة.

كينيا ١٩٩٤م

أقمنا مخيّمًا للاجئين الصوماليين في مومباسا، واتّخذنا مكتبًا آخر فيها؛ لنكونَ على مقربةٍ من المخيّم، ولمتابعته عن كثب، كما كوَّنّا فريقًا من ثلاثة أعضاء، بالإضافة إلى العمالة المحلية.

في البداية كان سكن الفريقِ في فندق الإنتركونتنتال، والذي اتّخذناه مكتبًا وسكنًا في بادئ الأمر، قبل أن ينتقل الفريقُ إلى مكتبِه الجديد وسكنه الخاصّ.

وكنّا _خلال هذه الفترة_ نستقبل وفودًا عدّة من المسؤولين في المنظّمات والهيئات الكينية، لكن كان أغلب مَن يتردّد علينا هم من الصوماليين، ومن بينهم طيّار حربيّ سابق، كان قد درس في روسيا والولايات المتحدة، ويُجيد اللغة العربية والإنجليزية والروسية، بالإضافة إلى الصومالية، إلّا أنه اعتزل الطيران بعد أن ازداد وزنه، فحرمه جسدُه الممتلئ من الطيران، لكنه عُيِّنَ بعدها في مكتبِنا بالصومال كضابطِ اتّصالٍ، وكان على علاقةٍ جيّدة برئيس الصومال سياد بري وبعائلته أيضًا، وقد ساعد ذلك المكتبَ كثيرًا حينها، وكنتُ على علاقةٍ جيّدة به بحُكم خبرتنا السابقة في العمل معًا في مكتبِنا بمقديشو، وكان دومًا يسألني عن عمل المكتبِ ويستعلم عن المساعدات بعد أن جاء إلى كينيا لاجئًا صوماليًا هو أيضًا، فلم يعد له مكان في الصومالِ بعد سقوطِ حكومة سياد بري، وكنتُ أحدّثه في جلساتِنا المعتادة عن أنشطتِنا من أجلِ إنقاذ الوضع على الحدود الكينية، وكان يَسْعَدُ بحديثي هذا، وكثيرًا ما بدا راضيًا عمّا نفعله، إلى أن جاءني

ذات يـومٍ ليـخبرني بـأن السـيدة خديجـة زوجـة الرئيـس سـياد بـري ترسـل إلينـا الـسلام، وتطلـب منّا مسـاعدتها ومَـن معها، والحـقّ أنني تعجّبتُ كثيرًا مـن هـذه الرسـالة المقتضبـة، فكيـف يمكـنني أن أسـتوعب أن سـيدة الصومـال الأولى، التي تحـوز بين يديهـا المـال والنفـوذ، تحتـاج إلى مسـاعدةٍ منّا نحـن؟! لكـن لـم أكـن لأرفـضَ طلبًـا كهـذا، ومـن شـخصية مرموقـة وراقيـة مثلهـا، لـذا أرسـلتُ لهـا كل مـا تحتاجـه، وسـألتُ حسـن بعدهـا: أيـن هـي؟

قال: في بيتٍ في نيروبي.

فقلتُ: غدًا أزورها بإذن الله.

في الصبـاح البـاكـر.. ذهبـتُ لزيـارة السـيدة خديجـة برفقـة الطيّـار، وكانـت تقيـم في حيٍّ جيّد، في فـيلا متوسـطة المسـتوى، فالبيـت أثاثـه جيّد، ولديهـا سـيارات مصفوفـة بـالخارج، والبيـت يزدحـم بالرجـال والنسـاء مـن الخـدم والحـرس، جلسـتُ في غرفـة الاسـتقبال في انتظارِهـا، فجـاءت بهيئتهـا الوقـورة مرتديـةً نظّارتهـا، وكانـت في الـستّين مـن عمرِهـا في تقديـري، سـلّمتْ علينـا وحيّتْنـا، وكان الطيّـار يترجـم أحاديثنـا.

في البدايـة شـكرتْنا على جهودِنـا في مسـاعدة الصومالـيين، وبَـدَتْ راضيـةً عمّـا يفعلـه مكتـبُ الـهلال الأحمـر السـعودي في الصومـال على امتـدادِ السـنوات الماضيـة، وكنـتُ قـد التقيـتُ ـمن قبـلـ بابنتهـا (مدينـة) في زيـارتي الأولى للصومـال، وكانـت قـد عرضـتْ عليّ آنـذاك قصرًا تملكـه لنسـتأجرَه كمكتـبٍ للـهلال الأحمـر، وكان الـقصر أكبر بكـثير مـن أن يكـون لمجـرّد مكتـب إغـاثي، لقـد كان فخمًـا بشـكلٍ مبالـغ فيـه، وبمـا لا يتناسـب مـع العملِ الإغـاثي في حـدّ ذاتـه، فقـد كان يصلـح كسـفارةٍ أو منزلٍ لسـفير أو لمسـؤول كـبير في الحكومـة، كمـا أن إيجـارَ الـقصر كان أكثر مـن قدرتِنـا على تحمُّلـه، وحين حكيـتُ لهـا هـذا الموقـف، أخبرتني بـأن ابنتهـا حدّثتهـا عـن هـذا اللقـاء، لكنهـا لـم تكـن موجـودةً في ذلـك اليـوم.

أمضيـتُ في كينيـا ستّين يومًـا، عُـدْتُ بعدهـا إلى الريـاض، فوجـدتُ أن مشروعَنـا التجـاري بـاتَ في وضـعٍ متردٍّ، فقـد انهـارت سـمعتُه التي اكتسـبها قبـل سـفري، وانخفضـت كفـاءة عمالتـه، وانخفـض الدخـل مـن ١٢ ألـف ريـال يوميًّـا، حتى وصـل إلى ثلاثـة آلاف ريـالٍ أو أقـلّ، فلـم يعـد العمـل التجـاري مُـبشِّرًا ومُغريًـا كمـا تركتُـه، لـذا لـم يكـن الخيـار صعبًـا بالنسـبة لي، فودّعـتُ أخي ومشروعـي وطموحـاتي، وعـدتُ مجـدّدًا إلى وظيفتي، وذلـك كلـه كان مُقـدَّرًا، فـكلٌّ مُـيَسَّرٌ لِمـا خُـلِقَ لـه.

بـدأت على الفـورِ مسـؤولياتي الجديـدة في سـكرتارية لجنـة إيصـال المسـاعدات السـعودية إلى الصومـال، فكنـتُ أُديـر اجتماعـاتِ لجنـة مسـاعدات الصومـال، وأشرفـتُ كذلـك على فتـح مكتـبٍ في مقديشـو، وبـدء نشـاطٍ إغاثي هنـاك؛ لمسـاعدة الصومـال على اجتياز هـذه المحنة.

كينيا - ممباسا ١٩٩٤م

في هـذه الأثنـاء.. اسـتقبل مكتـب كينيـا طائـرةَ شـحنٍ سـعودية محمّلـة بمئـة طـنٍّ مـن مختلـف المـوادّ الغذائيـة، تلاهـا اسـتقبال باخـرتيْن: عـرب الجزيـرة، والزاهـرة في مينـاء مومباسـا، وكانتـا تحملان حـوالي خمسـة آلاف طـنٍّ مـن المـوادّ الإغاثيـة، والتي تـمّ توزيعهـا بالكامـل على اللاجـئين في مخيّمـات شرق كينيـا بالتنسـيق مـع المفوّضيـة السـامية لشـؤون اللاجـئين، كمـا عملنـا خلال هـذه المرحلـة مـع إدارة المخيّـم طـوال أسـبوعٍ كامـل قضينـاه في سـكنِ العامـلين، وشـاركناهم خلال عمليـات توزيـع المـوادّ الغذائيـة الـواردة مـن السـعودية، فكنّـا نسـلّم كل فـردٍ طـردًا وزنـه يصـل إلى خمسـةٍ وعشريـن كجـم، يحتـوي على أرز وزيـت وعبـوّة حليـب ودقيـق وسـكّر، واعترضـتْ إدارةُ المخيّـم حينهـا على توزيـع الحليـب مـع الطـرد؛ لأنـه يُخلَـط بميـاهٍ عاديـة غير معقّمـة، وكـثيرًا مـا يـؤدّي هـذا الفعـل إلى أمـراض معويّـة كـثيرة، فاتّخـذ مديـرُ الفريـق موقفًـا رافضًـا لهـذا الاعتراض غير المـبّرر بالنسـبةِ لـه، فاقترحـتُ عليـه أن نتفاهـم معهـم، لكنـه تشـبّث برأيِـه، وقـد أيّـده في ذلـك بعـضُ الأعضـاء، وفي مسـاءِ ذلـك اليـوم بالتحديـد نقلـتْ إذاعـة بي بي سـي BBC البريطانيـة نبأً تسـمُّم

بعـض اللاجـئين؛ بسبـب الحليـب الـذي يوزّعـه الفريـق السـعودي، واضطررنـا في النهايـة للانصيـاع لتعليمـات إدارة المخيّـم.

انتهزتُ فرصة وجـودي في كينيـا، فـزُرتُ مناطـق السـفاري في محميّـة ماسـاي مـارا، حيـث الغابـات المفتوحـة التي تضـمّ مختلـف الحيوانـات مـن الأسـود والفِيَلـة والنمـور والغـزلان والحمـر الوحشـية والزرافـات والجواميـس والبقـر والضبـاع، وغيرهـا الكـثير.

كمـا زرتُ جبـل كينيـا برفقـة الدكتـور حمـد الصقـير، وهـو أعلى جبـل في كينيـا، وهـو ثـاني أعلى جبـل في أفريقيـا، بعـد كليمنجـارو، فهـو يُـرى مـن على مسـافة ١٥٠ كـم مـن نيروبي.

وحين انتهينـا مـن عملنـا في مومباسـا، انتهزنـا الفرصـة في الاسـتمتاع بشـواطئها، فـزُرتُ عـدّة جـزرٍ سـياحية هنـاك.

اضطررنـا لأخـذِ مقرٍّ لنـا في الصومـال، فاتّخذنـا موقعًـا على شـارعٍ رئيسٍ في الكيلـو أربعة، وهـو مفترق طـرق في الحـي الإداري في مقديشـو، وهـو واحـد مـن الأحيـاء التي يسـيطر عليها اللـواء محمـد فـرح عيديـد، وقـد سـبقتنا منظّمـاتٌ وهيئـات أخـرى عديـدة بإنشـاء مقرّاتهـا في الحـي ذاتـه للأمـان الـذي يتّسـم بـه، فهـو يقـع ضمـن مربّـع القـوّات النيجيريـة، حيـث إن لهـا نقطـة تمركـزٍ أمـام مكتـب الهيئـة، ويحـرس المكتـب مـن الداخـل حـراسٌ محليـون عددهـم ثلاثـة عشـر حارسًـا، ولا يفصـل هـذا الموقـع عـن قـوّات الواجـب السـعودي أكثـر مـن كيلويـن، ويعمـل في المكتـبِ تسـعةُ موظّفين سـعوديين، يسـاعدهم ١١١ موظفًـا صوماليًـا، تتراوح رواتبهـم الشـهرية مـن ١٢٠ إلى ٤٠٠ دولار أمـريكي بإجمـالي عشـريـن ألـف دولار أمـريكي شـهريًّا، ويتكفّـل المكتـبُ بتـوفير الطعـام لهـم، كمـا اسـتأجر المكتـب ثلاثـةَ مسـتودعاتٍ، وأمَّـن مـا يلزمهـا مـن حراسـة، كمـا امتلـك المكتـبُ ثمـاني سـيارات ومقطـورتيْن تعمـل جميعُهـا تحـت تصرُّفِـه.

بـدأ المكتـبُ عملـه في مقديشـو بتوزيـع المـوادّ الإغاثيـة على المتضرّريـن وسـط حراسـةِ قـوّات الواجـب السـعودي في الصومـال، وكان المكتـبُ في هـذه الآونـةِ يُكثّـف أنشـطته؛ حرصًـا على سرعـة تخفيـف الضرر الواقـع على الصوماليين، مسـابقًا الزمـن؛ كي يتمكّـن مـن تقديـم المسـاعدة لـكل مَـن يحتاجهـا.

لكـن تلقّـتْ لجنـةُ إيصـال المسـاعدات السـعودية إلى الصومـال شـكوى مـن رئيـس الصومـال علي مهـدي عـن طريـق وزارة الخارجيـة؛ إذ اعـتبر أن المسـاعدات السـعودية لا تُـوزَّع إلّا في مناطـق سـيادة معارضـه محمـد عيديـد، بـل إنـه اتّهـم أعضـاءَ المكتـب

بانتمائهم إلى جماعة عيديد، وطلب في شكواه الإسراعَ بمعالجة هذا الأمر؛ رأفةً بالشعب الصومالي الذي ينشد عدالة التوزيع.

وأمام شكوى بهذه الأهمية والخطورة، لم تجد اللجنةُ بُدًّا من إرسالي إلى الصومال بنفسي؛ لاستطلاعِ الموقف واتّخاذ ما أراه مناسبًا من أجل حلّ هذه المشكلة، وكنتُ أدرك بطبيعة الحال ما تنطوي عليه مَهمّتي من أهمية وضرورة، لذا سافرتُ إلى مقديشو على وجه السرعة يوم الاثنين ١٩٩٣/٠٥/١٨م، على متنِ طائرةٍ خاصّة مع وفدٍ من هيئة الأركان السعودية، ووصلتُ مقديشو في الثانية ظهرًا، وهناك كان في استقبالنا قائدُ قوّات الواجب السعودي ومساعدوه، وكذلك مديرُ مكتب الهيئة عبدالله الجهني، وكانت لدى الضبّاطِ بروتوكولاتٌ خاصّةٌ في استقبال الضيوف، ولم يكن لديّ مُتَّسَعٌ من الوقت لهذه التقاليد الرسمية، فغادرتُ مباشرةً برفقة عبدالله الجهني إلى مكتب الهيئة.

كنتُ أدرك مسبقًا مدى خطورة وحساسية الوضع في الصومال، فقبل شهرٍ واحد من وصولي أرسلنا فريقًا طبيًّا سعوديًّا مكوَّنًا من طبيبيْن وصيدلييْن وممرّضيْن، وتولّى هذا الفريق مهمّةَ التنسيق مع نظيره الخاصّ بقوّات الواجب السعودي الذي كان ممثَّلًا في طبيبٍ مُنتدَب من مستشفى الرياض العسكري؛ من أجل إنشاء عياداتٍ لتقديم الخدمات الطبية للصوماليين، وكان هذا الطبيب يتعاون كذلك مع مستشفى في مقديشو، وسبق أن أجرى جراحةً لمريضٍ بها، وكان دائمَ الذهاب إلى هذا المريض؛ لمتابعة حالته بعد الجراحة، إلّا أنه أُصيب بطلقٍ ناري أثناء ذهابِه قبيل الغروبِ في سيارةٍ عسكرية، ولم يلبث أن مات خلال دقائقَ معدودةٍ، ونُقل جثمانه بعدها إلى الرياض ليُدفن هناك، وقد وقعتْ هذه الحادثةُ كالصاعقة على فريقِنا الطبي، فانتابهم خوفٌ شديد، ورفضوا العمل في الصومال في ظلّ هذا الوضع الأمني الخطر، واضطررنا في نهاية المطاف إلى إعادتهم إلى السعودية، على متن طائرة (C130)، وتوقّف البرنامجُ الطبي في الصومال منذ ذلك الحين.

في الرابعةِ عصرًا.. قرّرتُ الخروجَ في جولةٍ داخل مقديشو مع مدير المكتب، ورافقنا خلالها حارسان مسلّحان، ومهما سمعتُ عن مقديشو وما أصابها، فإن مَن رأى ليس كمَن سمع، فلم أكن لأتخيّل يومًا حجمَ الدمار الذي أصاب هذه المدينة البديعة، والتي تحوّلت إلى مدينة أشباحٍ، لا شيء يميّزها سوى الخراب والدمار اللذيْن يرويان ما أصاب جوهرة المحيط، فلم تنجُ من آثارهما الأسواقُ أو الفنادق أو البيوت، فكل شيء قد طاله الدمار.

مـررتُ خلال طريقـي بالسـفارة السـعودية، ولـم يعـد بهـا مـا يفصـح عـن هويّتِهـا، إذ اسـتحالت إلى مبنى مَتهـدّم نُهبـت أبوابـه ونوافـذه حتى أسلاك الكهربـاء، لكنـه لـم يتوقّـف عـن العمـل بالرغـم مـن هـذا كلـه، فكنـتُ لا أزال أرى أُناسًـا بداخلِه، وكأنّ شيئًـا لـم يحـدث.

البيـوتُ التي لطالمـا كانـت عامـرةً بأهلهـا، تُركـت مهجـورةً حتى اسـتوطنها نازحـون ولاجئـون، فتقاسـموها، وباتـت كل عائلـةٍ تشـغل غرفـة منهـا، حتى صـارت مكانًـا ارتجاليًّـا للمبيـت، بعـد أن كانـت دارًا ودوّارًا!

مررنـا في طريقنـا بالمنطقـة الخضراء، التي كانـت تقـع تحـت سـيادة علي مهـدي، وتحرسـها قـواتٌ مـن الأمـم المتحـدة، وكانـت أشـبه بثكنـةٍ عسـكرية، فالـكل يحمـل السـلاح في هـذه الأرجـاء، حتى الأطفـال، كانـت الأجـواءُ متوتّـرة، والوجـوه متحفّـزة، وكأنهـم مُقبلـون على حـربٍ وشـيكة، فـدَبَّ الخـوفُ في قـلبي حارسينـا؛ إذ كانـا مـن أنصـار محمـد عيديـد، وخشـيا أن يُفتضـح أمرهمـا في منطقـة علي مهـدي، فاختبـأ كلاهمـا تحـت مقعـدِ السـيارة الخلفـي، حاولـتُ أنـا ومديـر المكتـب أن نطمئنهمـا:

ـــ «لا تخافا، نحن نحميكما، والله هو الحافظ أولًا وأخيرًا».

انتهزنـا الفرصـةَ للمرور بمكاتبنـا القديمة، فوجدناهـا قـد صـارت مركـزًا لجماعـةٍ مسـلحة، اللـه يعلـم إلى أيّ فصيـل تنتمـي، لـذا لُذْنـا بالفـرار على كل حـال، وعـدتُ إلى سـكني حزينًـا على مـا آلـت إليـه الصومـال، عاجـزًا عـن استيعـاب ضياعهـا بهـذه البسـاطة، ولأيّ سـببٍ حـدث هـذا كلـه؟! أَمِـنْ أجـلِ بعـض الذيـن يتصارعـون على السـلطة؟! لكـن على حسـابِ مَـن؟! الأبريـاء وحدهـم هـم مَـن يدفعـون الثمـن في النهايـة.

وحمدتُ الله على نعمة الأمن والاستقرار.

كان المكتـب مجهّـزًا بـكل مـا نحتاجـه، وكنّـا نعتمـد في الحصـول على الكهربـاء على مولِّداتٍ خاصّـة بنـا، فلـم يكـن ينقصنـا شيء رغـم نقـص كل شيء في هـذه الأثناء.

كانـت مسـاحةُ المكتـب ٢٠٠٠م تقريبًـا مقسَّمةً إلى مكاتـبَ وملاحـقَ وجراجـاتٍ للسـيارات، أمّـا الـدور الثـاني فـكان مخصّصًـا للسـكن، والـدور الثالـث كان يضمّ عـددًا مـن الغـرفِ كذلك، لكـن لـم تكـن مسـتخدَمةً حسـبما أذكـر، وكان لدينـا كل مـا نحتاجـه مـن معـدّات؛ اثنـان مـن مولّـدات الكهربـاء، وثلاثـة أجهـزة لاسـلكية بعيـدة المـدى، جعلنـا أحـدَ طرفيْهـا في مكتـب المديـر، والطـرفَ الآخـر في السـياراتِ المخصّصـة للسـفر خـارج مقديشـو، كمـا توجـد سـتّة أجهـزة قـصيرة المـدى متنقلـة، يقتصـر مداهـا داخـل مقديشـو، وتُسـتخدم مـع فـرق التوزيع

والعيـادات والمستودعات، وبعضها مثبّت في السيارات، أحدها مثبّت لدى قـوّات الواجـب السعودي، وجميعها متّصلة بمكتب المدير، كما توجد كذلك أجهزة يدوية مع موظّفي المكتب، وقـوّات الواجـب السعودي، والمسؤول الأمني في قـوّات الواجـب السعودي.

ولـدى المكتـبِ مستودعان في الأحيـاء التي يسـيطر عليهـا عيديـد، على مقرُبـةٍ مـن الأستاد الريـاضي، وفي مربّع القـوّات الباكستانية، وتخـزّن فيهما: الموادّ الغذائية والطبية، والملابس، والمعدّات، والسيارات، والمقطورات، وهما تحت حراسةٍ مشدّدة على مدى الأربـع والعشريـن سـاعة.

عندمـا أظلّنـا الليـلُ.. أنـارت سـماءَ مقديشـو الطلقـاتُ المتبادلـة بين الطـرفيْن، وكنّـا نسمع صوت القذائف وإطلاق النيران ونشاهد الضوء الناتج عنهما، وكانت الكهرباء غير مستقرّةٍ حينها، وإذا انقطعت، تنطفئ أجهزةُ التكييف، فنصعد إلى سطحِ المنزل؛ بحثًـا عـن نسـمةِ هـواءٍ بـاردة، لكـن أصـوات القذائـف كانـت تُخيفنـا وتربـك جلستنـا، فنضطـرّ آسـفين إلى التـخلّي عـن هـذه الجلسـة، والهبـوط ثانيـةً للاحتمـاء بمـكانٍ آمـن بالرغـم مـن شـدّة حـرارة الطقـس، ولا أزال أذكـر الذعـرَ الـذي عشـناه في هـذه الليلـة، فكنّـا نتسـامر ونضحـك، لكننـا كنّـا نـدرك أن قذيفـة قـد تخطـئ هدفهـا فتسـقط فـوق مجلسـنا وتنتهـي أعمارنـا عنـد هـذا الحـدّ، لكـن يبـدو أن ثمّـة اتفاقًـا ضمنيًّـا قـد جـرى بيننـا دون أن نـدري، يقـتضي أن نسـلّم أمرنـا إلى الله، فـإن كانـت هـذه النهايـة، فلتكـن، ومـا أجملهـا مـن نهايـة! فقد جئنـا إلى هـذا المـكان بالرغـم مـن خطورتـه؛ مـن أجـلِ مسـاعدة الضعفـاء والأبريـاء، فـإن متْـنا في سبيـل ذلـك، فكفـى بهـا نعمـة.

في صبـاح الخميـس الموافـق ١٩٩٣/٠٥/٢١م خـرج مديـرُ المكتـب ومسـاعدوه لمبـاشرةِ نشـاط توزيـع مـوادّ الإغاثـة، فيمـا بقيـتُ أنـا بمفـردي في المكتـب، وبينمـا أنـا جالـسٌ في مـكاني، شـعرتُ بـأن ثمّـة حركـة غير طبيعيـة بين الحـرّاس، وفوجئـتُ بالمسـؤول الأمني يُبلـغني عبر الجهـاز اللا سـلكي أن ثمّـة مظاهـرة أمـام المكتـب، فألقيـتُ نظـرةً مـن النافـذة، ورأيـتُ قرابـة الخمس مئة شـخصٍ قـد اجتمعـوا أمـام المكتـب حاملين لافتاتهم التي كُتـب عليهـا عبـارات مثـل: «ارحلـوا، كيـف يُذبـح في الحـرمِ الـمكي جـدي مسروق؟!»

وسرعـان مـا بـدأ الوضـعُ بالتفاقُـمِ، إذ اندلعـت أعمـالُ شـغبٍ بـالخارج، ولـم يبـد لي آنـذاك أنهـم قـد جـاؤوا بغـرضِ التظاهـر السـلميّ، وبـدأتُ أسـمع طلقـاتٍ ناريـة، واحتمـى الحـرس بالمكتـبِ، وأغلقـوا الأبـواب بإحـكام، وعُـدْتُ للمسـؤول الأمني، فطلـب منّي أن أخبر الحـرس بـأن يفتحـوا لـه البـاب الصـغير، فأمرتُهـم بذلـك، ودخـل إلى المكتـب، فسـألتُه عمّـا يحـدث بـالخارج.

كان هنـاك منـدوبٌ مـن مصرف التنميـة الإسلامـي جـاء إلى الصومـال، واتّفـق مـع تجّـار صومالـيين على شراء ٤٢,٥٧٢ رأس غنـم لموسـمِ الحـجّ، فشـحنوا لـه الأغنـام، وسـلّمهم في المقابـلِ شـيكًا لـمصرف الجزيـرة في جـدة، فذهبـوا إلى الـمصرف في جـدة وقدّمـوا الشـيك، ففوجئـوا أن الشـيك بـدون رصيـد، ثـم قـرّروا أن يتقدّمـوا بشـكوى ضـدّه، لكنـه تحايـل عليهـم، وأوقـع بهـم في شركِـه، وتسبّـب في ترحيلهـم إلى جيبـوتي.

طلبْنـا مـن القـوّات النيجيريـة أن تتدخّـل للوسـاطةِ بيننـا وبين المتظاهريـن، فكنّـا نرغـب في الجلـوسِ مـع ممثّـلين عـن هـؤلاء المتظاهريـن، فـأحضر قـادة القـوّاتِ النيجيريـة أربعـة مـن المتظاهريـن، وجاؤونـا ليجلسـوا معنـا.

تولّى المسؤول الأمني زمام الحديث، فقال:

ــ «لا علاقـة لمكتـبِ الهيئـة بقضيّتكـم، وإن كنتـم تبحثـون عـن مسـؤولٍ تلقـون عليـه اللـوم فيمـا حـدث، فاذهبـوا إلى قـوّاتِ الواجـب السـعودي».

فأجابوه:

ــ «هؤلاء عسكر، وإن ذهبنا إليهم، فلن يتردّدوا في إطلاق النار علينا».

عـرض عليهـم المسـؤولُ الأمني أن يصحبهـم إلى قـوّاتِ الواجـب السـعودي؛ لمحادثتِهـم والتوصُّل معهم إلى حلٍّ دون أن يمسّـهم سـوء، شريطة أن يغادر المتظاهرون المحتشـدون بـالخارج، فامتثلـوا لهـذا الشرط، وأوفى المسـؤول الأمني بكلمتـه، واصطحبهـم إلى قـوّاتِ الواجـب السـعودي، وعلمـتُ لاحقًـا أنهـم قـد حصلـوا على حقوقِهم، وانتهـت الأزمـة.

لـم يكـن ذلـك كلـه جـزءًا مـن المهمّـة التي جئـتُ مـن أجلِهـا، لـذا مـا إن تخلّصـتُ مـن هـذه الحـوادث غير الاعتياديـة، حتى تفرّغـتُ لإنجـازِ مهمّتي، فاطّلعـتُ على بيانـات موظّفي المكتـب، واسـتعنتُ خلال ذلـك بأحـدِ الصومالـيين المحايديـن، ممّـن ليـس لديهـم توجُّـه مـعين، وسـاعدني كذلـك المسـؤولُ الأمني في قـوّاتِ الواجـب السـعودي، في محـاولتي في تـقصّي طبيعـة انتماءات موظّفي المكتـب، وقـد فوجئـتُ أن ثلاثـة أربـاع هـؤلاء الموظّفين هُـم مـن أنصـار عيديـد!

رأيـتُ كذلـك ضرورة مراجعـة أنشـطة المكتـب، والحقيقـة أن المكتـب كان قـد بـذل جهـدًا كـبيًرا، وتـرك أثـرًا ملموسًـا بعملِـه في الصومـال، فقـد زوّد المستشـفيات بالمـوارد الغذائيـة والطبيـة، وأقـام ٢٦ مركـزًا غذائيًّـا (مطبخًـا) في مختلـف أنحـاء الصومـال، ووزّع مـوادّ إغاثـة على الأيتـام وذوي الهمـم في ملاجئهـم ومراكزهـم، ووزّع مـوادّ إغاثة في المدارس والمسـاجد

والخلاوي، وفي المؤسسـات والهيئـات والجمعيـات الخيريـة، كمـا أرسـل فـرقَ مسحٍ وتوزيـعٍ إلى مختلـف أنحـاء الصومـال.

وإجمالًا.. كان المكتـبُ يـؤدّي كل مـا بإمكانِـه مـن أجـلِ مسـاعدة الصوماليين، ولا يوجـد مـا يثبت انحيـاز أعضائـه إلى فريـقٍ على حسـابِ فريـقٍ آخـر، لكـن كان الوضع العـام جديـرًا بالنظـر، ويحتـاج إلى مراجعـةٍ وتدقيـق، فأمضيـتُ بعـض الوقـتِ بمفـردي متفكّـرًا فيمـا قرأتُـه وعلمتُـه، إلى أن توصّلـتُ إلى كتابـةِ التوصيـات التاليـة:

١) إعـادة النظـرِ في سياسـة العمـل مـن خلالِ مكتـبٍ واحـد، على أن يتـمّ الإبقـاء على مكتـب مقديشـو للتنسـيق والإشراف والمتابعـة، وإيقـاف التوزيـع مـن خلالِـه، بحيـث يكـون التوزيـع في المكاتـب الفرعيـة فقـط.

٢) إن مقديشـو متشـبعةٌ بالفعـل بالمنظّمـات والهيئـات والجمعيّـات، والمـوادّ الإغاثيـة متوفـرةٌ بهـا إلى حـدٍّ كـبير، لـذا مـن الأفضـلِ أن يكـونَ نشـاط المكتـب في مقديشـو مقـتصرًا على فتـحِ عيـادتيْن طبّيـتيْن.

٣) تكثيـف الوجـود السـعودي في الصومـال عـن طريـق انتـداب مطـوّل، وإسـناد المهـامّ الحيويـة إلى السـعوديين، على أن يتـمّ نقـل الموظّـفين المحلّـيين للمكاتـب الفرعيـة.

٤) تأمين ترتيبات أمنية عاجلة؛ لحماية الموظّفين والممتلكات.

وبعـد أن اطّلعـت اللجنـةُ على توصيـاتي، اعتمدتْهـا وقـرّرت الإشراف على تنفيذِهـا، وبـدأ المكتـب في التنفيـذِ بالفعـل، وكنـتُ سـعيدًا باتّخـاذِ هـذه الخطـوات المهمّـة، التي كان مـن شـأنِها أن تُعيـد الأمـور إلى نصابِهـا الصحيـح.

في هـذه الأثنـاء.. تنامى إلى علمي أن جمعيـة الصليـب الأحمـر الكـيني قد تقدّمت بشـكوى لـدى المحكمـة، ضـدّ الـهلال الأحمـر السـعودي؛ اعتراضًـا على عمـل الجمعيـة على الأراضي الصوماليـة بالمخالفـة للائحـة الاتحـاد الـدولي لجمعيتي الـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر، والـذي يحظـر وجـود جمعـيتيْن مـن الجمعيـاتِ المسـجّلة كأعضـاءٍ في الاتحـاد، ومـن ثـم فإننـا كنّـا أمـام خياريْـن لا ثالـث لهمـا: إمّـا أن نلغـي تسـجيل الجمعيـة، أو أن نعمـل مـن خـلال جمعيـة الصليـب الأحمـر الكـيني، ولـم يكـن موقفنـا قويًّـا؛ فقـد صـدر الحكـمُ بإلغـاء تسـجيل جمعيـة الـهلال الأحمـر، لكننـا وجدنـا الحـلّ في تسـجيل المكتـب باسـم الهيئـة العليـا لإغاثـة الصومـال، وتمكنّـا بذلـك مـن الاسـتمرارِ في عملنـا، حتى انتهى نشـاطنا في الصومـال.

كان في الصومـال آنـذاك أكثر مـن أربـعٍ وسـبعين منظّمـة وهيئـة دوليـة تعمـل في مجـالِ الإغاثـة، مـن بينهـا سـبع منظّمـات تابعـة للأمـم المتحـدة، وخمـس وأربعـون منظّمـة وهيئـة

غربيـة، وثلاث عشرة منظمـة وهيئـة وجمعيـة عربيـة غير محلّيـة، ثلاث منهـا سـعودية، وتسـع منظّمـات وهيئـات وجمعيـات صوماليـة محلّيـة مدعومـة مـن دولٍ عـدّة.

وعلى الرغـمِ مـن أننـا لـم نكـن نعمـل بمفردِنـا في الصومـال، إلّا أننـا كنّـا الأسرع والأكثر اسـتعدادًا في تلبيـةِ احتياجـات المتضرّريـن أيًّـا يكـن مكانهم، فقـد ورد نبأ بوجـودِ متضرّريـن صومالـيين على جزيـرةٍ صغيرةٍ في عـرض البحـر، فتحرّكـتْ إليهـا سـفينةٌ صوماليـة ومعهـا أربعـة أعضاءٍ سـعوديين مـن فريـق التوزيـع، فاعترضتهم عاصفـةٌ في طريقهم إلى الجزيـرة، وتلاعبـت الأمـواجُ بسـفينتِهم الهشّـة في مواجهـةِ هـذه الأمـواج المتلاطمـة، ولـم يكـن هـؤلاء الأعضـاء مؤهّـلين للتعامـل مـع موقـفٍ كهذا، وبعضهـم لا يُجيـد السـباحةَ بالفعـل، فعايشـوا هـذا الرعـب، حتى بلغـوا الجزيـرة المنشـودة، ووزّعـوا المسـاعدات على المتضرّريـن، ثـم قـرّر المكتـبُ أن يرسـلَ طائـرةً لنقلهـم إلى نيروبي.

لـم يكـن اختيـارُ فريـق الإغاثـة لمكتـبِ الهيئـة في مقديشـو اختيـارًا عشـوائيًّا، فقـد علّمتنـا التجـاربُ الشيءَ الكـثير، فقـد انتقينـا أصحـابَ الخبراتِ مـن المؤهّـلين للتعامـلِ مـع ضغـوط العمـل ومسـتجدّاته، ووضعنـا على رأسِـهم قائـدًا متمكنًـا؛ هـو سـعد بـن مهنـا السـويد، واسـتطاع هـذا الفريـق المـميّز أن يسـتعيد الانضبـاط والتنظيـم الإداري المطلـوب، ووزّع المهـامّ والمسـؤوليات، فتـولّى العمـلَ الموظّفـون السـعوديون الذيـن اضطلعـوا بالمهـامِّ المُلقـاة على عاتقِهم، وأظهـروا كفـاءةً واضحـة، بالتعـاون مـع قـوّاتِ الواجـب السـعودي التي سـاعدتهم بـكل مـا في وسـعِها، على الرغـم من تدهـور الوضع الأمني، وتكـرار التظاهرات التي اعتـادت أن تحـاصر المكتـب بين الحين والآخـر، والتي تخـرج عـن السـيطرة في بعـض الأحيـان، فتتدخّـل القـوّاتُ الأمريكيـة أو قـوّاتُ الأمـم المتحـدة في تفريـقِ جمـوع المتظاهريـن، على الرغـم مـن عـدم شـعور هـؤلاء الأعضـاء بالأمـان في وضـعٍ كهذا، فـحتى مديـر المكتـبِ لـم يسـلم من الخطر، إذ تعـرّض لاعتـداءٍ على مسـافةٍ قريبـة مـن المكتـب، حين اعترضـه فصيـلٌ مسـلّح، فانتزعـوا منـه سـيارته بالقـوّة، وعـاد مـع مرافقيـه سيرًا على الأقـدام.

لكـن كان هـذا الفريـق على قـدر المسـؤولية، ولـم تكـن هنـاك ضرورةٌ تُذكَـر لوجـودي بينهـم، وحين اقتضـت الضرورةُ ذهـابي إلى جيبـوتي بتكليـفٍ مـن لجنـة إيصـال المسـاعدات إلى الصومـال بغـرضِ تقييـم الأوضـاع هنـاك سـافرتُ على الفـورِ، ووقفـتُ على حالِ السـكّان المحلّيين، واقترحـتُ إرسـال فريـقٍ لإغاثـة المتضرّريـن، على أن يتـمّ تـأمين المـوادّ الإغاثيـة مـن السـوق المحلّيـة، وانتظـرتُ وصـول الفريـق، وأمّنـتُ المـوادّ اللازمـة، وأشرفـتُ بنـفسي على توزيـع المسـاعدات.

وأذكـر كذلـك أنني سـافرتُ خلال هـذه الـفترة إلى ألبانيـا، تحديـدًا في عـام ١٩٩٦م، برفقـة الصيـدلي فهـد المسـعود رحمـه اللـه، وكانـت ألبانيـا حينهـا تحـت النظـام الاشتراكي، وكنّـا قـد اضطررنـا إلى السـفر إلى ألبانيـا عـن طريـق إيطاليـا، حيـث سـلّمنا المسـاعدات وأنهينـا عملنـا، ثـم بقينـا ليـومَيْن اسـتمتعنا فيهمـا بمشـاهدة روعـة هـذا البلـد قبـل أن نعـود إلى الريـاض، وبقيـت هـذه الرحلـة وتفاصيلهـا في ذاكـرتي كذكـرى بعيـدة لأيـامٍ جميلـة عشـتُها خلال عـملي في الـهلال الأحمـر.

وفي عـام ١٩٩٧م كُلِّفْـتُ بتقليـصِ نشـاط مكتـب كينيـا وتصفيـة أعمالـه، وكانـت الحاجـة تقـتضي إشرافي على هـذه العمليـة؛ بسـببِ تجاربنـا السـابقة التي كلَّفَتْنـا الكـثيَر، فقـد طاردتنـا شـكاوى وقضايـا أثنـاء إغلاقِ مكاتبنـا في السـودان ومـالي، لـذا ارتـأت اللجنـةُ أن نراعـي إغلاق المكاتـب وفقًـا لإجـراءاتٍ قانونيـة ومحاسبيـة، وقـد وضعـتْ ثقتَهـا فيّ للإشراف على هـذه العمليـة، وتمكّنـتُ مـن إنجازِهـا بفضـل اللـه.

كينيا - ممباسا ١٩٩٧م

مسـاعـدات متفرقـة

اليمن ـ جنوب أفريقيا ـ موزمبيق ـ تركيا

لا أحـد في الوطـنِ العـربي يـنسى السـيول التي أغرقـت حضرمـوت في مـارس/آذار ١٩٨٩م، فهدمـت المنـازل، وأغرقـت الطـرق، وغيّرت شـكل الحيـاة في اليمـن السـعيد.

كانـت حادثـة مأسـاوية بـكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معنى، ولـم يكـن مـن الممكـن أن نقـف أمامهـا مكـبّلي الأيـدي، نشـاهد كغيرنـا مـن المتفـرّجين دون أن نحـرّكَ سـاكنًا، لـذا تشـكّلت لجنـةٌ برئاسـة الدكتـور حمـد الصـقير، وعضويّـة الدكتـور سـليمان المـزروع وكيـل وزارة الداخليـة، والأسـتاذ صـالح الخليـوي الـذي كان ممـثّلًا عـن وزارةِ الماليـة، فـزارت اللجنـةُ المواقـع المتضرّرة، واجتمعـوا بالمسـؤولين اليمنيين في حضرمـوت الذيـن طلبـوا مسـاعدتهم بإمدادهـم بالأسـمنت والحديـد والخشـب الأحمر والخشـب الأبيـض؛ رغبـةً في إعـادة إعمـار المدينـة وإصلاح مـا تهـدّم منهـا، وعـادت اللجنـةُ إلى الريـاض، فاجتمعـتُ بالدكتـور حمـد الصـقير رئيـس الـهلال الأحمر السـعودي، وتمّت دعـوتي لحضور هذا الاجتماع، وتسـلّمتُ خلالـه قائمـةً بمـوادّ البنـاء المطلـوب إرسـالها إلى حضرمـوت، وعلى الفـورِ تحرّكـتُ للتواصـلِ مـع المصانـع المحلّيـة للأسـمنت والحديـد ومـع مـورِّدي الأخشـاب ومُلّاك البواخـر، إلى أن تمكّنـا في النهايـةِ مـن إرسـالِ باخـرتيْن محمّلـتيْن بالأسـمنت مـن شركـة أسـمنت الجنـوب، كانـت حمولـة كل باخرة تُـقدَّر بخمسـةِ أطنـان، تحرّكتـا مـن ميناء جيزان إلى عـدن، ثـم تحرّكـت باخرتـان أيضًـا مـن الدمـام، تحمـل كل واحـدةٍ منهمـا عشرة آلاف طـنّ مـن الأسـمنت وألفـي طـنٍّ مـن الحديـد المسـلّح، كانتـا متّجهـتيْن إلى عـدن كذلـك.

كما تـمّ شـحن الخشـب الأحمـر مـن ماليزيـا، والخشـب الأبيـض مـن كنـدا، إلى أن اكتملـت المسـاعداتُ المُرسـلة إلى عـدن، وجـرى تسـليمها إلى المسـؤولين في حضرموت بـإشرافٍ مـن اللجنـة المشـكَّلة لمتابعـة هـذه الكارثـة.

بعـد هـذه الحادثـة بـعشرةِ أعـوام كنـتُ على موعـدٍ مـع إعصـارٍ آخـر ضرب كيـب تـاون في جنـوب أفريقيـا،

وأرسلت المملكةُ العربية السعودية على إثر هذه الكارثة مساعداتٍ إغاثيةً عاجلة على متن طائرات شحن جامبو، على أن يتولّى تسليمها السفير السعودي بوجودي، بصفتي ممثّلاً عن الهلال الأحمر السعودي، وفي حضورِ مندوبٍ من وزارة المالية.

لا أزال أذكر هذه الليلة الصيفية من شهرِ مايو/أيار عام ١٩٩٩م، حين تحرّكت بنا الطائرةُ من مطار الملك خالد الدولي في التاسعةِ مساءً، قبل أن نصلَ إلى كيب تاون في الواحدة صباحًا، أيّ في الرابعةِ من صباحِ اليوم التالي بتوقيت الرياض، وأذكر أننا كنّا نتهيّأ للنزولِ من الطائرة حين لمحتُ من النافذةِ اصطفافَ عددٍ من الوزراء والمسؤولين في حكومةِ جنوب أفريقيا، وبرفقتهم السفير السعودي الدكتور سعود زيدان، والذي جاء خصّيصًا من بريتوريا العاصمة السياسية لجنوبِ أفريقيا، حيث يقع مقرّ السفارة السعودية.

كان مشهد وقوفِهم أسفل الطائرة في معاطفِهم الثقيلة تحت الثلج الذي يتساقط بالخارج مهيبًا، وكانت رؤية هذه الأجواء من النافذة مربِكةً، بينما كنّا لا نزال نحفظ في ذاكرتنا شعورَنا بحرارة الصيف قبل صعودنا إلى الطائرة قبل ساعاتٍ قليلة فحسب، فحين كانوا هم واقفين بملابسِهم الشتوية هذه، كنّا نحن بملابسَ صيفية خفيفة، لا علاقة لها بالجوّ الذي ينتظرنا بالخارج!

تأخّرنا في النزولِ من الطائرة؛ لأننا بحثنا كثيرًا عن ملابسَ ثقيلةٍ في حقائبِنا، ولكننا لم نجد بالطبع، فاضطررنا لارتداء عدّة قطع من الملابس الصيفية بعضها فوق بعض، ثم هبطنا الدرج، إلى أن استقبلنا المسؤولون استقبالًا رسميًّا، غطّته وسائل إعلامية رسمية، وأمضيْنا في المطار في هذا الصقيع أكثر من ساعة للانتهاء من تصوير الطائرة والمساعدات التي حملناها معنا، ثم تهافتت وسائل الإعلام على المسؤولين والسفير؛ من أجلِ التسجيلِ معهم وللحصول على تصريحاتِهم، إلى أن انتهت المراسم، وتمّ تسليم المساعدات للمسؤولين في جنوب أفريقيا.

اتّجهنا مع السفير إلى مقرّ إقامتنا في فندق هوليداي إن الذي وصلناه قرب الفجر، وهناك أخبرني السفيرُ بأنه سيغادر إلى بريتوريا الآن، على أن يعودَ بعد ستّة أيام حين تصل طائرةُ المساعدات الثانية، ثم صعدنا إلى غرفِنا ونِمْنا، وفي الصباحِ وجدنا مندوبًا من السفارة السعودية في انتظارِنا ليصحبَنا بسيارتِه في جولةٍ للتسوُّق في أسواق كيب تاون لشراء ملابس شتوية مناسبة، وهو ما سمح لنا أن نقفَ إلى جوارِ السفير السعودي في استقبال الطائرة الثانية ونحن نرتدي معاطفَ هذه المرّة مثل الجميع،

وانتظرنـا تمامًـا مثـل المـرّة السـابقة، حتى اكتملـت التغطيـة الإعلاميـة ومراسـم التسـليم والتسـلُّم.

وحملـت هـذه الطائـرة الزميـل عبـدالعزيز أبـو بكـر الـذي أقـام معنـا في بيـتِ السـفير، وبقينـا لأسـبوعيْن نسـتقبل المسـاعدات القادمـة مـن الريـاض.

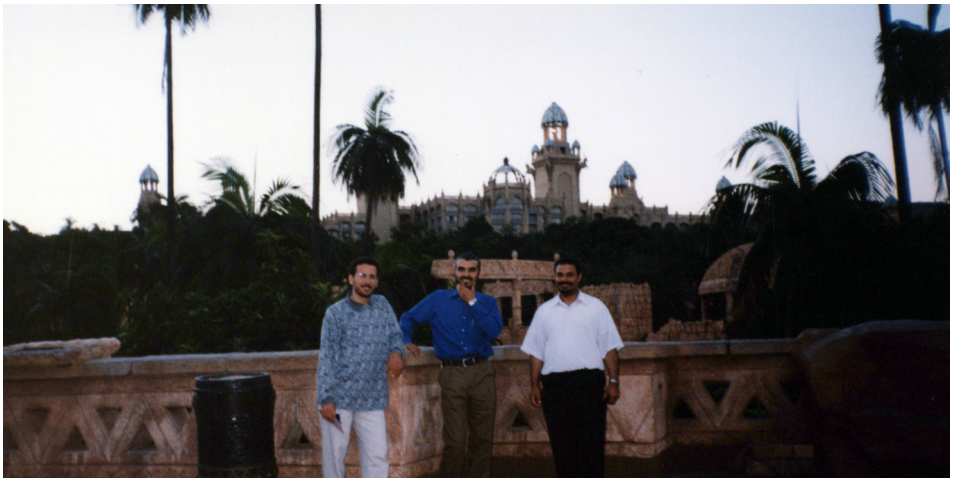

جنوب أفريقيا - عبدالعزيز أبو بكر، خالد الشرهان، لافي ١٩٩٩م

اسـتمرّت السـعودية في تقديـم المسـاعدات لدولـةِ جنـوب أفريقيـا، فوصـل مجمـوعُ مـا أرسـلته المملكـةُ إلى أربـع طائـرات شـحنٍ جامبـو، مـن الريـاض إلى جوهانـسبيرج، تقـدّر حمولتهـا بمئـة طـنٍّ مـن المـوادّ الإغاثيـة، وهـي مسـاعداتٌ حكوميـة تُسـلّم للحكومـةِ في جنـوبِ أفريقيـا بحضـور السـفير السـعودي وممثّلين مـن الحكومـة السـعودية، و تتـمّ تغطيـة هـذا الحـدث مـن وسـائل الإعلام ضمـن مراسـم تسـليم وتسـلُّم متعـارف عليهـا.

عُدْنـا بعدهـا إلى السـعودية، لكـن المسـاعدات لـم تتوقـف، إذ تقـرّر إرسـال طائـرة شـحن أخـرى مـن الريـاض إلى جوهانـسبيرج، على أن أسـافر على مَتْنِ هـذه الطائـرة بنـفسي، لكـن الطائـرة تعطّلـت، وجـاء فريـقٌ مـن الصيانـة لإصلاحِ العطـل، ثـم أقلعـت الطائـرة، ولسـوء الحـظّ تعطّلـت مجـدّدًا بعـد نصـف سـاعة فقـط مـن الإقلاع، فـغيّرت الرحلـةُ اتجاهَهـا، وهبطـت في جـدة مـن أجـلِ الصيانـة، وهنـاك تـمّ استبدال طاقـم الطائـرة، ووصـل فريـقٌ مـن الفنّيين للصيانـة، وظـلّ يعمـل حتى السـاعة الثامنـة صباحًـا، فيمـا بقيـتُ أنـا طـوال هـذا الوقـت حبيسًـا في الطائـرة، فقـد كان جـواز سـفري مختومًـا بختـم الخـروج مـن السـعودية، ثـم غـادر فريـقُ الفـنّيين بعـد أن أصلـح العطـل، ونِمْـتُ أنـا في الطائـرة حتى وصـول طاقـم الرحلـة للإقلاع، وفوجئـتُ لـدى وصولـه في السـابعة مسـاءً أنـه الطاقـم ذاتـه الـذي غـادر الطائـرة قبـل سـاعات، فضحكنـا على هـذا الوضـع الغريـب، ثـم فحصـوا الطائـرة للتأكُّـد مـن إصلاح العطـل، وحين اطمأنّـوا على اسـتقرار الأوضـاع، قـرّروا الإقلاع واسـتكمال الرحلـة، لكـن بعـد سـاعتين فوجئـوا بتعطُّل الطائـرة من جديد، فأجـروا اتصالاتهم، وغيّروا اتجاههم إلى نيروبي حـوالي السـاعة الحاديـة عشرة والنصف، ووصـل فريـقٌ آخـر مـن الصيانـة ومعهـم فنّي مـن طاقـم الرحلـة، أمضـوا ثلاث سـاعات قبـل أن يعلنـوا أن العطـل قـد تـمّ إصلاحـه، فغـادرت الرحلـةُ بعدهـا إلى جوهانـسبيرج، وبالطبـع لـم يكـن أحدُنـا _الطاقـم أو الراكـب الوحيـد وهـو أنـا_ يشـعر بالارتيـاح للتحليـق على هـذا الارتفـاع بعطـلٍ في الطائـرة، يبـدو أن أحـدًا لا يسـتطيع أن يجـزمَ بإصلاحـه، فبعـد حـوالي سـاعتيْن جـاءني الـفنّي المرافـق للطاقـم وأبلـغني أن العطـلَ قـد عـاد مجـدّدًا، لكنهـم سيسـتكملون الرحلـة على أيّـة حـال، ومـن ثـم فقـد قضيـتُ السـاعات التاليـة في قلـقٍ حقيقـي، لكـن _لحسـنِ الحـظّ_ لـم نلحـظ أيّ مـؤشرٍ لتـأثير هـذا العطـل على رحلتِنـا، إلى أن وصلنـا إلى مطـار جوهانـسبيرج في التاسـعة مـن صبـاحِ اليـوم التـالي، حيـث كان في اسـتقبالِ الطائـرة الرجـلُ الثـاني في السـفارة السـعودية، وأُنجـزت مراسـم التسـليم والتسـلُّم وسـط تغطيـة إعلاميـة مـميّزة كالمعتـاد.

وحين ضربـت الفيضانـاتُ موزمبيـق عـام ٢٠٠٠م، فقتلـت وشرّدت الآلاف، تقـرّر إرسـال مسـاعداتٍ إغاثيـة إليها في أسرعِ وقـت، خاصّةً بعد مناشداتٍ عـدّة مـن الأمـم المتحـدة مـن أجـلِ إنقـاذ موزمبيـق، وكانـت المسـاعداتُ تحتـوي على مـوادّ غذائيـة وأدويـة وخيـام، وقـد كُلِّفْتُ بإيصالِهـا مـع فضيلـة الشـيخ عبدالبـاري الثبيتي إمـام الحـرم النبـوي الشريـف.

وفي العـامِ ذاتـه.. عُيِّنْتُ مديـرًا لإدارة الإغاثـة في الـهلال الأحمـر السـعودي، وأشرفـتُ على برنامـج مسـاعدات كوسـوفو الـذي بدأنـاه عقـب قيـام الصرب بمهاجمـة أهـالي كوسـوفو،

ومـا نتـج عـن ذلـك مـن قـتلى وجـرحى وتشريـد أسرٍ كاملـة، لقـد كانـت مأسـاة يَئِنُّ لهـا الضمير الإنسـاني، ولـم يكـن اتّخـاذ قـرارٍ بمسـاعدة كوسـوفو غريبًـا مـن المملكـة العربيـة السـعودية التي تعاطفـت مـع مصابِهـا حكومـةً وشـعبًا، فتـولّى الـهلال الأحمـر السـعودي مهمّـة إيصـال المسـاعدات وتقديـم يـد العـون لمَـن يحتاجهـا، فبـاشرتُ العمـل هنـاك بنـفسي، وبالتعـاون مـع الهيئـات الإغاثيـة السـعودية والإسلاميـة، مثـل: النـدوة العالميـة للشـباب الإسلامـي، وهيئـة الإغاثـة الإسلاميـة والوقـف الإسلامـي، وغيرهـا، فقـد نشـطوا جميعًـا مـن أجـلِ إنقـاذ كوسـوفو، ومـن ثـم فقـد كُلِّفْـتُ بتنسـيق العمـل الإغـاثي وإعـادة إعمـار مـا تهـدّم، وإيـواء المشرَّديـن، وتقديـم الغـذاء والرعايـة الصحيـة للمرضى والمصابين.

ثـم عندمـا ضربـت الـزلال تركيـا عـام ١٩٩٩م، صـدرت توجيهـاتٌ عُلْيـا آنـذاك بإرسـال أربـع مئـة طـنٍّ مـن المسـاعدات، والتي تشـمل مـواد غذائيـةً وأدويـةً ومتطلّبـاتِ إيـواءٍ، وكان دوري يقـتصر على إرسـالها والإشراف على تسـليمِها، على أن تتـولّى إدارة الإغاثـة توزيعهـا.

وفي العام التالي.. عُيِّنْتُ مديرًا لفرع الهلال الأحمر السعودي بمنطقة عسير.

مَهمّة جديدة في عسير

التقـى معـالي الدكتـور عبـدالرحمن السـويلم بصاحـب السـموّ المـلكي الأمير خالـد الفيصـل أمير منطقـة عـسير في إحـدى زياراتـه إلى جـدة، وانتقـد الأمير خلالهـا الـهلال الأحمـر في عـسير.

جـاء معاليـه في الاجتمـاع الصبـاحي الـذي عمـل على تثبيتـه يوميًّـا لمديـري العمـوم، ونقـل استيـاء الأمير مـن أداء فـرع الـهلال الأحمـر في عـسير، بعـد انتهـاء الاجتمـاع كانـت لـديّ مواضيـع تحـت التوجيـه مـن معاليـه فذهبـتُ معـه إلى مكتبـه، وعبّر لي عـن تضايقـه مـن استيـاء سـموّ الأمير مـن فـرع الـهلال في عـسير، وطلـب رأيي في ذلـك، فأبديـت اسـتعدادي لإدارة فـرع عـسير، فقـال: أأنـتَ متأكّـد؟ قلـت: نعـم.

كنـتُ وقتهـا مديـرًا لإدارة الإغاثـة ومكلّفًـا ببعـض المسـؤوليات، مـن ضمنهـا: ملـف إغاثـة جنـوب أفريقيـا وموزمبيـق، و كـرّر معاليـه سـؤاله: متأكّـد؟ قلـت: نعـم.

انتهـى اللقـاء، وسـافرتُ إلى جنـوب أفريقيـا وموزمبيـق، وبعـد مـدّة تلقّيـت اتصـالًا مـن مديـر مكتـب معـالي الرئيـس في الريـاض، وقـال: إن معـالي الرئيـس سـيكلمك، فسـألني عـن العمـل وسيره، ثـم أخبرني بأنـه التقـى بصاحـب السـموّ الملـكي الأمير خالـد الفيصـل، ونقـل لسـموّه خبـر ترشـيحي لإدارة فـرع الـهلال الأحمـر في عـسير، وكان ردّ الأمير مقتضبًـا: ليبـاشر غـدًا.

عـرض عليّ أن أبـاشر في أقـرب وقـت، فقلـت: إنني أحتـاج إلى عشرة أيـام لإعـداد نـفسي وترتيـب أمـوري.

عـدتُ إلى الريـاض، وسـلّمتُ الإدارة لمسـاعدي، واجتمعـتُ مـع معـالي الرئيـس، فحفّـزني وشـكرني، وقـال إنـه سيبـذل الجهـد لتطويـر فـرع عـسير وتغـيير الصـورة، قلـت مـن هنـا أنطلـق، فلقـد كانـت وظيـفتي في الريـاض، وكذلـك أهلي وبـيتي.

سـافرتُ إلى أبهـا في رجـب ١٤٢٠، وكنـتُ قـد أعـددتُ هديـةً لصاحـب السـموّ الملـكي الأمير خالـد الفيصـل، وهـي كتـاب عـن مسـيرة الهلال الأحمـر السـعودي، وصـورة مـن أول تقريـر عـن الإسـعاف الخيري عـام ١٣٥٤هـ، وأول محضر اجتماعٍ لأعضاء الإسـعاف الخيري، وغلّفـتُ الهديـةَ تغليفًـا فاخـرًا.

بـاشرتُ العمـل، وتعرّفـتُ على الـزملاء، واجتمعـتُ بهـم، وطلبـتُ تقريـرًا عـن العامـلين والمبـاني والسـيارات والخدمـة الإسـعافية، وزرتُ مراكـز الإسـعاف في المنطقـة، وكان عددها ١١ مركـزَ إسـعافٍ، وفرعًـا رئيسًـا في أبهـا، كانـت مراكـز الإسـعاف جميعهـا مسـتأجرة، عـدا مركـز إسـعاف النمـاص والفـرع الرئيـس الـذي كان آيلاً للسـقوط حسـب تقريـر أعـد في عـام ١٤١٣هـ.

لـم يكـن وضـع فـرع الـهلال الأحمـر السـعودي في عـسير مُرْضِيًـا في كل شيء، فطلبـت مقابلـة سـموّ الأمير للـسلام ولتقديـم نـفسي، وتقديـم الهديـة، والاسـتماع لتوجيهاتـه.

قابلـتُ صاحـب السـموّ المـلكي الأمير خالـد الفيصـل بـن عبـدالعزيز في مكتـب سـموّه السـاعة الواحـدة ظهـرًا، صافحتـه، وقدّمـت نـفسي لسـموّه، كان مهيبًـا ذا شـخصية مبهـرة، سـألني سـؤالًا لـم أسـمعه في المـرّة الأولى، فاسـتوضحته، وقـد كان: أيـن كنـت؟ ومـاذا كنـت تفعـل؟ فأجبتُـه، وقدّمـتُ الهديـة، وخرجـتُ مـن مكتـب سـموّه.

قابلـتُ مديـر مكتـب سـموّه، وأخبرني بأنـه سيرتّـب لي لقـاءً مـع وكلاء الإمـارة، فاتّصـل بهـم، وعرّفهـم عليّ، وأرسـل معـي موظّفًـا مـن المكتـب لمقابلتهـم، فقابلـت الوكيـل الأول: محمـد بـن زيـد، والوكيـل الثـاني: شـاكر شـكوري، ووكيـل الشـؤون الأمنيـة: محمـد بـن راشـد النمـر، سـلّمت عليهـم، ورحّبـوا بي.

أعـددتُ تقريـرًا عـن الوضـع الراهـن لفـرع الـهلال الأحمـر في عـسير، وعـن أفـكاري لتطويره، ورفعـتُ التقريـر لصاحـب السـموّ الملـكي الأمير خالـد الفيصـل ابـن منطقـة عـسير، فوجـدتُ استحسـانًا مـن سـموّه، وتفاجـأتُ أن اقتراحـاتي تـمّ نشرهـا في جريـدة الوطـن، والتي تزامـن صدورهـا مـع مبـاشرتي العمـل في أبهـا.

- بـدأتُ بتحـفيز الموظّـفين وتشـجيعهم على الاتصـال بـالقطاعات الحكوميـة، والمـدارس، والجامعـات، والشـؤون التجاريـة؛ لعمـل دورات إسـعافية (برنامـج الأمير نايـف للخدمات الطبيـة الطارئـة).
- ألحقنا مسؤولي الفرع ومديري المراكز بدورات تدريبية.
- دعمنا الفرعَ بسيارات إسعافٍ جديدة، وطوّرنا الورشة، وغرفة العمليات.

- أدرجنـا مشروعَ بنـاء ١١ مركـزَ إسـعافٍ في الميزانيـة، وتـمّ التنسـيق مـع إدارة الميزانيـة في وزارة الماليـة؛ لاعتمـاد الـمشروع، وقـد تحقّـق وللـه الحمـد.
- شـاركنا في فعاليـات الصيـف بخمسـة عشر مركـزًا مؤقّتًـا لـفترة الصيـف، وفـرق ثابتـة في السـودة والفرعـاء والحبلـة وعقبـة ضلـع وعلى طريـق الطائـف، وتـمّ انتـداب فـرق إسـعافية مـن الفـروع.
- خاطبنا وزارة البلديّات؛ لتوفير أراضٍ لمراكز الإسعاف، وتمّ منح الفرع ٣٦ قطعةَ أرضٍ.
- عملنـا مقايضـة باستبـدال مـبنى الفـرع الرئيـس في وسـط البلـد، بـأرضٍ على الحـزام الدائـري، وتـمّ بنـاء خمسـة أدوار.
- شـاركنا في تـدشين الموسـم الصيفـي في حفـلٍ برعايـة صاحـب السـموّ الملـكي الأمير خالـد الفيصـل، وسـيارة الإسـعاف القديمـة التي أُعيـد تأهيلهـا، وسـيارة إسـعاف، ومجسّـم سـياحي هـدية مـن خـادم الحـرميْن الشـريفيْن الملـك فهـد بـن عبـدالعزيز.
- دعمنا الفرعَ ببعض الكوادر الجامعية، بالنقل والتعيين.
- عملنـا تدويـرًا بين مديـري مراكـز الإسـعاف للتجديـد والتنشـيط، وللـه الحمـد تحقّقـت قفـزةٌ في الأداء.
- اعتمد افتتاح خمسة مراكز إسعافٍ جديدة، وصار عدد المراكز ١٦ مركزَ إسعافٍ.
- حفزنـا المُسـعفين ومديـري المراكـز والإداريين، بانتدابهـم خـارج المملكـة للمشـاركة في الأعمـال الإغاثيـة.
- بـرز دور الفـرع الرئيـس ومراكـز الإسـعاف في عـسير، وتـغيّرت الصـورة تمامًـا، فقـد صُنّـف فـرع الـهلال الأحمـر في عـسير على أنـه ضمـن أنشـط الإدارات في منطقـة عـسير.
- وكان لدعـم معـالي الدكتـور عبـدالرحمن بـن عبـدالعزيز السـويلم أثـره الفاعـل في تطويـر الفـرع مـع وزارة الماليـة والبلديـات وجميـع القطاعـات الحكوميـة والأهليـة، وافتُتِـح أول مركـز إسـعاف يتـمّ بنـاؤه في بيشـة.

أفغانستــان

ـ إشاعـة قتلــي ـ

عندما اجتاحت القوّاتُ السوفييتية أفغانستان في عام ١٩٧٩م، نزح كثيرٌ من الأفغانيين إلى حدودِ باكستان وبعض الدول المجاورة، وهو ما دعا الهلال الأحمر السعودي إلى إنشاء مكاتبَ إغاثيةٍ في بيشاور وكويتا، وإلى إنشاء خيامٍ لإيواء اللاجئين، وتوزيع أغذية وملابس ومستلزمات أخرى كثيرة.

ولم يقتصر دور الهلال الأحمر السعودي على ذلك، بل أنشأ مراكزَ للأطراف الصناعية، فقد كان يهدف لتخفيفِ الضرر الواقع على الشعب الأفغاني خلال سنواتِ الحرب العسيرة هذه.

بعـد أن انسـحبت القـواتُ السـوفييتية، ورويـدًا رويـدًا انتفـت الحاجـةُ مـن وجـودِ الـهلال الأحمر السـعودي في أفغانسـتان، ومـن ثـم فقـد صـدر القـرار بـإغلاق مكاتبنا في أفغانسـتان عـام ١٩٩٦م، وعـاد الموظّفـون السـعوديون إلى بلدِهـم، وأنهيـت عقـود الموظّفين المحلـيين، لكـن الحكومـة الباكسـتانية طلبـت الإبقـاء على مستشـفيات الـهلال الأحمـر السـعودي في بيشـاور وكويتـا، وهـو الطلـب الـذي لـم يلـقَ معارضـةً منّـا، لكـن إجمـالًا كانـت صفحـة أفغانسـتان قـد أُغلقـت آنـذاك.

كان الظـرف السـياسي قـد تـغيّر، فبعـد سـقوط بـرجي مركـز التجـارة العالمـي في الحـادي عشر مـن سبتمبر/أيلـول عـام ٢٠٠١م، وبعـد اتّهـام أمريـكا لتنظيـم القاعـدة بتفجـير البرجيْن، ومـا تلا هـذا الاتّهـام مـن تدخُّـلٍ عسـكري في الأراضي الأفغانيـة، تقـرّر إرسـال مسـاعداتٍ عينيّـة للشـعبِ الأفغـاني مكوّنـةً مـن مـوادّ غذائيـة، ومسـاعدات طبيـة، ومسـتلزمات إيـواء، تقـدّر قيمتهـا بحـوالي عشرة ملايين دولار أمـريكي، مـع تكليـفِ وزارة الماليـة والاقتصـاد الـوطني، وجمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي، بالإضافـة إلى سـفارة المملكـة العربيـة السـعودية في إسلام آبـاد بإيصـال هـذه المسـاعدات دون التعـاون مـع حكومـة طالبـان.

كُلِّـفَ فريـقٌ ممثّـل عـن الجهـاتِ المذكـورة سـلفًا بالسـفر إلى أفغانسـتان، وعُـرض عليّ الانضمـام إلى هـذا الفريـق، لكـنني اعتـذرتُ؛ لوجـودي آنـذاك في منطقـة عـسير، فسـافر الأعضـاءُ، واجتمعـوا هنـاك برئاسـة سـفير السـعودية في باكسـتان، وقـرّروا الاسـتفادة مـن مشـاريع الـهلال الأحمـر السـعودي في باكسـتان، فاتّفقـوا مـع مورِّديـن لشـراءِ مـوادّ غذائيـة، وعـاد بعدهـا أعضـاءُ الـهلال الأحمـر إلى السـعودية.

طلبتْ منّي الجمعيةُ السفرَ إلى باكستان؛ لتوزيعِ المعونات هناك، فاعتذرتُ، لكنهم كانوا مُصِرّين على سفري، ولم يكن لي خيار، فأذعنتُ في النهاية لقرارِهم، واخترتُ فريقًا من خمسةِ أعضاءٍ ممّن لديهم خبرة ودراية بهذه المهام، فسافرنا إلى إسلام آباد، واجتمعنا هناك مع السفير السعودي، واقترح أن أتولّى أنا رئاسة الفريق، وكان أول ما فعلناه بعدها أن زُرْنا بيشاور، فتفقّدنا المكتب والمستشفيات، ووضعتُ خطّةَ عملٍ، لكنني انتظرتُ وصول ممثّلي وزارة المالية؛ لنبدأ العمل.

كانـت حكومـة باكسـتان قـد منعـت دخـول الأفغـان إلى أراضيهـا، تاركـةً الشـعب الأفغـاني يعـاني الجـوع والـتشرُّد، وكنـتُ أتطلّـع للتدخُّـل، لكـن السـفارة كانـت قـد أصـدرت توجيهًـا بعـدم دخـول الأراضي الأفغانيـة، فصِرْتُ مقيّـد اليديـن، لا أملـك سـوى الوقـوف متفرّجًـا.

أرسـلنا فريقًـا لإدارة مكتب كويتا مكوّنًا مـن أربعـة أعضـاء سـعوديين وموظّـفين محلّـيين، وكانـت تفصلنـا بضعـة أيـام عـن رمضـان، فانتهـزتُ الفرصـةَ لمحادثـة السـفير السـعودي، فقـد تكدسـت المـوادّ الغذائيـة لدينـا، ولا سبيـل لإيصالهـا إلى الشـعب الأفغـاني إلّا بعبـور هـذه الحـدود، وكان فريقـي جاهـزًا ومسـتعدًّا لهـذه المهمّـة مهمـا يكـن أمرهـا، لكـن السـفير كان يـدرك مـدى حساسـية هـذا القـرار، فطلـب مهلـةً؛ للتفـكير ودراسـة الموقـف قبـل اتّخـاذ القـرار.

لـم يكـن أمامـي سـوى الانتظـار، حتى أبلـغني السـفيرُ بموافقتِـه على اجتيـاز الحـدود الأفغانيـة، شريطـة أن يعـودَ

الفريـقُ بعـد إنجـاز عمليـة التوزيـع مبـاشرةً، وكان هـذا بالضبـط مـا نخطّـط لفعلـه، وعلى الفـور بدأنـا العمـل، فأرسـلنا الشـاحنات، ولحقنـا بهـا بعـد يـومٍ أو يـوميْن، فكنّـا نـوزّع، وبدأنـا ننطلـق مـن بيشـاور إلى جلال آبـاد، ثـم نعـود إلى بيشـاور مجـدّدًا، ونكـرّر العمليـة، فنذهـب إلى باجـوار وكونـار عـن طريـق القبائـل، ثـم نعـود إلى بيشـاور في النهايـة، ومـن كويتـا كذلـك كان ينطلـق فريقُنـا إلى مقاطعـة سبين بولـداك، ثـم يعـود مجـدّدًا إلى كويتـا.

أفغانستان ٢٠٠٢م

اسـتمرت الحالُ هكـذا لأيـامٍ، وبطبيعـة الحال فقـد أصـاب الفريـقُ مـا أصابـه مـن الجهـدِ والإرهـاق؛ جـراء طـول السـفر ذهابًـا وإيابًـا طـوال الأيـام الماضيـة.

كنـتُ أنقـلُ أخبـارَ أنشـطتِنا وحالـة الفريـق بشـكلٍ شـبه يومـيّ إلى سـفير المملكـة في باكسـتان، والـمشرف على مسـاعدات الشـعب الأفغـاني، وكنـتُ أجـد لديـه ارتياحًـا كـبيًرا لوصـولِ هـذه المعونـاتِ إلى مسـتحقّيها، ولعـودة أعضـاء الفريـق سـالمين في كل مـرّة.

لكـن بمـرورِ الأيـام.. اضطـرّ أعضـاءُ الفريـقِ للمبيـت داخـل الأراضي الأفغانيـة، فيمـا أعـود أنـا في كل مسـاء إلى بيشـاور؛ لأطـمْئِنَ السـفير على عملِنـا وعلى سلامـة أعضـاء الفريـق، وأعـود مجـدّدًا قبيـل صلاة الفجـر إلى حيـث تركـتُ الفريـق، عابـرًا منطقـة القبائـل، التي تقع خـارج نطـاق سـلطة كلٍّ مـن أفغانسـتان وباكسـتان، وهـو مـا يجعلهـا منطقـة خارجـة عـن القـوانين، فالـسلاح معـروض في واجهـاتِ محلّاتِهـا بـكل أريحيّـة، ويمكـن للمـارّ بهـا أن يـرى البنـادق والقنابـل والـذخيرة معروضـة دون خـوف أو حـذر، وكانـت تجـارة المخـدِّرات لاتختلـف كـثيًرا عنهـا.

وعبـور منطقـةٍ كهـذه لـم يكـن يتـمّ بهـذه السـهولة، بـل كان أشـبه بالتسـلُّل، فكنـتُ أنتقـلُ مـن منطقـةٍ إلى أخـرى برفقـةِ مرافـقٍ، يُسـلمني إلى غيره، وهكـذا حتى أصـل، وهـو ماعشـتُه على مـدى عشريـن يومًـا.

الدكتور عبدالرحمن السويلم أثناء زيارته مكتب الإغاثة السعودي في افغانستان

وقبيل عطلة عيد الفطر المبارك.. اجتمعتُ مع السفير لأشرح له طبيعة الموقف، وحدّثتُه باستفاضةٍ عن وضع المكتب وعن عمليات التوزيع وطبيعة سير العمل، والمعوّقات التي نواجهها، والأثر الذي أحدثه وجود منظّماتٍ أخرى عديدة في الميدان نفسه، وهو ما يبطئ من عملنا ويحدّ من كفاءته، فأطلعتُه على الموقف بكاملِه، ولم أُخْفِ عنه شيئًا.

بلغنا نبأ سقوط حكومة طالبان، وكان ممثّلُ هيئة الإغاثة في هذا التوقيتِ في كابل، لكنه تمكّن من مغادرتِها قبل سقوط الحكومة، أمّا ممثّل مؤسّسة الحرميْن، فإنه بقي عالقًا هناك، ولم يجد سوى بيت السفير السعودي الخالي إلّا من حرّاسه، ليلجأ إليه ويحتمي به، فظلّ مختبئًا هناك حتى تدبّر أمر عودته إلى بيشاور.

وكان وفدٌ من الهلالِ الأحمر السعودي برئاسة الدكتور عبدالرحمن السويلم رئيس الجمعية، يرافقه وكيل وزارة المالية للشؤون الاقتصادية، وأمين اللجنة الشعبية لمساعدة الشعب الأفغاني، وفريق إعلامي من وزارة باكستان، قد سافر إلى أفغانستان على متن طائرة اللجنة الدولية للصليب الأحمر بجنيف، بعد أن انضمّ إلى الفريق الأستاذُ الدكتور وحيد حمزة هاشم أستاذ العلوم السياسية بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة، وكان أيضًا على متن الطائرة ذاتها أعضاءٌ من الاتحاد الدولي لجمعيات الهلال والصليب الأحمر، إلى جانب أعضاء من الاتحاد الدولي للصليب الأحمر، ومندوب (إيكو)، حيث هبطت الطائرة في مطار باجرام العسكري، الذي يبعد حوالي ٥٠ كم عن العاصمة كابل، والتي تعذّر الهبوطُ في مطارِها؛ نظرًا لإجراء بعض الإصلاحات به.

كان في استقبالِنا لدى وصولنا مسؤولون من التشريفات، بالإضافة إلى مسؤول أمن السفارة، إلى جانب الحاجّ قرابيك رئيس جمعية الهلال الأحمر الأفغاني، والذي طلب تخصيص وقتٍ لزيارة مقرّ الجمعية، وعلى الفور توجّهنا إلى كابل في سيارة مراسم، وإلى جوارنا سيارة أمن السفارة، ولم تكن الطريق ممهّدةً، فهي من الإسفلت القديم المتآكل كثير الحفر، وعلى جانبيها كانت توجد فرق إزالة الألغام؛ لتمشّط المنطقة وتتأكّد من خلوّها من الألغام، فيما تمتلئ الطريق بالحواجز الأمنية المحلية والدولية، ولقد اجتزناها كلها قبل أن نصلَ إلى منزل السفير السعودي، الذي يحرسه رجالٌ من وزارة الخارجية، وآخرون من الحكومة الانتقالية.

وصل الدكتور عبدالرحمن بن عبدالعزيز السويلم رئيس جمعية الهلال الأحمر السعودي إلى كابل ومعه فريق إداري وإعلامي حوالي الساعة التاسعة صباحًا، وكنّا قد رتّبنا توزيع المساعدات على المتضرّرين الأفغان الذين يتّخذون من مبنى سفارة الاتحاد السوفييتي في كابل سكنًا لهم، ويقدّر عددهم بأكثر من خمسة آلاف شخصٍ، حيث كان يقوم بالتوزيع فريقُ الإغاثة السعودي الموجود في كابل.

انضمّ معالي الرئيس مع الوفد إلى فريق توزيع المساعدات، يساعدونهم ويشاركونهم التوزيع، واستمرّ التوزيع حتى الساعة الواحدة ظهرًا، حيث اتّجهنا إلى السكن.

كانت زيارة معالي الرئيس إلى أفغانستان أربعة أيام، حيث شارك في توزيع المعونات في كابل وضواحيها، واجتمع مع المسؤولين الحكوميين، ومسؤولي المنظّمات والهيئات الدولية (منظّمات الأمم المتحدة، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ومسؤولي مكتب الاتحاد الدولي للهلال الأحمر والصليب الأحمر في كابل).

رتّبتْ وزارةُ الخارجية عددًا من اللقاءات للدكتور عبدالرحمن السويلم، كان أوّلها وأهمّها مع رئيس جمهورية أفغانستان حامد كرزاي، والذي رحّب بالدكتور عبدالرحمن وبالهلال الأحمر السعودي، وكنتُ أرافق الدكتور عبدالرحمن في زياراتِه بصفتي مدير مكتب الإغاثة السعودية في كابل.

حامد كرزاي رئيس أفغانستان - زلزال بغلان ٢٠٠٢م

التقينـا الرئيـس في حـوالي السـاعة الخامسـة عصرًا، كان رجلًا ودودًا ومضيافًـا، اسـتقبلنا بحـرارةٍ وكأننـا أصدقـاء قدامى، وحكى لنـا عـن زيارتِـه الأولى خـارج البـلاد، والتي كانـت مـن أجـلِ زيـارة الحـرميْن الشريـفيْن، طـاف خلالهـا بالكعبـة وقبّـل الحجـر الأسـود، وسـعى بين الصفـا والمـروة، وصلّى بالمسـجد النبـوي الشريـف، وسـلّم على الرسـول صلى اللـه عليـه وسـلم وأصحابـه الكـرام، ثـم زار الأمير عبداللـه بـن عبدالعزيـز وليّ العهـد آنـذاك، والأمير سـلطان كذلـك، وعـددًا مـن مسـؤولي الدولـة، وكان يقـول: «حين كنـتُ هنـاك، دعـوتُ اللـه أن يوفّقنـا في قيـادة أفغانسـتان».

تبادلنـا أحاديـثَ ودّيّـة، سـألني خلالهـا إن كنـتُ أُجيـد الفارسـية أو إحـدى لغـاتِ الأفغـان، وكنـتُ معجبًـا بتواضعِ الرجـل ولطفه، وشـكرتُه مطـوّلًا على كرمه وكـرم الشـعب الأفغـاني، وعلى التعـاون الـذي أبداه المسـؤولون في الحكومـةِ الانتقاليـة، ثـم انتقـل حديثـه إلى معـالي رئيـس الجمعيـة، الـذي تحـدّث بـدورِه عـن رسـالة الـهلال الأحمـر السـعودي، والمسـاعدات التي يقدّمهـا، وتحـدّث عـن إنشـاء مصنـعٍ للملابـس وآخـر للسـجّاد في كابـل، وعـاد كـرزاي مجـدّدًا ليحكي تفاصيـلَ أخـرى عـن زيارتِـه للمملكـة، ثـم شـكر الدكتـور عبدالرحمـن بشـكلٍ شـخصي، ثـم شـكر المملكـة قيـادةً وشـعبًا على الـدور الـذي لعبتـه خلال السـنوات الماضيـة في مسـاعدةِ الشـعب الأفغـاني، لقـد كان الرجـلُ يكـنُّ احترامًـا كـبيًرا للعـربِ بشـكلٍ عـام، وللسـعوديين بشـكلٍ خـاصّ، حتى إنـه قـال: «إذا أردنـا أن نسـتوضحَ أمـرًا دينيًّـا، فإننـا نسـأل العـرب، وإن كان رجلًا عاديًّـا منهـم».

وحين أُذّن لـصلاةِ المغـرب، نهضنـا لنـصلّي جميعًـا، وحين انتهينـا مـن الـصلاة، ودّعنـا فخامـة الرئيـس، وغادرنـا قصرَه عائديـن إلى مكتبِنـا، وقضى رئيـس جمعيـة الـهلال الأحمـر الأيـامَ التاليـة في لقـاءاتٍ متواصلـة مـع: وزيـر الخارجيـة، ووزيـر الدولـة للشـؤون الإسلاميـة، ووزيـر الماليـة، ووزيـر الصحـة، ووزيـر النقـل، ورئيـس بلديـة كابـل.

وفي هـذه الأثنـاء.. أرسـلتْ وزارةُ الخارجيـة السـعودية فريقًـا مكوّنًـا مـن سـتّةِ موظّـفين يحملـون معهـم عشريـن ألـف تـأشيرة للحـجّ، وصلـوا في العشريـن مـن ذي القعـدة، واسـتقرّوا في بيـتِ السـفير، وكانـوا يائـسين مـن نجـاحِ مهمّتهـم، فحاولنـا مسـاعدتهم، وتحدّثـتُ معهـم بشـأنِ خطّتهـم، وأحضرتُ لهـم مئـة موظّـفٍ، ثـم تحدّثـتُ مـع موظّفـي الهيئـات والمنظّمـات، إلى أن أرسـلوا سـتّة وعشريـن آخريـن، ثـم قدّمـت الخارجيـة مئـة واثـنيْن وثلاثين موظّفًـا، وكنّـا نعمـل على مـدار السـاعة حتى بلـغ العـدد خمسـة عشر ألفًـا في خمسـةِ أيـامٍ فقـط، كلهـا مختومـة وجاهـزة، وبالفعـل تجمّـع الحجّـاجُ في المطـار بملابـس

الإحـرام، وكانـت تكبيراتُهم تتعـالى، حتى بـدأت تخبـو ويخفـت صوتها، إذ لـم يكـن بالمطـارِ أيّـة طائـراتٍ لحملِهـم إلى مكـة، وبعـد سـاعاتٍ مـن المحادثـات، أرسـلت بريطانيـا والهنـد وباكسـتان والإمـارات والسـعودية أربـعَ طائـرات مـن طـراز (C130)، حملـت عـددًا كـبيًرا منهم إلى السـعودية، ومـن بينهم ضيوفنـا: رئيـس الـهلال الأحمر الأفغـاني، ورئيـس بلديـة كابـل، ووكيـل وزارة الخارجيـة، ورئيـس المراسـم، لكـن بقـي آلاف الحجّـاج عالـقين في المطـار، ومـن ثـم فإننـا كنّـا نقـدّم لهـم المسـاعدة بين الحين والآخـر، فقـد أمضـوا ليـالي طويلـة بملابـس الإحـرام الخفيفـة وفي أماكـنٍ مفتوحـة في درجـة حـرارة ١٠ تحـت الصفـر.

وذات ليلـة.. قـرّر وزيـرُ النقـل أن يذهـب إلى المطـار ليسـتقلّ طائـرةً؛ بغـرض إحضـار طائـراتٍ لنقـل الحجّـاج، كما قيـل آنذاك، إذ لـم يكـن في كابـل كلها سـوى طائـرتيْن، إحداهما تخـصّ الرئيـس حامـد كـرزاي، والثانيـة هـي التي سيسـتقلّها وزيـرُ النقـل في رحلتِـه، إلّا أن الرجـلَ قُتـل في ظـروفٍ غامضة، في السـاعة العـاشرة مسـاءً، واتُّهم بعـض الحجّـاج بقتلِـه.

فوجئـتُ في صلاة الفجـر بوجـودٍ غربـاء بيننـا، وعقـب انتهـاء الـصلاة أبلغـتُ بمـا حـدث لوزيـر النقـل، وأخبروني أن الرئيـس حامـد كـرزاي يريـد لقـائي، فذهبـتُ إليـه مسرعًـا، وكان مشـغولًا بقضيّـةِ الحجّـاج، لكنـه عاجـزٌ عـن حلّها، فسـأل: مـاذا بإمكانكـم تقديمه لإنهـاء أزمة الحجّـاج هذه؟

تفكّـرتُ لبعـض الوقـت، ثـم أجبتُـه أن مهمّتي هـي إغاثـة مـواطني أفغانسـتان ممـن عانـوا مـن وَيْلاتِ الحـرب وتبعاتهـا، أمّـا مـا يطلبـه منّي، فليـس مـن اختصـاصي، ولـم يكـن لي أيّ اتصـالٍ بـوزارة الخارجيـة إلّا مـن خلال السـفير السـعودي في باكسـتان، أو مـن خلال رئيـس جمعيـة الـهلال الأحمـر، لكـنني وعدتُـه بالتشـاور مـع الدكتـور عبدالرحمـن السـويلم؛ مـن أجـلِ إيجـاد حـلٍّ لهـذه المشـكلة.

هاتفـتُ الدكتـور عبدالرحمـن بمجـرّد خـروجي مـن قصر الرئاسـة، وأبلغتُـه بمـا دار بيـني وبين الرئيـس، ومـا حـدث لوزيـر النقـل، قـائلًا: لقـد تقطّعـت السـبل بهـؤلاء الحجّـاج، ولا أمـل لهـم إلّا بمسـاعدتِنا، وهـذه هـي الإغاثـة الفعليـة، لـذا أرجـو أن تنقـل مأسـاتهم.

فقال: وكيف تتوقّع أن أفعل ذلك؟

قلتُ: يمكنك أن ترسل برقيةً بما نقلتُه لك إلى خادم الحرميْن الشريفيْن.

تفكّر الرجلُ قليلًا، ثم سأل: هل هذا على مسؤوليتك؟

فلم أتردّد في الإجابة، وقلتُ: نعم.

أرسـل الدكتـور عبدالرحمـن البرقيّـةَ بالفعـل، وجـاءه الـردّ سريعًـا بالموافقـة على اسـتئجار طائـراتٍ لنقـل الحجّـاج مـن كابـل إلى جـدة، ثـم تُعيدهـم إلى كابـل مجـدّدًا بعـد أداء فريضـة الحـجّ، على أن تبقـى الحـدود مفتوحـةً حتى فجـر يـوم عر ـة.

وصـل مديـر مكتـب الخطـوط الجويّـة السـعودية إلى كابـل، وبرفقتـه ثلاثـة مسـاعدين؛ لترتيـب اسـتقبال الطائـرات وترحيـل الحجّـاج إلى جـدة، وخلال هـذه الـفترة أقامـوا معنـا، وراقبنـا بأنفسـنا بـدء الـرحلات المغـادرة إلى المملكـة.

وأذكـر أن وسـائل الاتصـال آنـذاك كانـت محـدودةً، فلـم تكـن في أفغانسـتان اتصـالات محلّيـة، وكنّـا نسـتخدم هواتـف الثريـا الإماراتيـة التي كانـت ترسـل وتسـتقبل مـن كل مـكانٍ في العالـم، إلّا السـعودية، فقـد كانـت ترسـل فقـط، لكنهـا لا تسـتقبل المكالمـات.

قـدم إلى كابـل سـفيُر السـعودية في باكسـتان والمشرفُ على شـؤون أفغانسـتان الأسـتاذ علي بـن عـواض العسـيري، وكان برفقتـه وفـدٌ كـبير؛ للتباحـث مـع الحكومـةِ الأفغانيـة بشـأن افتتـاح السـفارة السـعودية في كابـل، ومـع وصـول سـعادة السـفير، كان برفقتـه مسـاعدان إداريّـان وماليّـان وأمنيّـان، كانـوا يعملـون على تأهيـل مبنى السـفارة السـعودية في كابـل ومنزل السـفير السـعودي؛ ليكـون جاهـزًا للتشـغيل، فقـد كان يحتـاج إلى ترميـم كامـل وإعـادة تأثيث، وتـمّ افتتـاح سـفارة خـادم الحـرميْن الشريـفيْن في كابـل افتتاحًـا رسـميًّا بحضـور وزيـر خارجيـة أفغانسـتان الدكتـور عبدالله عبدالله، وبحضـور مسـؤولين مـن الحكومـة الأفغانيـة.

صـادف وصـول السـفير مـع الفريـق أن أُصيـب بعـض أعضـاء الفريـق بسـبب البرد والتـغيّرات الجويّـة إلى حمـى ونـزلات بـردٍ، وكنـت ممّـن أُصيـب بهـذه النزلات، فكنـتُ آخـذ إبـرةً في الصبـاح تسـاعدني على أداء مسـؤوليات المكتـب والعمـل مـع فريـق السـفارة، وفي المسـاء إبـرةً أخـرى؛ لتنخفـض الحـرارة وأسـتطيع النـوم.

لقـد التقـى خلال الزيـارة _التي اسـتغرقت ثلاثـة أيـام_ رئيـس الحكومـة ووزيـر خارجيّتـه، وأعقبهـا افتتـاح السـفارة ورفـع العلـم السـعودي بحضـور وزيـر الخارجيـة الأفغـاني ورمـوز السـلك الدبلومـاسي، وكذلـك فريـق الإغاثـة السـعودي الـذي كان يقـدّر بسـتّة عشر شـخصًا، وأُقيم على شرفِ هذه المناسبة حفلٌ كبير حظي بحضورٍ واسع من الشخصيات المرموقة، وأُقيـم في هـذه الليلـة كذلـك مؤتمـرٌ للأمير نايـف بـن عبدالعزيـز؛ للحديـث عـن أعمـال الحـجّ، وسُـئل الأمير خلال هـذا المؤتمـر عـن الحجّـاج الأفغـان وعـن حقيقـة اتّهامهـم بقتـل وزيـر النقـل الأفغـاني، فـكان ردّ الأمير محايـدًا تمامًـا، إذ نفـى علمـه بتفاصيـل هـذا الحادث، وأعلـن أن المملكـة تتعامـل مـع الحجّـاج الأفغـان مثلهـم مثـل سـائر الحجّـاج، ثـم سُـئل سـموّه عـن حقيقـة وجـود سـعوديين في أفغانسـتان، فنفـى علمـه كذلـك بهذا الأمـر، ومـن ثـم وجّـه أعضـاء السـفارة وكذلـك أعضـاء فريـق الإغاثـة بمسـاعدة السـعوديين العالـقين في أفغانسـتان.

وعقـب انتهـاء الحفـل اتّجـه الحضـورُ _يتقدّمهـم السـفيُر_ إلى المطـار؛ ليشـهدوا بأنفسِـهم مغـادرة الحجّـاج، وكان المطـار آنـذاك يخضـع لإجـراءاتٍ أَمنيّـة مشـدّدة تحـت إشراف القـوّات الأمريكيـة، التي كانـت تـخشى أن يغـادر أعضـاءٌ مـن تنظيـم القاعـدة على متنِ هـذه الطائـرات، و هالنـا وأسـعدنا حين تمكّنّـا أخيًرا مـن صعـودِ الطائـرة للاطمئنـان على الحجّـاج بأنفسـنا أن نـرى الحجّـاج يلبّـون في حماسـةٍ لم نشـهد مثلها، قبـل أن يصمتوا فجـأةً وبلا مقدّمات وينهاروا جميعًـا في بـكاءٍ مـزّق قلوبَنـا جميعًـا، وأثّـر بكاؤهـم هـذا فيّ بشـكلٍ خـاصّ؛ فقـد عايشـتُ معاناتهم منـذ البدايـة، وحاولـتُ قـدر اسـتطاعتي المسـاهمة في حـلّ مشـكلتهم، وهـا أنـا الآن أراهـم وقـد انفـرج كربُهم، وزال همّهم، وأصبحـوا بفضـل الله في طريقِهم إلى مكـة المكرمـة.

المؤتمر الإعلامي للأمير نايف بن عبدالعزيز -رحمه الله- عن أعمال الحجّ

الوقت: ليلة ١٤٢٢/١٢/٢هـ **المكان:** سكن السفير السعودي في كابل

كان سـفيُر المملكـة في باكسـتان والـمشرف على أفغانسـتان موجـودًا في كابـل، ومعـه فريـق مـن السـفارة السـعودية في باكسـتان كان عددهـم تقريبًـا عشرة رجـال، وأعضـاء الفريـق السـعوديين للإغاثـة وعددهـم سـتة عشر رجلًا، سـأل سـموّ الأمير نايـف عـن حجّـاج أفغانسـتان، فقـد تداولـتْ أخبـارٌ أن المتّهمين في قتـل وزيـر النقـل الأفغـاني هـم مـن ضمـن الحجّـاج، ردّ سـموّه أننـا لا نعـرف عـن ذلـك، ونحـن نتعامـل مـع الحجّـاج الأفغـان ونسـاعدهم في تأديـة فريضتهـم كسـائر الحجّـاج، ثـم سـأل الأمير أيضًـا عـن وجـود سـعوديين في أفغانسـتان، فقـال إننـا لا نعـرف عنهـم أيّ شيء، ووجّـه رسـالةً في المؤتمـر للسـفارة السـعودية ورجـال الإغاثـة بمسـاعدة أيّ سـعودي في أفغانسـتان، وكان هـذا أمـرًا مـن الأمير نايـف لسـفارة السـعودية ورجـال الإغاثـة بتقديـم العـون والمسـاعدة لأيّ سـعودي هنـاك.

* * * * * * * * *

غـادرتْ آخـرُ رحلات الحـجّ إلى جـدة في الثامـن مـن ذي الحجّـة، وغـادرتُ أنـا مـع مديـر مكتـب الخطـوط الجويّـة السـعودية في باكسـتان ومسـاعديه إلى إسلام آبـاد، ثـم واصلـتُ طريقـي إلى الريـاض على متن الخطـوط السـعودية، وكان أغلـب ركّاب الطائـرة مـن الحجيـج، وأُبلِغنـا ونحـن في الطائـرة بتغيير خـطّ سيرنـا مـن الريـاض - جـدة، إلى جـدة - الريـاض، ووصلنـا جـدة فجـر يـوم عرفـة، ونـزل الحجّـاج.

ثـم عـادت بنـا الطائـرةُ إلى الريـاض، فقصـدتُ بيـت أهلي مبـاشرةً، سـلّمتُ على والـدتي وحادثتُهـا، كانـت فَرِحَـةً لكـن كان هنـاك شيء يكـدّر فرحتهـا هـذه! وبعـد إلحاحي عليهـا لتتكلّـم، باحـت بمـا في نفسـها: شـوي هنّـاك ولا واجـد عنّـاك، أولادُك كبروا ويحتاجـون إلى رعايتِـك، فلا شيء يعـوّض غيـاب الأب.

كان رئيس جمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي يسـتقبل آنـذاك كل مسـاء ضيـوف الـهلال الأحمـر، وبالأخـصّ الضيـوف الأفغـان، وفي يـوم عيـد الأضحى المبـارك قـام أعضـاء فريـق الإغاثـة السـعودي، ومعهـم نـاصر الغـيلاني الـذي كان ممثِّـلَ مؤسسـةِ الحـرميْن الخيريـة، بتوزيـع المسـاعدات على أطـراف كابـل، فقـد أبلغهـم ممثـل مؤسسـة الحـرمين الخيريـة بأنـه سـيذبح عـددًا مـن الأضـاحي ويوزعهـا على الفقـراء والمحتـاجين وقـد وزع مـا يقـارب ١٠٠٠ بطاقـة، فوجدوهـا فرصـة مناسـبة أن يوزعـوا أيضًـا حقيبـة الشـتاء التي وصلـت ذلـك اليـوم، فاتجهـوا بشـاحنتين مـن حقائـب الكسـوة تكفـي لعـدد البطاقـات الموزعـة، وشـاحنات

أخـرى بهـا اللحـم، كانـت الشرطـة حـاضرة في المـكان للتنظيـم، وعندمـا بـدأ التوزيـع جـاء إلى الموقـع عـدد مـن أفـراد الجيـش الأفغـاني المتـدربين في المعسـكر الأمـريكي بالـزي العسـكري، وحثـوا المواطنين على نهـب مـافي الشـاحنات وأشـاعوا بأننـا نفـرق بين الشـعب الأفغـاني، فبـدأ العـراك بينهـم وبين رجـال الشرطـة وكانـوا يحاولـون أخـذ أسـلحة الشرطـة، وفي أثنـاء التماسـك على الـسلاح حـدث إطلاق نـار عشـوائي، وصعـد بعضهـم إلى الشـاحنة، وكانـوا يلبسـون في أصابعهـم قطعـة معدنيـة لهـا رؤوس مدببـة، فأصيـب ممثـل مؤسسـة الحـرمين في وجهـه وذراعيـه، وأصيـب صـالح العصفـور بقطـع الربـاط في الركبـة، وسـيطرت الشرطـة على الوضـع، ونقـل المصابـون إلى المستشـفى عبر الطريـقِ الترابي، وتـم تثبيـت رجـل صـالح العصفـور بالجبـس مـن القـدم إلى منتصـف الفخـذ.

محمد الملاح، صالح العصفور، خالد الطخيس، محمد شوبارو (مندوب mbc) أفغانستان - كابل ٢٠٠٢م

وبالطبـع توقّـف التوزيـع، وجـاء نائـبُ شرطـة كابـل ومسـاعدوه إلى مكتـب الإغاثـة يعتـذرون عمّـا حـدث، ووعـدوا بالقبـضِ على الفاعـلين وتأديبِهـم، وفي هـذه الأثنـاء حـاول الأعضـاءُ الاتصـالَ بي لإبلاغـي بمـا حـدث، لكنهـم أخطـؤوا في الرقـم، وكلّمـا اتّصلـوا وبـدؤوا يحكـون: أبـو يـاسر، وقـع لنـا حـادث في كابـل، كان الخـط يغلـق بسـبب خشيتـه اسـتقبال اتصـالٍ مـن أفغانسـتان؛ تجنبـاً للتـورط في شـبهة التواصـل مـع تنظيـم القاعـدة.

إلى أن قـرّروا في النهايـة إبلاغَ رئيـس جمعيـة الـهلال الأحمـر الـذي اتّصـل بي وأبلـغني بمـا حـدث، فتواصلـتُ مـع الفريـقِ، وحكـوا لي بالتفصيـل حقيقـةَ مـا حـدث، اطمأننـتُ بعدهـا على الـزملاء، ثـم أرسـلتُ برقيّـةً تتضمّـن تفاصيـل الحادث إلى رئيـس جمعية الهلال الأحمر السـعوي وسـفير المملكـة في باكسـتان، لكـن يبـدو أن الخـبَر كان قـد وصـل محرَّفًـا إلى الضيـوف الأفغـان

لـدى الـهلال الأحمـر السـعودي، فقـد نُقـل إليهـم أني قتلـت في كابـل، وأن زميـلًا لي قـد أُصيـب.

كان الوقـتُ حسّاسًـا، فقـرّرتُ أن أسـافرَ مبـاشرةً إلى كابـل لاحتـواء الموقـف، ولأطـمئنّ بنـفسي على الـزملاء المصـابين في بيشـاور، ولحسـن الحـظّ فـإن الاثـنيْن كانـا في طريقِهمـا للتعـافي، وعـاد زميلُنـا إلى السـعودية، فيمـا بقـي ممثّـلُ مؤسسـة الحـرميْن في باكسـتان.

حين وقـع زلـزال في إقليـم بـغلان، وتهدّمـت البيـوت وتشرّدت الأسر، وأُصيـب عـددٌ غير قليـلٍ منهم، سـافر الرئيـسُ حامـد كـرزاي بنفسِـه إلى بغلان؛ لرؤيـةِ الوضع بعينيْه، وكنـتُ مـع الرئيـس على متن الطائـرة نفسـها، ومعـي رئيـس الـهلال الأحمـر الأفغـاني حـاج قرابيك.

أفغانستان ٢٠٠٢م

وفي بغلان أُقيم مؤتمرٌ صحفي في موقعِ الحادث، فألقى الرئيس كلمته، وحين انتقلت الكلمة إلى وزيرٍ معه، داهمنا زلزالٌ آخر في الموقعِ ذاته، وأذكر أننا سمعنا صوت تحطُّم الصخور، وبدأت الأحجار تسقط من أعلى الجبل، فهرب الناس مُسرعين، وتفرّق الجميع وأنا معهم أركض مثلما يركضون، لا أدري إلى أين! كانت لحظات صعبة، الله وحده يعلم تفاصيل الحدث، ثم عُدْنا بعدها إلى كابل برفقة الرئيس، وتشكّلت لجانٌ لحصر الخسائر، ولبدء الإصلاح ومعالجة الأضرار.

كانت حكومةُ المملكة قد أرسلت من يقوم بأعمال السفير السعودي في كابل، وكانت الحكومة الأفغانية قد منحته منزلًا بجانب السفارة الأمريكية، ورأينا آنذاك أن نتّخذ لنا مكتبًا في هذه المنطقة، فكنّا على مقربةٍ من السفير والسفارة الأمريكية ومبنى التلفاز الأفغاني، فمنطقة بهذه الأهمية ستكون أكثر أمنًا لوجودِنا في أفغانستان.

وكنّا في هذه الأثناء قد بدأنا في تجهيز مصنع الملابس، فاخترنا المكان، واشترينا المعدّات والأدوات والأقمشة، واستأجرنا العاملات، وسرعان ما بدأ المصنع يخرج باكورة إنتاجه الذي اشتريناه كاملًا، ووزّعناه ضمن خطّتنا في توزيع المساعدات، واستمرّ الإنتاج منذ ذلك الحين، وكنّا نسعى دومًا للتطوير والزيادة في الإنتاج، وهو ما فعلناه بالضبط في مصنع السجّاد، إذ اشترينا إنتاجه الأول، وقدّمناه هدايا للأفغانيين، وانتهزنا فرصةَ وجودِ القائم بأعمال السفير، فافتتحَ بنفسِه المصنعيْن.

افتتاح مصنع الملابس والسجاد - أفغانستان - كابل - ٢٠٠٢م

عُـدْتُ إلى المملكـة في الثـاني والعشريـن مـن شـهر يونيو/حزيـران عـام ٢٠٠١م، فبـاشرتُ عـملي في عـسير مديـرًا عامًـا لفـرع الـهلال الأحمـر السـعودي، وأكملـتُ خلال هـذه الـفترة بنـاءَ مراكـز الإسـعاف، وأنهيـتُ مشروع الفـرع الرئيـس، وبذلـك ارتفعـت مكانـةُ فـرع الـهلال الأحمـر السـعودي في عـسير لـدى كلٍّ مـن المواطـن والمسـؤول على حـدٍّ سـواء.

رفضـتْ عائـلتي فكـرةَ الانتقـال للإقامـةِ في أبهـا، على الرغـم مـن جمـال طبيعتهـا واعتـدال مناخهـا، وكنـتُ قـد وضعـتُ الأسـاس اللازم لاسـتكمال العمـل في الفـرع، ولـم تعـد الحاجـةُ ماسّـة لوجـودي في عـسير، فانتهـزتُ الفرصـة وعُـدْتُ إلى عـملي في الريـاض؛ لأكـون بين أهلي وعائـلتي.

عنـد عـودتي إلى الريـاض، وبعـد قرابـة العـامَيْن مـن عـودتي مـن أفغانسـتان، عُيِّنْـتُ مديـرًا لتنميـة المـوارد، وانطلقـتُ بعدهـا في جولـةٍ عبر الإمـارات وإيـران وماليزيـا واليابـان؛ لزيـارة بعـض جمعيـات الـهلال والصليـب الأحمـر في هـذه البلـدان.

2 5'02

تقرير زيارة مندوب سفارة خادم الحرمين الشريفين في باكستان لفريق التوزيع في كونار

قـدر الله أن أقـوم برحلـة أو بالأصـح (مهمـة) لهـذه المنطقـة المسـماة بـ (كونـر) أو (كونـار) وفي أفغانسـتان بشـكل خـاص والباكسـتان بشـكل عـام ، وهي منطقة قبليـة تركتها المملكة المتحـدة عندمـا خرجـت مـن اسـتعمارها لباكسـتان وأفغانسـتان كمنطقـة متنـازع عليهـا بين الدولـتين ، كمـا تركـت مناطـق كـثيرة وكـبيرة في العالـم وجعلتها كمسـمار جحـا الـذي نسـمع بـه في الأمثـال العربيـة ، وتسـمى أيضـاً بمنطقـة القبائـل .

وكونـر هـذه تقـع في شرق أفغانسـتان شـمال مدينـة بيشـاور الباكسـتانية التي تبعـد عنهـا مايزيـد عـن مـائتي كـم، وعاصمـة هـذه الولايـة تسـمى أسـد آبـاد، وكان لحركـة طالبـان في هـذه الولايـة ومـن كان يطلـق عليهـم المجاهديـن صـولات وجـولات حيـث كان يـكثر فيهـا مـن يسـمون المجاهـدون العـرب، وكانـو يحظـون فيهـا بـكل حمايـة وترحـاب، تربطهـا ببيشـاور المدينـة الباكسـتانية الكـبيرة المجـاورة لهـا بخـط بري غير مسـفلت يـخترق عقبة كـبيرة بينها وبين كونـر، وتشـبه تلـك العقبـة لحـد مـا عقبـة كـرى الرابطـة بين الطائـف ومكـة المكرمـة.

اللغـة الدارجـة في هـذه الولايـة هـي لغـة البشـتون التي تنطـق بهـا أغلـب المدن الباكسـتانية والافغانيـة، حيـث يمثـل البشـتون في هـاتين الدولـتين ماتزيـد نسـبتـه عـن ٦٠/مـن سـكانها، وهنـاك في أفغانسـتان الهـزارى والطاجيـك التي ينتمـي لهـا أغلـب قـادة حكومـة كـرزاي في الـفترة قبـل الأخيرة مـن سـقوط طالبـان ومنهـم أسـد بانـشير أحمـد شـاه مسـعود الـذي تـم اغتيالـه بواسـطة صحفـي تـونسي بكمرتـه الملغمـة والحادثـة معروفـة وكيـف وقعـت حينـذاك، وهـو كان يمثـل دولـة مسـتقلة في الجـزء الشـمالي الغـربي مـن كابـل، وكذلـك وزيـر الخارجيـة عبدالله عبدالله ووزيـر الداخليـة أحمـد يونـس قانـوني ووزيـر الدفـاع، وكان يطلـق عليهـم الأخـوة الذيـن لـم تلدهـم أمـاً واحـدة وجميعهـم مـن طائفـة الطاجيـك، وقـد حظيـت بمقابلتهـم جميعـاً دون أسـد بانـشير الـذي اغتيـل قبـل مجيـيء لأفغانسـتان .

كانـت رحـلتي لـ (كونـر) مـع أحـد الأصدقـاء السـعوديين الـذي كان مكلفـاً بعمـل تقديـم

المساعدات السعودية لهذا البلد المسلم الشقيق الذي دعمته المملكة ووقفت معه في نوائبه الكثيرة والكبيرة، وشاهدتُ ماقدمته المملكة للشعب الأفغاني منذ أن عصفت به الأحداث السياسية والعسكرية منذ عشرات السنيين حتى استقر مؤخراً نوعاً ما، وكان صديقي السعودي يعرف المنطقة أفضل مني بحكم إقامته التي تسبقني في المنطقة، ولتنوع رحلاته لهذا البلد الشقيق لتوزيع مساعدات المملكة في كل الولايات الأفغانية التي صاحبته في الكثير منها من كابل حتى قندهار وسين بلدك (التي ربما اكتب عنها مقالاً آخراً ومستقلاً عن هذه الولاية المجاورة لدولة الباكستان من الجهة البشتونية لها)، وكونر ومناطق البشتون المجاورة للحدود الايرانية في كويتا .

شاهدت في (كونر) الكثير من المناظر التي لايمكن تصديقها لو تحدث بها أحد آخر من حيث توفر المخدرات وكثرتها وتنوعها وبيعها في الشوارع والمحلات من مادة الحشيش إلى الهروين، وشاهدت بلاطات الحشيش، وكيف تُعلق على أبواب المحلات التجارية، وكذلك الأسلحة التي توجد بها من المدفع وذخيرته حتى أصغر سلاح كالمسدس وذخيرتها، بالإضافة للانفلات الأمني وعدم وجود سلطة للدولة في هذه الولاية حيث تحكم بمنطق قبلي خالص، وهم يحترمون ذلك ولكن ليس لمشايخ هذه القبائل سلطة لمنع وجود مثل تلك الممنوعات التي تمثل دخلاً لسكان الولاية في التجارة والزراعة .. الخ ، وكانت زيارتي لها مع ذلك الصديق الشجاع هي بدعوة من والي أو كبير تلك الولاية لمساعدتي في مهمتي تلك، حيث تمت مقابلته في إسلام آباد ووجه لي الدعوة بزيارته ومناقشة مايمكن أن يسهل مهمتي في ولايته.

الحديث طويل وذو شجون، وقد كان من أعجب ما وجدته في تلك الرحلة التي لاتخلو من المخطورة هو مصاحبتنا أثناء عبورنا لحدود هذه الولاية الكبيرة والمسافة الطويلة بينها وبين بيشاور لرجل أمن أو مايشبه بالمعرف لنا في حالة اعتراض طريقنا من بعض الأشخاص من القبائل التي تتوزع سيطرتها على المناطق القبلية بين كونر وبيشاور، ويستمر معنا ذلك المعرف لبعض الكيلو مترات، وبعدها نعطيه مايشبه أجرته وهو لايشترط بل مانتكرم به عليه، ثم نجد حاجزاً جديداً ويصاحبنا شخص آخر حتى نقطع مسافة معينة ونجد حاجزاً آخراً وينتقل معنا شخص آخر وهكذا دواليك، وكانت رحلتنا أشبه بالعادية في أول النهار حيث لم يعترضنا أحد، وكان سائقنا من البشتون في بيشاور ومعروف لدى صديقي، ولديه خلفية في التفاهم مع من قد يعترض طريقنا دون أن نتدخل في الامر، وقد عمل مع صديقي منذ فترة طويلة، وكان سائقاً ماهراً وملماً بظروف وتعرجات الطريق، حتى دخلنا ولاية كونر، وبالطبع الهدف هو التعريف بنا بين هذه القبائل التي تسيطر على مناطق الطريق الرابط بين بيشاور وكونر كما أشرت .

مادعـاني أن أكتـب عـن هـذه الولايـة هـو ماشـاهدته في الأخبـار مؤخـراً عـن إصابتهـا بزلـزال كـبير أدى لتـدمير الكـثير مـن منازلهـا المبنيـة مـن الـطين، وفقـدان وتشريـد بعـض سـكانها البشـتون الذيـن تربطهم علاقـة قويـة بسـكان المـدن الباكسـتانية المجـاورة لهم، ولاحظـت في الأخبـار كيـف تهـاوت منازلهـم في مناطقهـم تلـك التي لـم تتـغير، وبقيـت على حالتهـا التي تركتهـا عليهـا قبـل مايزيـد عـن ثلاثين عامـاً، (ممـا يوجـب علينـا أن نحمـد اللـه على النعمـة التي نعيشـها وتوفرهـا دولتنـا يحفظهـا اللـه).

كانـت المناظـر مؤلمـة ومحزنـة للأسر التي فقـدت أبناءهـا في ذلـك الزلـزال، وكيـف تُحفـر قبورهـم بالقـرب مـن تلـك المنـازل المنهـارة مـن الزلـزال وهم لايعبـؤون بذلك، حيـث توجد في باكسـتان وأفغانسـتان مناطـق مرشـحة بشـكل دائـم لهـذه الظاهـرة الكونيـة، وقـد لمسـت ذلـك مـن خلال إقـامتي في هـاتين الدولـتين، حيـث في البدايـة كنـت أشـاهد النـاس يخرجـون مـن بيوتهـم مبـاشرة ولـم أكـن أعـرف السـبب وأبقـى داخـل المـنزل بينمـا المفترض هـو الخـروج مبـاشرة وهـو ماعرفتـه لاحقـاً لكي لايسـقط المـنزل على رؤوس أهلـه .

ولايـة كونـر هـذه ولايـة فـقيرة ويوجـد بهـا كثافـة بشريـة عاطلـة عـن العمـل وفيهـا مراكـز سـيطرة للتجـارة المسـموح بهـا والمحرمـة، ويشـكّل تجـار الولايـة حمايـة خاصـة لهـم ولكياناتهـم التجاريـة يصعـب اختراقهـا، وسـيطرة الدولـة معدومـة حتى في إيجـاد الخدمـات لسـكان هـذه الولايـة التي تعيـش بشـكل أقـرب للبدائيـة، وهـو مايجعـل مثـل هـذه الكـوارث مؤلمـة في حـال وقوعهـا على هـذه الولايـات التي لاتسـيطر عليهـا الدولـة.

نعـود للعـودة مـن هـذه الولايـة لبيشـاور وهـي المرحلـة الخطـرة في الرحلـة حيـث تجولنـا في المدينـة وتعـذر علينـا مقابلـة الـوالي الـذي وعدنـا بالمقابلـة، ولا أسـتبعد أنـه كان يـخشى على نفسـه مـن التواصـل معنـا، حيـث بقينـا فيهـا حتى حـل المسـاء دون أن نعـرف كيـف سـتكون عودتنـا ودون أن يخبرنـا السـائق بخطـورة العـودة لبيشـاور في المسـاء، حيـث خرجنـا مـن الولايـة عندمـا حـل الـظلام، وإذ بسـائقنا قـد تـغير وانقلـب لشـخص آخـر في قيادتـه للجيـب الـذي تملكـه تلـك المؤسسـة السـعودية التي يعمـل فيهـا صديقـي، وإذا بـه ينطلـق بـأقصى سرعـة في خـط بـري صـغير، وكانـت السـيارة تقفـز في بعـض الأماكـن لـعشرات الأمتـار دون أن يتحـدث معنـا، فقـد كان يتحـدث العربيـة بشـكل جيـد ومفهـوم، ووضـع مايشـبه الـغترة على رأسـه وغطـى بهـا وجهـه، حاولـت أن أثنيـه وأنبهـه لقيادتـه المتهـورة ولكنـه لـم يلتفـت لنـا، وشـاهدت في الطريـق بعـض الأضـواء الصـغيرة التي تـقترب مـن الخـط، والبعـض الاخـر في الجبـال، ولاحظـت أن هنـاك مايشـبه التنسـيق بينهـا، وكنـت راكبـاً مـع صديقـي في المرتبـة الخلفيـة، وكان المعرفـون الذيـن صاحبونـا في النهـار لايقومون

بعملهم في الليل خشية القتل، واستمرينا على تلك القيادة المتهورة في ذلك الخط البري الجبلي المتعرج الطويل، ولم تقابلنا أية سيارة أو ناقلة في الطريق الذي امتد لأكثر من ساعتين، ورغم محاولاتي أنا وصديقي تهدئة السائق وإحاطته بخطورة قيادته إلا أنه كان مصراً على عدم التحدث معنا أو الالتفات لنا، حتى قربنا من مدينة بيشاور ، وإذا به يقف على جانب الطريق ويشعرنا بأن كل من شاهدنا إضاءة أنوارهم الصغيرة هم قطاع طرق، خلاف غيرهم من الذين يتربصون بمن يسلك الطريق في الليل ويقطعونه وقال بأنه فقد سيارة أُخذت منه في هذا الطريق ويحمد الله أنه لازال على قيد الحياة دون أن يقتل عندما سُلبت سيارته .

واصلنا الرحلة بعد ذلك داخل مدينة بيشاور حتى وصلنا لمقر إدارة صديقي السعودي الذي شاركني أغلب مهماتي في باكستان وأفغانستان دون أن يدري عن عملي الأساسي أو مهمتي التي قدمت من أجلها لهذه الديار والتي امتدت لأكثر من سبعة أشهر قابلت فيها معظم مسؤولي الدولة الأفغانية، بما فيهم الرئيس حامد كرزاي الذي قابلته في مكتبه ووجدت لديه مدير مكتب يتجاوز عمره الثمانين عاماً، وكان رجلاً لطيفاً فاضلاً يكن للمملكة الحب الكثير، وهو من ساعدني وهيأ لي مقابلة الرئيس كرزاي الذي كنت أود منه تحقيق بعض طلباتي، ولكنه لم يستطع لظروف كانت تحيط بمهمتي وخطورتها وتداخل بعض التقاطعات السياسية والأمنية فيها وكانت أحداثها على الساحة الأفغانية.

إيـــــــران

ـ مشروع لم يتم ـ

إيران - طهران
٢٠٠٣م

تلقّـتْ جمعيـةُ الـهلال الأحمـر السـعودي دعـوةً مـن جمعيـة الـهلال الأحمـر الإيـراني لزيـارةِ إيـران، وهـو مـا اعتبرنـاه فرصـةً للتعـرُّفِ أكثر على الـهلال الأحمر الإيـراني وأنشـطته، لـذا لبَّيْنـا هـذه الدعـوة، وسـافر وفـدٌ مـن عشريـن مسـؤولًا برئاسـة الدكتـور عبدالرحمـن السـويلم رئيـس الجمعيـة، والذيـن مـا إنْ وصلـوا طهـران، حتى وجـدوا في اسـتقبالِهم وفـدًا رسـميًّا مـن الـهلال الأحمـر الإيـراني يتقدّمـه رئيسـه ومسـاعدوه، والذيـن كانـوا قـد أعـدّوا بالفعـلِ برنامجًـا كاملًا للضيـوف، يتضمّـن لقاءاتهـم وزياراتهـم، ومنـذ اللحظـةِ الأولى كان الضيـوفُ يلمسـون حفـاوةَ الاسـتقبال وكـرمَ الضيافـة، وعلى الرغـمِ مـن سـعادتِهم بهـذا الاسـتقبال، إلّا أن مضيفيهـم كانـوا أسـعدَ منهـم بهـذه الزيـارة.

ولا يخفـى على أحـدٍ أن الـهلال الأحمـر الإيـراني هـو الأغنى بين جمعيـات الـهلال الأحمـر حـول العالـم، وربمـا سـاهم في ذلـك الـدورُ الـذي يلعبـه في الكـوارث القوميّـة التي تضرب الدولـة بين الحين والآخـر، فـإذا وقعـت كارثـةٌ، فـإن الـهلال الأحمـر الإيـراني هـو المسـؤول الأول عـن معالجـةِ خسـائرها بشـكلٍ مباشر، على أن يقـدّم كشـفَ حسـابٍ لاحـق مـدوّن بـه مـا أنفقـه على علاجِ هـذه الكارثـة، فتسـدّد الدولـةُ المبلـغَ المطلـوب مبـاشرةً.

ويمتلـك الـهلال الأحمـر الإيـراني عـددًا مـن المستشـفيات داخل إيـران وخارجهـا، بالإضافة إلى مصانـع الأدويـة وسلاسـل الصيدليـات، بـل إن أدويـة المخـدِّرات لا تُبـاع ولا تُصرف إلّا مـن خلال صيدليـات الـهلال الأحمـر الإيـراني المصرّح لها بيْعها بشـكلٍ حصريّ.

كمـا يمتلـك الـهلال الأحمـر الإيـراني مـزارعَ ومصانـعَ، وتوجـد رسـوم باسـمِه تضـاف إلى الجمـارك المفروضـة على بعـضِ السـلع: كالتبـغ، والأدويـة، والمعـدّات، واللـوازم الطبيـة.

وبالطبـع.. فـإن رئيـس الـهلال الأحمـر السـعودي قـد أُعجـب بمـا وجـده خـلال هـذه الزيـارة، ومـن ثـم اقتـرح التعـاونَ بين الجمعيـتين السـعودية والإيرانيـة، ولاقـت هـذه الفكـرة ترحيبًـا مـن الجانـبِ الإيـراني، فتـمّ ترتيـب زيـارةٍ خاصّـةٍ لي إلى طهـران، أَلتقي خلالها بالجانـب الإيـراني.

سـافرتُ إلى طهـران عـن طريـقِ دبي، حيـث التقيـتُ بالأسـتاذ حمـد العـوفي وهـو محاسـبٌ قانـوني مكلَّـف مـن مجلـس الشـورى بمراجعـةِ الحسـابات، ونزلنـا سـويًّا في مطـار طهـران، الـذي لـم يكـن قـد اكتسـب طابـع الحداثـة كطابـع مطاراتِ هـذه الأيـام، لكنـه كان منظَّمًـا على كل حـال، أكملنـا الإجـراءات، وخرجنـا نبحـث عمَّـن ينتظروننـا، ففوجئـتُ أن لافتـةً قـد كُتـب عليهـا (Lafif)، وتصـوّرتُ أن هـذا خطـأ في كتابـةِ اسـمي، لكـنني لمّـا حاولـتُ اسـتيضاحـه مـن الرجـلِ الـذي يحملهـا، لـم يسـتطع فَهْمي؛ فهـو لـم يكـن يتحـدّث الإنجليزيـة أو العربيـة، ولا يعـرف شيئًـا عـن الضيـفِ الـذي ينتظـره.

ذهـب العـوفي في طريقِـه، وقـرّرتُ أن أرافـق هـذا الرجـل؛ لعلّـه يوصلني إلى وِجـهتي، وبعـد ثلاث سـاعات ونصـف، وهـي مـدّة أطـول مـن تلـك التي قطعـتُ خلالهـا المسـافةَ مـن دبي إلى طهـران، وصلنـا مقـرَّ شركـةٍ، وهنـاك فوجئـوا بي وباتصـالٍ مـن ضيفِهـم الغاضـب؛ مـن عـدمِ اسـتقباله في المطـار، لكـن لحسـنِ حظّـي فقـد عثرتُ هنـاك على مَـن يتحـدّث الإنجليزيـة، فشرح لي الخطأ، واتّصـل بالـهلال الأحمـر الإيـراني، وأبلغـوه أن مَـن أرسـلوهم لاسـتقبالي لا يزالـون بالمطـار، وكانـوا قـد حجـزوا لي في فنـدقِ انقـلاب، فأوصلـتني الشركـةُ إلى الفنـدق، وهنـاك وجـدتُ موظّفـي العلاقـات العامّـة للـهلال في انتظـاري، وقـد رتّبـوا لي غـرفتي وأخبروني أن المسـؤول عـن اسـتقبالي ـ والـذي مـن المقـرّر أن يكـون مرافقـي في هـذه الزيـارة ـ هـو طبيـبٌ عـراقي، وهـو في طريقِـه إلى الفنـدق.

انقضـتْ سـاعةٌ أو سـاعتان قبـل أن يصـلَ الدكتـور علي حـسين أخيًرا، وهـو رجـلٌ في منتصـفِ الأربعينـات، وعلى الرغـمِ مـن سـنّه الصـغيرة هـذه، إلّا أنـه أكبر طبيـب مُقيـم، ويعمـل مع الـهلال الأحمـر الإيـراني منـذ سـنواتٍ طويلـة، وقـد بـدا سـعيدًا بـرؤيتي، فقـد كان يُكثر مـن الترحيـب بي، وقـصّ عليّ مـا شـاهده في المطـار: «لقـد رأيتُـك واقفًـا تجـادل الرجـل الـذي يحمـل اللافتـة، فقـرّرتُ التوجّـه إليـك، وقـد أيقنـتُ أنـك مَـن أنتظـره، لكـنني فوجئـتُ بـك تذهـب معـه، فتصـوّرتُ أنني قـد أخطـأت».

كنّـا جالـسين في بهـو الفنـدق، ويبـدو أنهـم قـد اختـاروا واحـدًا مـن أفخـمِ فنـادق العاصمـة لاسـتقبالي، وكنـتُ سـعيدًا بتعـرفي على الطبيـب العـراقي وبحفـاوةِ اسـتقبالِه، ثـم قـال لي:

«إن الدكتـور *مستشـار* رئيـس الـهلال الأحمـر الإيـراني، في الطريـقِ إلى هنـا، وبرفقتِـه مديـر عـام الاستثمار».

ومـا إن وصـل الاثنـان، حتى انطلقـا يُرحّبـان بي ويُبْدِيـان سـعادتهما لوجـودي، فقـال: «أنـا مكلَّـفٌ مـن الـهلالِ الأحمـر بالسـفرِ إلى العـراق؛ لأن الأمريكـيين لا يسـمحون للإيرانـيين بدخولِهـا منـذ غـزو العـراق، لكـنني أجّلـتُ سـفري؛ كي ألتقيـك، وإننـا نطمـح لخلـقِ تعـاونٍ يحقّـق تطلُّعـاتِ رؤسـاءِ الـهلاليْن الإيـراني والسـعودي».

وكان مديـر الاستثمار لا يقـلّ عنه حماسـةً، فقد أثنى من فـورِه على فكـرةِ التعـاون، وكان قـد أعـدّ بالفعـلِ برنامجًـا للقـاءاتٍ مـع مسـؤولي الـهلال الأحمـر الإيـراني، كمـا أعـدّ اجتماعًـا مع مسـاعد الرئيـس والمسـؤول الأول عـن الاسـتثمار، وكان مخطّطًـا أن يبـدأ هـذا البرنامـج مـن صبـاح اليـوم التـالي، لقـد كنـتُ أشـعر بحماسـتِهم واندفاعهـم وتلهُّفهـم لإتمـام هـذا التعـاون، ولا أقـول إنني لـم أكـن متحمّسًـا بـدوْري، لكـن ليـس إلى هـذه الدرجـة بالتأكيـد.

اسـتأذن الدكتـور في المغـادرة، وسـافر إلى العـراق، ولـم أره بعدهـا أبـدًا، وكان الوقـتُ لا يـزال مبكّـرًا، فالسـاعة كانـت تـشير إلى الثالثـةِ عصرًا، ورأيـتُ أن أنتهـزَ هـذه الفرصـة في أن أتجـوّلَ قلـيلًا في المدينـة، فقـد وضعـوا سـيارة بسـائقِها تحـت تصرُّفي، على أن يرافقني الدكتور علي حسين في تحرُّكاتي كلها، لـذا خرجنـا سـويًّا حـوالي الخامسـة مسـاءً، وتجوّلنـا في شـوارع طهـران، كانـت الشـوارع مزدحمةً، والمبـاني معظمهـا قديمـة تعـود إلى السـبعينيات أو مـا قبلهـا، ولا أثـر فيهـا لفنـون العمـارة أو التميُّز، باسـتثناء بعـض المبـاني الحديثـة نسبيًّـا، أمـا السـياراتُ، فمعظمهـا قديمـة، ولـم ألحـظ بينهـا السـيارات الحديثـة كمـا في هـذه الأيـام، وإجمـالًا فلا شيء يـميّز شـوارع طهـران سـوى صـور الإمـام الخمـيني التي تغطّـي واجهـات المبـاني، وتتـوزّع في كل مـكان تقريبًـا.

أمّـا الإيرانيـون.. فإنهـم هادئـون ودودون، لا تـكاد تلحـظ مـا يلفـتُ الانتبـاه في سـلوكِهم، ألقيـتُ نظـرةً على المـحلّاتِ، فلـم أجـد مطاعـمَ حديثـةً، لكـنني لاحظـتُ وجـود أسـواقٍ مركزيـة، أغلـب البضائـع المعروضـة فيهـا محلّيـة الصنع، لـم تكـن تلـك الجولـةُ طويلـةً، ولـم يكـن هنـاك الكـثير لأراه، لـذا عُـدْتُ حـوالي السـاعة التاسـعة مسـاءً، حيـث أوصلـني السـائقُ إلى الفنـدقِ مجـدّدًا.

وفي الصبـاحِ التـالي، وبعدمـا تناولـتُ الإفطـار، ارتديـتُ بدلـةً بـدون ربطـة عنـق مثلمـا يفعل الإيرانيـون، وذهبـتُ مـع الطبيـب العـراقي إلى حيـث ينتظرنـا مديـر الاستثمـار، اصطحـبني بـدورِه إلى مسـاعد رئيـس الـهلال الأحمـر الإيـراني، وهـو رجـلٌ وقـور في نهايـةِ الخمسينـات مـن عمـره، كانـت شـخصيته تجمـع بين الغلظـة والحنكـة، فمـا إن دخلـتُ عليـه، حتى رحّـب بي ودعـاني للجلـوس، ثـم بـدأ يتحـدّث عـن الحركـة الدوليـة للـهلال والصليـب الأحمـر، وكان يـرى أن الأوروبـيين هـم مَـن يتحكّمـون بهـا ويسـيّرونها وفقًـا لأهوائهـم، لكنهـم _يقصـد الـهلال الأحمـر الإيـراني_ يعرفـون كيفيـة التعامـل مـع هـؤلاء الأوروبـيين.

حكى لي كذلـك عـن الحـجّ والعمـرة، وعـن ذكرياتِـه في مكـة، وتحـدّث بمحبّـةٍ هائلـة عـن الكعبـةِ والوقـوف بهـا، ثـم تحـدّث بشـكلٍ عـملي عـن الحجّـاج الإيرانـيين والمعتمريـن، وعـن الـدور الـذي يلعبـه الـهلالُ الأحمـر في خدمتِهـم في مكـة والمدينـة، كمـا تحـدّث مطـوّلًا عـن زيـارةِ رئيـس الـهلال الأحمـر السـعودي والوفـد المرافـق لـه، وتطلُّعاتهـم الكـبيرة للتعـاون.

وأثنـاء حديثِنـا ورده اتصـالٌ ينبّئـه أن رئيـس الـهلال الأحمـر الإيـراني ينتظرنـا في مكتبِـه، فنهـض ورافـقني إليـه، والتقينـا في طريقِنـا بمسـؤول العلاقـات العامّـة، فألقيـتُ عليـه التحيّـة، ثـم مضيـتُ في طريقي، دخلـتُ مكتـب الرئيـس، وكان اسـتقباله على خلافِ مَـن التقيتُهم، فـكان رسـميًّا للغايـة، ويتحـدّث بطريقـةٍ تبـدو وكأنهـا خطـابٌ مرسـلٌ إلى الـهلال الأحمـر السـعودي،

فرحّـب بي في إيـران، وأثنى على الدكتـور عبدالرحمن السـويلم، وتـمنّى لي إقامةً سـعيدةً وتعاوُنًا مثمـرًا، وكان حديثـه بالفارسـية، والطبيـب العـراقي يترجـم كلماتـه لي، وحين انتهـى ودّعنـا، فعُدْنـا إلى مكتـبِ مسـاعده، وتحدّثنـا بشـأن أنشـطة الـهلال الأحمـر السـعودي في الإسـعاف والإغاثـة، وحـدّثني هـو بـدورِه عـن مستشـفيات الـهلال الأحمـر الإيـراني خـارج إيـران، وعددهـا ٩ مستشـفيات، تتـوزّع في دبي ورأس الخيمـة ولبنـان واليمـن ومومباسـا، وغيرهـا، ولـم يُخْـفِ أمنيّتـه أن يكـون لهـم مستشـفى في مكـة والمدينـة المنـورة، لكـنني لـم أعلّـق على أمنيّتـه هـذه.

خرجـتُ مـن مكتبِه إلى مكتـبِ مديـر عـام الاستثمـار، وكان مكتبًا واسـعًا وفخمًا بشـكلٍ واضـح، جلسـنا لدقائـقَ نتبـادل أحاديـثَ عاديـةً قبـل أن يدعونـا لتنـاول وجبـة غـداءٍ فاخـرة، وبالطبـع لـم يكـن لائقًـا أن أرفـض دعوتـه هـذه، لكـنني لاحظـتُ أنـه يـأكل بنَهَـمٍ واضـح، وكأنـه يوصِـلُ رسـالةً مـا.

وبعـد الغـداء.. قـدّم لنـا الشـاي الأخضر، ثـم بـدأ يتحـدّث عـن المشـاريع، ثـم عـرض فيلمًـا تعريفيًّـا عـن الـهلال الأحمـر الإيـراني، يشرح رسـالتَه وإدارتَـه وأعمالَـه وأنشـطتَه ومـواردَه.

وكانـت إدارة الاستثمـار قـد رتّبـت لي عـددًا مـن الزيـارات الميدانيـة، على مـدار الأيـام التاليـة: ففـي اليـوم الأول كان مقـرّرًا أن أزور أحـد مستشـفيات الـهلال الأحمـر الإيـراني، ومصنعًـا للأدويـة، وصيدليـة، ومصنعًـا للخيـام وملحقاتِهـا، وكذلـك إدارة تجـارة الخضروات والمـكسّرات، أمّـا في اليـوم التـالي فمـن المقـرّر أن أزور إدارة الكـوارث، وفي اليـوم الثالـث أجتمـع مـع مديـر عـام الاستثمـار، ثـم أقابـل مسـاعد رئيـس الـهلال الأحمـر الإيـراني، وفي اليـوم الرابـع أتجـوّل في طهـران، وأقضي اليـوم في التسـوُّق.

اجتمعـتُ مـع مديـر الاستثمـار، وكان معـه أربعـة مـن مسـؤولي الـهلال الأحمـر الإيـراني، أذكـر مـن بينهـم: مسـؤول الحـجّ والعمـرة والزيـارات، والمسـؤول عـن المستشـفيات، والمسـؤول التجـاري.

انتهـزتُ الفرصـةَ لأشـكرَهم على اسـتقبالِهم وتقديرهـم للـهلال الأحمـر السـعودي، والتعـاون الـذي أبـداه الجميـعُ منـذ وصـولي، ولـم أنـسَ أن أشـكرهم على البرنامـج الـذي أعـدّوه لي، ثـم اسـتمعتُ إلى عرضِهم، إذ بـدأ كل مسـؤول يعـرض أوجـه التعـاون مـن زاويتِـه، أيّ حسـب المجـال الـذي يخصّـه، لقـد كانـت الرغبـةُ في التعـاون حـاضرةً، ولـم يشـأ مديـر الاستثمـار أن تنتهـي هـذه الجلسـة قبـل أن يعلنَهـا صريحـةً:

«إنني أطمح إلى إيجـاد مجـالاتٍ للتعـاون بين الـهلال الأحمـر الإيـراني ونـظيره السـعودي، وأرجـو أن يتحقّـق هـذا قريبًـا على أرضِ الواقـع».

لـكني لـم أكـن جهـة اتّخـاذِ قرارٍ، فشرحـتُ لهم نيّتي أن أعـدّ تقريرًا لأقدّمه إلى رئيس الهلال الأحمـر السـعودي، الـذي كلّـفني بهـذه المهمّـة، وسـأعرض في هـذا التقريـر كلَّ مـا لمسـتُه بنفسي مـن أنشـطة الـهلال الأحمـر الإيـراني، وسـأشرح كذلـك أوجـه التعـاون الممكنـة بين الكيـانيْن، ثـم اسـتأذنتُهم في الانصرافِ؛ للحـاقِ بموعـدي في السـفارةِ السـعودية، ولـم يكـن وداعهـم أقـلّ حماسًـا مـن اسـتقبالِهم.

توجّهـتُ ـبعد خـروجي مـن مكتبِهـمـ إلى السـفارة السـعودية في طهـران، لـم يكن السـفير موجـودًا في هـذا التوقيـت، فالتقيـتُ بالقائـم بأعمـال السـفير ومسـاعديه الـذي اسـتقبلني بحفـاوةٍ في مكتبِـه، وشرحـتُ لـه طبيعـة المهمّـة التي جئـتُ إلى إيـران مـن أجلِهـا، والتي كانـت بتكليـفٍ مـن رئيـس الـهلال الأحمـر السـعودي، وكانـت في سـياقٍ متّصـل بزيارتِـه الأخيرة خلال الشـهر المـاضي.

ثـم عُـدْتُ إلى المملكـة العربيـة السـعودية أخيًرا عـن طريـقِ دبي مـرّة أخـرى، وعنـد عـودتي التقيـتُ برئيـس الـهلال الأحمـر السـعودي، وقدّمـتُ لـه تقريـرًا عـن زيـارتي لإيـران، والـذي لـم يُفـضِ إلى شيءٍ في نهايـةِ المطـاف، فلـم يحـدث أيّ تعـاونٍ بين الجانبيْن، ولـم تتكـرّر هـذه الزيـارات بعدهـا.

نهايــة الرحلــة

انتهـت مهـمتي مديـرًا إقليميًـا لبرنامـج إغاثـة المتضرريـن الأفغـان في باكسـتان وأفغانسـتان بعـد أن قضيـت إحـدى عشر شـهرًا متنقلًا بين إسلام أبـاد و بيشـاور وكوتـا وفي أماكـن تواجـد المتضرريـن، ثـم انتقلنـا إلى أفغانسـتان، في البدايـة اتخذنـا مـن منزل سـفير المملكـة في كابـل مقـرًا لمكاتبنـا وسـكننا، ثـم اسـتأجرنا مكتبًـا وسـكنًا في كابـل، بعدهـا عـدت لعـملي في فـرع جمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي في عـسير، إذ كان العمـل قائمًـا في بنـاء المشـاريع مـن مراكـز إسـعاف وفـرع رئـيسي للمنطقـة في أبهـا، بالإضافـة للتوسـع في اسـتحداث مراكـز إسـعاف في عـسير.

وبمـا أن تطويـر عمـل الفـرع قـد اكتمـل ولله الحمـد ولـم يعـد بحاجـة إلا إلى رقابـة ومتابعـة انتهـت مهـمتي كمديـر عـام فـرع جمعيـة الـهلال الأحمـر في عـسير وطلبـت العـودة إلى المركـز العـام في الريـاض.

بـاشرت العمـل في المركـز العـام مستشـارًا لمعـالي الرئيـس، واسـتلمت مهـام إغاثيـة وإداريـة، وعـرض علي العمـل في الأمانـة العامـة لجمعيـات الـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر العربيـة في جـدة، على أن أكـون مسـاعدًا للأمين العـام الأسـتاذ عبدالـغني اشي.

وافقـت وصـدر قـرار تكليفـي، فسـافرت إلى جـدة حيـث اسـتقبلني زمـيلي مديـر فـرع الـهلال الأحمـر في جـدة سـابقًا علي بـن مبـارك العـوفي، والعلاقـات العامـة في الأمانـة العامـة لجمعيـات الـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر العربيـة، وأخذونـا لبيـت سـعادة الأسـتاذ عبدالـغني اشي الأمين العـام فاسـتقبلنا بترحيـب حـار وأكرمنـا.

وتحدثنـا عـن بدايـات جميعـة الـهلال الأحمـر السـعودي وذكريـات البدايـات عـام ١٩٦٣م وعمـل الأمانـة العامـة لجمعيـات الـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر العربيـة التي تأسسـت عـام ١٩٧٥م، وبـارك جلالـة الملـك فيصـل بـن عبدالعزيـز تأسيسـها، ورشـح الأسـتاذ عبدالـغني اشي أمينًـا عامًـا لهـا.

كان عبدالـغني اشي قـد تقـدم بـه العمـر، لكـن كانـت ذاكرتـه جيـدة، وإدارتـه حازمـة، ولديـه علاقـات واسـعة وقويـة على الصعيديـن المحلي والـدولي.

وباشرت وقتها العمل في الأمانة العامة مدة سنة تقريبًا متنقلًا بين جدة والرياض.

الحركة الدولية للصليب الاحمر والهلال الأحمر

نشأة الحركة الدولية:

- هنري دونان : مؤسس الحركة.
- ١٨٥٩ معركة سولفارينو.
- ١٨٦٢ تذكار سولفارينو.
- إنشاء جمعيات في وقت السلم للمساعدة أثناء النزاعات.
- تأسيس اللجنة الدولية لإغاثة الجرحى كمنظمة محايدة.
- ١٨٦٣ اللجنة الدولية لإغاثة الجرحى: أسسها خمس مواطنون سويسريون والتي أصبحت فيما بعد اللجنة الدولية للصليب الأحمر.
- ١٨٦٣ قامت الحكومة السويسرية يحثها الأعضاء الخمسة بعقد مؤتمر دبلوماسي حضرته ١٦ دولة.
- ١٨٦٤ اتفاقية جنيف الأولى: تحسين حال الجرحى و المرضى في الميدان.
- ١٨٧٦ حرب البلقان: استخدام شارة الهلال الأحمر و الأسد و الشمس الحمراوان.
- ١٨٩٩ اتفاقية جنيف الثانية: لتحسين حال الجرحى و المرضى و الغرقى في المعارك البحرية .
- ١٩١٤ – ١٩١٨: الحرب العالمية الأولى و التي نتج عنها عدد كبير من الأسرى.
- ١٩١٩ الاتحاد الدولي.
- ١٩٢٩ اتفاقية جنيف الثالثة: مراجعة و تطوير اتفاقية عام ١٩٠٦ اتفاقية جنيف المتعلقة بأسرى الحرب .
- ١٩٣٩ – ١٩٤٥ : الحرب العالمية الثانية و ما نتج عنها من خراب واستخدام أسلحة جديدة وموت عدد كبير من المدنيين.

- ١٩٤٩ اتفاقية جنيف الرابعة بخصوص حماية المدنيين.
- اتفاقيات جنيف الأربعة بشكلها النهائي .
- ١٩٦٥ إعلان المبادئ السبعة .
- ١٩٩٧ اتفاقية اشبيلية لتقسيم العمل بين مكونات الحركة .

مكونات الحركة الدولية للصليب الاحمر والهلال الأحمر:

- الجمعيات الوطنية.
- الاتحاد الدولي.
- اللجنة الدولية.

الجمعيات الوطنية:

- تعمل الجمعيات الوطنية كجهات مساندة لحكومات بلدانها في المجال الانساني.
- تقـوم بتقديـم مجموعـة مـن الخدمـات تشـمل برامـج صحيـة ورعايـة اجتماعيـة وسـلامة عامـة وإغاثـة، وهـي تعمـل بشـكل مسـتقل عـن بعضهـا البعـض.
- في زمن الحرب تقدم المساعدة للجرحى والمرضى، وتساعد أسرى الحرب واللاجئين والمحتجزين المدنيين.
- يتوجـب عـلى كل الجمعيـات الوطنيـة اتبـاع (المبـادئ الاساسـية لحركـة الصليـب الأحمـر والهـلال الأحمـر).
- ٩٧ مليون متطوّع منهم ٢٠ مليون متطوع نشط.
- ٣٠٠,٠٠٠ موظّفًا يساعدون قرابة ٢٣٣ مليون مستفيدًا كلّ سنة .

الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر IFRC (١٩١٩)

- يعمل الاتحاد على قاعدة: (المبادئ الاساسية لحركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر).
- يدعـم الاتحـاد كافـة الأنشـطة والفعاليـات الإنسـانية الـتي تقـوم بهـا الجمعيـات الوطنيـة لتحسـين أوضـاع الفئـات الأشـد ضعفـاً.
- ينسـق جهـود الإغاثـة للجمعيـات الوطنيـة لمسـاعدة ضحايـا الكـوارث الطبيعيـة في كافـة أنحـاء العالـم.
- يعمـل عـلى تعزيـز التعـاون بـين الجمعيـات الوطنيـة وتقويـة قابليتهـا في مجـال الاسـتجابة للكـوارث والبرامـج الصحيـة والاجتماعيـة.
- يقـدم النصـح ويشـجع خلـق المزيـد مـن جمعيـات الصليـب الأحمـر والهـلال الأحمـر الوطنيـة.

اللجنة الدولية للصليب الأحمر CICR (١٨٦٣)

- أُنشئت عام ١٨٦٣، وتقع قيادة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في سويسرا.
- اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة مستقلة غير منحازة.
- تتصرف كوسيط محايد اثناء الصراعات الوطنية ، والحروب الأهلية والاضطرابات الداخلية.
- تقدم الحماية للضحايا المدنيين والعسكريين على حد سواء.
- مهمتها الإنسانية هي حماية أرواح وكرامة ضحايا الحرب والنزاعات الداخلية وتقديم العون لهم.
- تعمل على منع المعاناة من خلال دعم القانون الدولي الانساني والمبادئ الإنسانية العالمية.

نشاطات اللجنة الدولية:

أولاً: الحماية :

- حماية المدنيين.
- حماية أسرى الحرب والمعتقلين.
- إعادة الروابط الأسرية.

ثانيًا: مساعدة ضحايا النزاعات المسلحة :

- الأمن الاقتصادي.
- المياه و البيئة.
- الخدمات الطبية.

ثالثًا: العمل الوقائي :

- النشر والتعريف بالقانون الدولي الإنساني.
- إدراج القانون الدولي الإنساني داخل القوانين الوطنية.
- برامج التوعية ضد الألغام والنبائط غير المتفجرة.

المبادئ الأساسية للحركة الدولية:

الإنسانية:

- تسعى الحركة الدولية إلى منع معاناة الإنسانية والتخفيف منها أينما وجدت.
- غرضها هو حماية حياة البشر وصحتهم، وضمان احترام الإنسان وكرامته.
- تدفع باتجاه التفاهم المتبادل، والصداقة والتعاون والسلام الدائم بين شعوب العالم كلها.

عدم التحيز:

- لا تميز الحركة الدولية بين القوميات أو الأجناس أو الأديان أو العقائد أو الطبقات أو الآراء السياسية.
- لا تهدف إلا إلى إزالة معاناة الإنسان.
- تعطي الأولوية للحالات التي تتطلب عملاً عاجلاً والفئات الأشد ضعفاً.

الحياد:

- للاحتفاظ بثقة الجميع ، تمتنع الحركة الدولية عن مناصرة أي جانب أثناء النزاعات أو العمليات العدائية.
- كما تمتنع الحركة الدولية عن التدخل في أي وقت في خلافات ذات طبيعة سياسية أو عرقية أو دينية.

الاستقلالية:

- حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر حركة مستقلة.
- الجمعيات الوطنية تخضع لقوانين بلدانها وتساعد حكومات دولها في القيام بالأعمال الإنسانية.
- لكن يتوجب عليها أن تحافظ على استقلالها الذاتي لتعمل دائمًا حسب مبادئ الحركة.

الخدمة التطوعية:

- هي حركة إغاثة تطوعية.
- لا يحفزها الربح بأي شكل من الأشكال.

الوحدة:

- لا يمكن أن يكون هناك سوى جمعية صليب أحمر أو هلال أحمر واحدة في أي بلد.
- عضوية الجمعية مفتوحة للجميع.
- خدماتها متاحة للجميع وشاملة لكافة أنحاء القطر.

الخدمة العالمية:

- تتواجد الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر في جميع أرجاء العالم.
- هي حركة عالمية تتمتع كل الجمعيات في ظلها بنفس الحقوق وتلتزم بالتعاون فيما بينها.

المنظمة العربية للهلال الأحمر والصليب الأحمر (ARCO)

النشأة والتاريخ:

- تأسسـت في عـام ١٩٧٥م في مدينـة الريـاض بالمملكـة العربيـة السـعودية، ويقـع المقـر العـام لهـا في الريـاض.
- أُنشـئت لتكـون جهـة إقليميـة تجمـع جمعيـات الهـلال الأحمـر والصليـب الأحمـر في الـدول العربيـة تحـت مظلـة واحـدة لتعزيـز التعـاون والتنسـيق بينهـا.
- تمتلك صفة مراقب لدى كل من الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية.

الأهداف والمهمات:

١. تعزيـز التعـاون والتنسـيق بـين الجمعيـات الوطنيـة في الـدول العربيـة في المجـال الإنسـاني طبقـاً للمبـادئ الأساسـية لحركـة الهـلال الأحمـر والصليـب الأحمـر العالميـة.
٢. نـشر المبـادئ الإنسـانية (الحيـاد، الاسـتقلال، عـدم التميـيز، الإنسـانية، التطـوع، الوحـدة، الشـمولية) في الـدول العربيـة.
٣. تنظيـم البرامـج المشـتركة والمشروعـات الإقليميـة في مجـالات الإغاثـة، الكـوارث، التأهـب للطـوارئ، التدريـب، والتبـادل المعـرفي بـين الجمعيـات.
٤. تمثيـل الجمعيـات العربيـة أمـام الهيئـات الدوليـة والمنظمـات الإقليميـة في المسـائل الإنسـانية والطوارئ.

أهم الإنجازات وأبرز الأعمال:

فيما يلي بعض ما حققته المنظمة أو شاركت فيه من أعمال بارزة:

- مسـاهمتها في التنسـيق الإقليمـي للمسـاعدات في حـالات الكـوارث الـتي تـضرب الـدول العربيـة، مـن خـلال دعـم التعـاون بـين الجمعيـات الوطنيـة.
- تمكـين الجمعيـات الوطنيـة مـن التدريـب التقـني وتبـادل الخـبرات في مجـالات إدارة الكـوارث، الإسـعاف، والمتطوعـين.

- تمثيـل العـرب في المؤتمـرات الدوليـة والمعـارض الإنسـانية، والمشـاركة في صياغـة السياسـات المرتبطـة بالعمـل الإنسـاني في المنطقـة.
- العمـل عـلى نـشر القيـم الإنسـانية والمبـادئ الأساسـية لحركـة الهـلال الأحمـر والصليـب الأحمـر في الأوسـاط العربيـة.

الخاتمــة

كانـت نهايـة الرحلـة قـد اقتربـت، فمـع حلـول عـام ٢٠٠٣م أصـدر رئيـس جمعيـة الـهلال الأحمـر السـعودي قـرارًا بتعـييني مسـاعدًا للأمين العـام للمنظمـة العربيـة للـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر، حيـث كان لي شرف العمـل تحـت قيـادة الشـيخ عبدالـغني آشي، وأتاحـت لي الأيـام والمواقـف فرصـة معرفـة الرجـل عـن قـرب، ولكـم أدهـشني حجـم عطـاء الرجـل الـذي كان ينفـق وقتـه ومالـه كاملاً مـن أجـل المنظمـة، فتراه يقيـم المؤتمـرات هنـا وهنـاك، يسـتقبل ضيوفًـا مـن كـل الـدول العربيـة، فيحسـن اسـتقبالهم، ولا يتـردد ولـو للحظـة في الإنفـاق مـن مالـه الخـاص في سبيـل إنجـاح نشـاطات المنظمـة وإكـرام ضيوفهـا، لكـن الأيـام كانـت تـمضي، والشـيخ يتقـدم بـه العمـر، فـكان لا بـد مـن خليفـة ليخلفـه في موقعـه، ويحـل محلـه أمينًـا عامًـا للمنظمـة، وعلى قـدر سـعادتي باختيـاري كان قلقـي مـن أن أخلـف رجلًا كهـذا، فمـن أنـا لأحـل محلـه وأملأ الفـراغ الـذي سيتركـه؟ لـم يكـن قـرار الاعتـذار سـهلاً، لكنـه كان حتميـا وبـكل أسـف.

كانـت هـذه وداعـيتي في مسـيرتي مـع المنظمـة العربيـة للـهلال الأحمـر والصليـب الأحمـر، فيومهـا خرجـت مـن البـاب الكـبير، ومـن ثـم كانـت عـودتي لاحقًـا، بعـد بضـع سـنوات مستشـارًا للمنظمـة، شرفًـا أؤديـه إخلاصًـا لهـذا الكيـان الـذي بذلـت سـنوات عمـري مـن أجلـه، ولـم أكـن لأتـردد في أن أقـدم مـا تبقـى كذلـك، لكـن كانـت هـذه نهايـة القصـة.

مواد إرشيـفيـة

قوافل المحبة

فيلم توثيقي لجهود هيئة الهلال الأحمر السعودي
في إغاثة متضرري الجفاف في أفريقيا (١٩٨٥-١٩٩٠م)

وثائق وتقاريــر
جمعية الإسعاف الخيري

دور جمعية الهلال الأحمر السعودي في الإغاثة السعودية

مسيرة جمعية الهلال الأحمر السعودي
خلال خمسة وستين عاماً من العطاء

وثائق وتقاريــر
جمعية الإسعاف الخيري

تقرير جمعية الإسعاف الخيري ١٣٦٩هـ

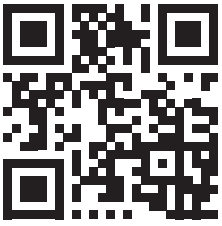

التقرير السنوي لجمعية الإسعاف الخيري ١٣٥٥هـ

وثائق وتقاريــر
جمعية الإسعاف الخيري

تقرير مجلس الإدارة عن أعمال الجمعية خلال عامها الخامس عشر

محاضر اجتماعات لجان الإسعاف الخيري ١٣٥٤هـ

الفهرس

توطئـــة 7
مقـــدمـة 9
ما قبل النشأة 10
عن والدي 17
النشأة 19
الالتحاق بجمعية الهلال الأحمر السعودي 26
السودان 28
الصومال 62
التجربة الإدارية الأولى، وأحداث الحجّاج الإيرانيين 83
الإشراف على تجهيز مقر الطوارئ والإسناد ولقاء الأمير نايف –رحمه الله – 86
جمعية الهلال الأحمر، وأحداث حرب الخليج 87
جمعية الهلال الأحمر، والإشراف على إغاثة أفريقيا 88
سيراليون 91
اليمن الجنوبي 94
الصومال (الزيارة الثانية) 96
مالي 106
موريتانيا 120
العودة إلى الصومال 133
كينيا 136
مساعدات متفرقة (اليمن ـ جنوب أفريقيا ـ موزنبيق ـ تركيا) 152
مَهمّة جديدة في عسير 159
أفغانستان 162
المؤتمر الإعلامي للأمير نايف بن عبدالعزيز عن أعمال الحجّ 176
تقرير زيارة مندوب سفارة خادم الحرمين الشريفين في باكستان 182
إيران 186
الحركة الدولية للصليب الاحمر والهلال الأحمر 193
اللجنة الدولية للصليب الأحمر CICR 196
المنظمة العربية للهلال الأحمر والصليب الأحمر (ARCO) 199
الخاتمة 201

حياة مع الغوث

كتاب يوثق حياتي وتجربتي في الإغاثة والإسعاف والإدارة في جمعية الهلال الأحمر السعودي، ابتدأته بقصة حياة والدي رحمه الله والأحداث التي نشأت فيها، وانتهاء بحياتي العملية، على شكل رحلة عبر الدول التي زرتها للعمل الإغاثي، وختمت الكتاب بالحديث عن نشأة جمعية الهلال الأحمر وبعض ما يتعلق بها.

ليكون موثقًا لقصة حياتي منذ الولادة إلى التقاعد، ومرجعًا موثقًا لبعض جهود المملكة العربية السعودية في مجال الإغاثة والعمل الخيري في مختلف الدول.

لافي بن سعيّد